

مجلة
الثقافة
الوطنية
الديمقراطية

أدب ونقد

العدد
(٢١٤)
يونيه
٢٠٠٣

الجهنم بالسوء في مصر



غالب.. سيد شعراء
الأردية

نسبح نحو مدخل
البحر

عبد العزيز مشري:
حارس الذاكرة

المادية التاريخية..
إعادة البناء

اليهودى العربى فى الرواية الإسرائيلية



أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الثامنة عشر العدد ٢١٤ / يونية ٢٠٠٣

رئيس مجلس الإدارة: د. رفعت السعيد

رئيس التحرير: فريدة النقاش

مجلس التحرير : إبراهيم أصلان

د. صلاح السروي / طلعت الشايب

د. علي ميروك / غادة نبيل

كمال رمزي / ماجد يوسف

حلمي سالم / مصطفى عبادة

علي عوض الله كرار

المراسلات: مجلة [أدب ونقد] ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأماشي

القاهرة / هاتف ٢٩ / ٢٨ / ٥٧٩١٢٢٧ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المستشارون

د. الطاهر مكي / د. أمينة رشيد
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس

شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون
د. لطيفة الزيات / د. عبد المحسن طه بدر
محمد روميث / ملك عبد العزيز

للغلاف
أحمد السجيني
أعمال الصف والتوضيب
نسرين سعيد إبراهيم

تصحيح : أبو السعود علي سعد
لوحة الغلاف : للفنان عبد الهادي الجزار
الرسوم الداخلية: عبد العزيز مشري

الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة

شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر
يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدي أو البريد الإلكتروني:

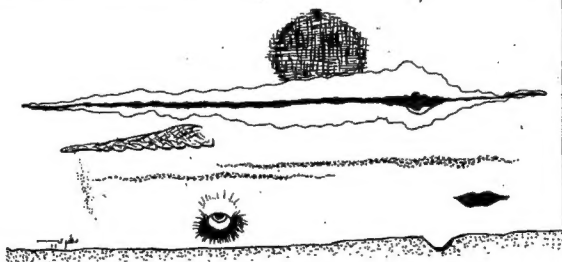
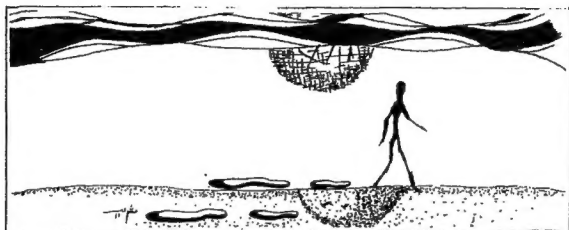
adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر
صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المحتويات

- * أول الكتابة / المحررة / ٥
- الجهر بالسوء فى مصر / وجهة نظر/ إبراهيم العشرى / ٩
- ليس فى نعى بغداد/ رؤية/ غادة نبيل / ٢٩
- الحياة الأمريكية/ شعر وغناء/ مادونا/ ٣٦
- معنى المأساة/ شعر/ جرجس شكرى/ ٣٨
- ٢٠ مارس.. الميدان مرة أخرى/ شعر/ سامى الغباشى/ ٣٩
- * عبد العزيز مشرى.. حارس ذاكرة القرى/ ملف / إعداد وتقديم: محمد القشعمى/ ٤١
- دعه يستمتع ولو بلحظة فرح/ م.أ/ ٤٣
- بطل ليس من هذا الزمان/ شهادة/ عبد الله محمد حسين/ ٤٦
- وشم الذاكرة/ شهادة/ عزيزة فتح الله/ ٤٨
- مشرى: تلويحة ليست أخيرة / أحمد الدويحى/ ٥٠
- * المغزول : فصل من آخر روايات المشرى/ ٥٣
- سيرة شخصية/ ٧٢
- * المادية التاريخية.. إعادة البناء/ مساحة فكر/ د. عاطف أحمد/ ٧٤
- * غالب سيد شعراء الأردية/ دراسة/ أنثا مازى شيمل/ ٧٩
- مختارات من غزليات ميرزا غالب/ ترجمة وتقديم: هانى السعيد/ ٩٥
- * الديوان الصغير : نسبح نحو مدخل البحر/ شعر كاميليا بول إيدى/ ترجمة وتقديم: وليد الكبيسى/ ٩٩
- الكاميرا والحكى / نقد/ أحمد الشريف/ ١١٥
- التصوير بالسلاح/ جان لوك بينو زيجليو/ نص/ ترجمة/ عايدة لطفى/ ١٢٠
- إشكالات المصطلح الغربى فى نقدنا الجديد/ دراسة/ د. سمير حجازى/ ١٢٦
- يوسف/ شعر/ سمير الأمير/ ١٣٢
- ثلاث قصص قصيرة/ قصة/ عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل/ ١٣٤
- الحادثة/ قصة/ محمد عبد العظيم / ١٣٦
- الشارع الثقافى / إعداد/ عيد عبد الحليم/ ١٣٨
- الميكائيل.. والبازيل/ رأى/ على عوض الله كراى/ ١٤٤



أول الكتابة

فريضة النقاش

الشعور الفاجع بالمهانة هو القاسم المشترك الأعظم بين العرب حتى هؤلاء الذين ربطوا أنفسهم بأمريكا سواء كان ارتباط مصلحة أو تعليقاً بالمثل الأعلى للحياة الأمريكية ، تلك الحياة الاستهلاكية الحرة المعجونة بالأحلام الوردية والتي تروج للدعاية المحسومة الآن أننا نحن الضعفاء في جنوب العالم نحسد الأمريكيين عليها ، ونموت حسرة لأننا لا نستطيع أن نعيش مثلاً ، ويسبب من كل هذا الحسد وهذه الحسرة نصدر لهم الإلهام لكي يدمروا ما عجزنا عن الوصول إليه ويحرموا الأمريكيين من حياتهم اللذيذة ومن تفاخرهم بها على العالمين ، ويبرهنوا للأمريكي العادي على صحة الطرح العنصري للمنظرين الأمريكيين الجدد الذين يقولون بصراع الحضارات والديانات ويروجوا لهذه المقولات لتصبح هي القناع الأكثر بروزاً لعودة الاستعمار القديم السكري المباشر للاشتغال بكل آلياته وتجديدها . وهو الطمع الذي التقطه بسهولة الأصوليون من نعمة الخصوصية الذين بنوا خطابهم الفكري والسياسي على القول بأن ما يجري هو حرب على الإسلام ، أي صراع حضارات وديانات كما ييشر المعتنون وزعماءهم الفكريون والسياسيون .

وامتلات الساحة الفكرية بأنبياء ميتسرة ومغلوبة تشبه الصراع ، وتفرق الجمهور الواسع في الشعور بالاضطهاد من قبل الآخرين نصارى ويهوداً ، ويشعر المسيحيون العرب بالغيرة والغربة ويتهيئون نفسياً وفكرياً لصراع طائفي في كل بلد عربي على حده طالما حلمت به إسرائيل وتقوتهم جميعاً مسلمين ومسيحيين فرصة تطوير علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الحركة العالمية الناهضة المعادية للاستعمار والصهيونية .

نحن مهانون حتى الانحاع .. نعم هذه واقعة تشهد عليها تفاصيل الحياة اليومية في كل من العراق وفلسطين ، لا بل في كل أرض عربية انتهكتها الاستبداد والفساد ، وهيمنت عليها طبقة أو أسرة أو عشيرة أو قبيلة صارت امكانات التقدم ، وبذت ثروات البلاد ، وأحتمت بالأجنبي ودمرت روح الشعب ومواجه في اليأس والقنوط والعدمية والتردى الأخلاقي الشامل، ونجحت بسبب ممارساتها القمعية في خلق شعور عميق باللاجئ وبإستحالة التغيير فاستفحلت الحالة القدرية الشائعة أصلاً بتجزر القراءة غير التاريخية للنصوص الدينية وراجت الأساطير والخرافات حتى أن مواطنين عقلاء عارفين بالطابع الوحشي لنظام صدام حسين الذي لم يتمكن الشعب العراقي من تغييره حتى أسقطه الاحتلال . أخذ هؤلاء العقلاء يرددون فكرة الاختفاء والظهور المفاجئ وهم ينسجون الحكايات على غرار «ألف ليلة وليلة» عن المدن التي شيدها «صدام» تحت الأرض ليعيد جيشه فيها والذي سيظهر ذات يوم لمحاربة الاحتلال وتحرير العراق وإقامة العدل فيه .

وكأن العقل الباطن الجمعي قد استبطن ديمومة القهر واستعذبتا حتى أنه يعيد إنتاجها في الحكايات بحثاً عن أمل تعجز الجماهير عن خلقه في الواقع . إنها حالة الاستكانة لقلة الحيلة والعجز الجماعي والفردى عن المبادرة والابتكار أو استشراف آفاق المقاومة طويلة المدى والنفس تؤهلنا بمجرد التفكير فيها وإطلاقها والتنادى من أجلها للتحرر من المهانة التي أخذت تلتصق بنا مثل جلودنا وتخرق وعينا كأنها قدر محتوم فتقعنا وتشل حركتنا وتفكيرنا .

ناهيك عن شظف العيش كمهانة ما بعدها مهانة في بلدان غنية بثرواتها وناسها لكنها منهوية امتص الفاسدون دمها ولبنها وعرقها وهم لا يعرفون الخجل بل ويجهرون بالسوء كما يسجل الكاتب إبراهيم العشري في قراءته الأدبية البحثية الممتعة لبعض تجليات التدهور الاجتماعي والأخلاقي في البلاد وأبعادها السياسية ، وهي عملية مركبة أنتجت هذه الحالة من الشعور الفاجع بالمهانة والقنوط ولعل تأملها وإدراكها في شمولها أن يساعدنا على الرد على سؤال محوري يسأله الناس جميعاً لماذا كان رد فعل العرب على ما يرتكب في حقهم على مدى ثلاثين عاماً أدنى كثيراً من الأفعال الإجرامية ، وكان غزو العراق واحتلال أراضيه أخرها ، وقبل هذا الغزو كانت انتفاضة الشعب الفلسطيني المتواصلة التي دعمناها في الخطابة والإنشاء بون فعالية .

حدث قريب من هذا وقع قبل عشرين عاماً حين اجتاحت إسرائيل لبنان واحتلت عاصمته بون أن تنهض حركة عربية عارمة ترقى إلى مستوى الحدث ودلالته ، إلى أن نهضت المقاومة اللبنانية بمهاتها وأخرجت الاحتلال وانسحبت إسرائيل من بيروت ولكنها عشت في الجنوب كالعنكبوت ثم كان أن اندحرت بالمقاومة التي لقيت بدورها عوناً عربياً بالخطابة والإنشاء .

ولا يخفى شعور اللبنانيين بالمرارة من الموقف العربي على أي لبيب يتعرف ولو قليل من العمق على الشخصية اللبنانية، خاصة وأن لبنان هش في توازناته الطائفية التي أحياناً ما تهدد عرويته وتدفع ببعض طوائفه لالتماس العون خارج الوطن العربي والاستقواء بالأجنبي .

وهكذا يشعر العراقيون الآن بمرارة كالعلقم لا فحسب لأن الأشقاء خذلوهم .. وأعدوا العشاء لجنود هولاكو كما يقول «محمود درويش» ، ولكن أيضاً لأن أحزاباً تقدمية ومثقفين ذوي مصداقية لهم أن ساندوا النظام القمعي الوحشي «لصدام حسين» يدعوى أنه يمثل القومية العربية تارة ، ويدعوى أنه يواجه الامبريالية الأمريكية تارة أخرى ، وشاعت في أوساط هؤلاء المثقفين وهذه الأحزاب ما أسميه فكر المفاوضة حيث جرى التغاضي عن إهدار الحقوق الأساسية للشعب العراقي الذي تعرض لأشنع أنواع القسوة من قتل وبتر أطراف وسجن ونفى واستخدم الأسلحة المحرمة دولياً وتميز طائفي وديني - ويرد هؤلاء ذلك كله باسم الموقف القومي أو معاداة الصهيونية أو إعادة بناء العراق في ظل الحصار .

نحن مطالبون للخروج من المهانة أن نبادر بفتح جروحنا وغسلها وتطهيرها مهما كان ذلك مؤلماً حتى نكون قادرين على المقاومة التي ستطول طالما بقي الاستعمار والاستبداد والاستغلال .

نحن مطالبون بالتخلص من الأوهام والمثل العليا الزائفة والروح التجارية النفعية التي تروج لها الرأسمالية الطفيلية التابعة ، وتجدد لها أجهزة الإعلام والثقافة والإعلان إمكاناتها لينطلق وحش الهوس الاستهلاكي في مدن الحرمان والجوع وهوامشها المخيفة ويأسها العميق .. قذاريتها ومرضاها وتاكلها المعنوي وضمورها الجسدي بسبب الفاقة وثقافة الاحتجاج التي تتخلق في صفوفها عفوية وشعبوية حيث

تحميتها بعض روابط المودة والرحمة من الانهيار الكلى ، وحيث يخرج أطفالها من المدارس ويتكسبون فى حوارها الضيقة المهيبة يستغلهم تجار المخدرات والمجرمون ذلك كله بسبب العجز عن دفع نفقات التعليم التى تشترطها المؤسسات المالية النواية من أجل إقراض البلاد ، وبتوافقا مع توجهات البنك الدولى قاله جمال مبارك» رئيس لجنة السياسات فى الحزب الوطنى والمرشح الضمنى لرئاسة الجمهورية إنه لابد من إلغاء مجانية التعليم الذى لم يعد مجانيا كما سبق القول. ولكنه القول الذى يعنى أن نفقات التعليم سوف تتجاوز كل قدرات الفقراء على التحاليل للعيش ، وأن أجيالا بكاملها من الأميين سوف تولد وتموت على أرض هذا الوطن دون أن تعرف معنى الحياة.

بينما تواصل أجهزة الإعلام والثقافة تقليم أظافر الاحتجاج الشعبى بإصرارها على ترويح المثل الأعلى للحياة الأمريكية والحلم الأمريكى وهو خصم عنيد لروح المقاومة الجماعية لأنه حلم تأسس على الفردية المطلقة والمنافسة الوحشية وعبادة الأشياء واختراع حاجات جديدة بسبب الوفرة الهائلة ، ولدفع الجماهير البسيطة للتعلق المرضى بهذه الحاجات وهو ما يخلق إستلابا من نوع جديد .وتقوم أجهزة الإعلام والثقافة فى بلادنا التى أفقرها النهب بإعادة إنتاج هذا الحلم بمكوناته الباهرة المسموحة أى بذخ العيش والانغماس فى الذات وبناء الأسرة الصغيرة وحماية مصالحها ويحترق العالم .

ونتذكر هنا الزعيم الهندى المهاتماغاندى حين قاد مقاومة الشعب الهندى السلمية ضد الاحتلال البريطانى والتى توجهها بعد ذلك كفاح مسلح وشعبى حينذاك دعاء «غاندى» شعبه إلى العيش حياة بسيطة تقوم على الحد الأدنى من الحاجات الأساسية والصحة الجيدة والقدرة على مقاومة المرض بالفداء الصحى البسيط والعمل المشبع إنسانيا ، أى أنه دافع عن البساطة الجميلة الملهمة التى تخلص الإنسان من استعباد الأشياء له، وكان يرى فى ذلك الزمن الجميل أنه حتى تصبح الهند مثل أمريكا أو إنجلترا فإنه يلزم العثور على عنصر ما أو أماكن ما على سطح الأرض لاستغلالها، وكان الزعيم العظيم يلخص بذلك- وبصورة عبقرية حقيقة الرخاء الذى تعيش فيه الدول الاستعمارية باعتبار أنه من جانب منه نتاج لنهب هذه البلدان لثروات الشعوب التى احتلت أراضيها.

حتى نقاوم.. وتتواصل المقاومة فى شعوليتها محليا وعربيا نحتاج قوة ثقافية روحية عميقة تتأسس عليها مبادئ المقاومة، وتخلق مثلها العليا الجديدة، لتكون هذه المقاومة المنشودة على صورتنا وليست تقليدا لتجربة أو نموذج آخر، مقاومة تستلهم ما فى تراث الحضارة العربية الإسلامية وتراث العالم كله من خبرات ومبادئ ودروس ، تزأج بين قيم العمل الجماعى الضرورى لأى تقدم وقيم الحرية الفردية والحريات العامة ولا تقايس حقا بحق، من قيم العمل الجماعى تخلق طابعها العربى الشامل الذى لا غنى عنه ، ومن قيم الحريات الفردية تضع قدمها فى قلب العالم الذى يطور الديمقراطية كأساس للانطلاق وتبنى عليها الحركة الهائلة لمناهضة العولة والإمبريالية الجديدة صروحها ، ومن الحساسية إزاء الظلم والاستغلال الطبقي يبرز الطابع الاجتماعى ومثل الاشتراكية العليا..

هكذا سيكون بوسعنا أن نجدد الحركة الثورية العربية ، وأن نسهم كمثقفين جماعات وأفرادا فى الخروج من حالة المهانة المدمرة إلى حالة الأمل.. نخطو خطوات صغيرة على الطريق الطويل المتعرج الوعر ..إلى قلب الشعب.





الجهر بالسوء فى مصر

دراما الخروج من الزمن المعيارى إلى الزمن اللامعيارى

أبراهيم العشرى

يقول لها :

يلتذد البحر ابتاعا فى احتدام الرياح ويلقى بهم تحت ضرس الغناء .

الجهر بالسوء هو أحد تجليات المجتمع (اللامعيارى) فى سياق تاريخى محدد. ولقد ورد فى المآثور النبوى (أن الله لا يحب الجهر بالسوء) و(أن الله لا يحب الفاحش المتفحش) والمتفحش هو الذى يجاهر برذائله وسوءاته، وهذا الجهر بالسوء يأتى عكس التوجيه النبوى (إذا بليتيم فاستتروا) فى إشارة تربوية متقدمة إلى أهمية حماية النسيج الأخلاقى للمجتمع.

وبداية فإن هذا المدخل الدينى ليس مزايده على الشعور الدينى لأى أحد من باب (ها نحن أكثر إسلاما من أجاهرين بالسوء والذين هم مسلمون يجاهرون بالصوم والصلاة وأداء العمرات وكأئنا أخذوا من الإسلام شعائره الظاهرية فقط نون أن تنعكس أبداً على أرواحهم فى سمو أخلاقى رفيع).

أيضا يهمنى التأكيد على أن ظاهرة الجهر بالسوء ليست مقصورة فقط على أفراد مشخصين بالاسم لكنها أيضا تنسحب على مجتمع هو الآخر يجاهر بإسلام ظاهرى مع كونه مجاهراً بالسوء ، أيضا إن هذا المجتمع على استعداد للفك بائى شخص يرفع شعارات العلمنة مثلا من

باب كونها (كفراً) .. أيضاً هذا المجتمع على استعداد للفتك بأي شخص يجزئ مثلاً على انتقاد مسلسل (أمام الدعاة- الشيخ الشعراوي) من باب إسباغ القداسة على بعض البشر مع أنه لا قداسة في الإسلام لأي أحد سوى للرسول، ومع أنه من الثابت تاريخياً أن بعض الصحابة ومنهم مبشرون بالجنة ومحل تقديس عند العوام رفعوا السيوف في وجه بعضهم البعض زمن الفتنة الكبرى والتي كانت بتعبيرات عصرنا (صراع داخل أجنحة السلطة) تحقيقاً لمصالح دنيوية بحتة تتأني بعيداً عن المصالح التي كانت وراء جهاد الرسول والمتمتلة في تأسيس أفكار التوحيد والإيمان وأخلاق التراحم . ووصل الأمر إلى حد تكفير بعضهم البعض من فوق منابر المساجد وكان هذا التكفير العلني أحد شروط الولاء السياسي بعد ذلك.

أيضاً فهذه الظاهرة تتسحب على نظام حكم يجاهر بالسوء على خلفية من السعي إلى (توثيق ذاته) بالشكل الذي يدفعه إلى قمع أي معارضة.

المفهوم:

السوء مفهوم أخلاقي بحت وهو يعني جملة (النواهي) التي تشكل مع جملة (الأوامر) المنظومة الأخلاقية لأي مجتمع . ولأن الأخلاق ظاهرة اجتماعية في الأساس باعتبارها التجلي الثقافي الفوقى للواقع المادى لذلك فنحن هنا لن نفصل بين ظاهرة الجهر بالسوء باعتبارها مفهوماً أخلاقياً وبين علاقة الظاهرة الانعكاسية باقتصاد السوق بشكل سيتم تفصيله فيما بعد .

بداية نقول إن الظاهرة هي مجموعة أحداث (حوادث مترابطة غير متتارة) تقذف بها علاقات الواقع وقوامها الأساسي هو الخروج على نمط وقوالب المجتمع (نتحدث هنا عن الظاهرة الاجتماعية) كظاهرة قتل الأزواج مثلاً والتي عرفت مصر في السبعينيات والثمانينيات على نطاق واسع .. أو ظاهرة قيام أحد الأبناء بطرد الوالدين أو أحدهما أو أشقائه من شقة العائلة حتى يتسنى له الزواج فيها تحت ضغط مشكلة الإسكان حيث تمت مصادرة قضية إسكان الجماهير لصالح إسكان الصفوة تطبيقاً لمبدأ سيادة المستهلك (مبدأ سيادة المستهلك هو مبدأ رأسمالي صرف يعنى توجيه إنتاج السلع والخدمات للمستهلك الراغب في الشراء والقادر على الدفع) . أو ظاهرة البلطجة.

ومن الصعب تحديد فجر الميقات الزمني لأول حادثة أو حادث بدأت به الظاهرة لأن التاريخ الذي هو الزمن (نهر سيال) لا يتوقف عند الثابت والمتغير في مجراه العام لأنه ببساطة (لا يعي نفسه) فهذا هو دور الباحث الذي يرصد مجريات التاريخ خارجاً بقانونه لهذا فالباحث يعرف ما يسمى (بالمفاصل) التاريخية . كئن نقول مثلاً إن القرن الـ ١٦ مفصل تاريخي لأنه هو الذي شهد بزوغ الرأسمالية كظاهرة اجتماعية واقتصادية وفكرية ولقد سبق هذا البزوغ مئات التراكمات التي نشأت في رحم المجتمع الإقطاعي ثم تجلت في البزوغ النهائي للرأسمالية . أو نقول مثلاً إن عام

١٩٩١ مفضل تاريخى فى مجرى التاريخ لأنه عام السقوط الرسمى للاتحاد السوفيتى .. لكنه مجرد عام السقوط أو هو مجرد المشهد الختامى لرحلة سقوط طويلة امتلئت بمئات الأخطاء الصغيرة والكبيرة والتي صنعت فى النهاية السقوط الكبير عام ١٩٩١ .. لا يستطيع أى أحد أن يحدد زمنيا بداية سقوط عصر المجتمع البدائى والدخول فى عصر الطبقات .. حدث هذا منذ حوالى عشرة آلاف عام ولكن من خلال آلاف التراكمات التى صنعت فى النهاية بدايات تحلل المجتمع البدائى مثل اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان .. إلخ.

سنرصد هنا تجليات (الجهر بالزنا) أو الجهر بالسوء نونما اعتبار لرصد بدايات الأحداث /الحوادث والتي تواترت فى حدوثها وشكلت الظاهرة، فقط سنرصد أهم علامات المشهد مع التأكيد على أن هذه العلامات والتجليات رافقت سياق تاريخى محدد وهو السبعينيات حتى يومنا هذا تاركين التظليل لنهاية الرصد.

تجل أول : الجهر بالزنا

يمكن اعتبار (أ.خ) المشهور عن زمن(ح.ن) أحد علامات المشهد، فى هذا الكتاب نرى امرأة تعترف وتجاهر على رؤوس القراء عبر صفحات كتابها بأنها كانت زوجة لاثنتين وفى وقت واحد أحدهما بعقد رسمى زوجها الأول والثانى بعقد عرفى (ح.ن) كان للكتاب وقت صدوره وقع الصدمة بكل معنى الكلمة.. صدمة لكل أعراف وتقاليده العقل الجمعى المصرى الذى تعلم عبر تاريخه أن ينأى بنفسه عن مواطن الشبهات فما بالك بالتى تضع نفسها ليس فى موضع الشبهات بل فى وضع المجاهرة بالسوء (الزنا).

تجل ثانى: الجهر بالصمت

حدث فتاة العتبة التى تم اغتصابها فى الثانية ظهرا فى شهر رمضان أوائل التسعينيات وكان مسرح الحادث أكثر ميادين الدنيا ازدهاما- ميدان العتبة- وتم فعل الاغتصاب على مرأى وسماع آلاف البشر المتواجدين بالميدان ولم يحرك أحدهم ساكناً أمام واقعة الاغتصاب.

تجل ثالث: المجاهرة بتسليع الجسد

فضيحة إحدى الممثلات الشهيرات مع أحد رجال الأعمال العرب حيث جاهرته وعلى لسانها بالصحف بعد اكتشاف الفضيحة بأنها (واحدة حلوة ومطلوبة -يعنى إيه مطلوبة !! -واللى يحبنى لازم يدفع فيه دم قلبه).

وحينما سألها أحد الصحفيين عن حقيقة ما أشيع حول قيام رجل الأعمال بصرف ٥ ملايين دولار عليها فى عشرة شهور ردت بالإيجاب وكبرت (الى يحبنى لازم يدفع فيه دم قلبه) .
إنها حتى لم تفكر فى مجرد الاعتذار للرأى العام باعتبارها شخصية عامة مشهورة بل خرجت تؤكد الواقعة وأنها (مطلوبة) فى إشارة غير واعية منها لجمى التسليع التى رافقت اقتصاد

السوق ومنها تسليع الجسد نفسه .. أليست مطلوبة !!

تجل رابع : الجهر بالتزوير

قيام النظام بتزوير الانتخابات وعلى رؤوس الأشهاد عبر عشرات الحيل والأعياب التزوير .. هنا يتم نفى إرادة الجماهير وصولاً إلى تشكيل مجلس شعب مؤتمن على ولائه ولايعارض مثلاً في مد العمل بقانون الطوارئ لثلاث سنوات قادمة ومرة واحدة والجهر بالتزوير يصب في فكرة (توثيق النظام) وسيتم تفصيل ذلك.

تجل خامس : تمويه الانهيار

وهو أحد أشكال الجهر بالكذب - الذى هو سوء - أى الجهر كذباً بسلامة اقتصادنا القومى ومثانة موقف البنوك بعد كل التجريف الذى تم لأموالها (٤٨ مليار جنيه تم نهبها من البنوك) وتتم هذه المجاهرة بون أن يهتز رمش أى مسئول لفداحة مايجاهر به كذباً .
إن أخطر ما فى هذا التجل هو تمويه الانهيار الاقتصادى أى إخفاء الانهيار بزخرف القول ولعبة الأرقام وفرحة النظام بأى شهادة تصدرها إحدى الهيئات التى يطلق عليها صفة الدولية تقيد أن الاقتصاد المصرى يشهد تحسناً ملموساً .

وتؤكد هنا أن شهادة رجل الشارع فى مصر عن أحوال حياته التى يعرفها جيداً هى الأصديق (٤٨٪) من السكان يعيشون تحت خط الفقر - ٧ ملايين مواطن يعيشون فى العشوائيات ومثلهم فى المقابر يزاحمون الموتى فى قبورهم - ٨ ملايين عاطل - ١٣ مليوناً من الجنسين فأنهم قطار الزواج وشكل ذلك لأول مرة مايمكن تعريفه بمصر (عنوسة الرجل) تحت ضغط الأزمة الاقتصادية).

أن تمويه الانهيار - أى اخفائه - هو جهر كاذب بالقوة يتم لحساب مصالح الكرسى والتغطية على طبقة استلحت لنفسها حرمة المال العام ، طبقة رهانها الوحيد سيكون على مقعد فى طائرة تغادر أرض الوطن إلى حيث ترقد المليارات المنهوبة.. هى طبقة يكون فيها جواز سفرها اقتررب إلى قلبها من أى انتماء وطنى إن وقعت الواقعة .

إن تمويه الانهيار يأخذ دائماً (شكل إدعاء العجز عن مواجهة قوى كونية لانهائية السطوة وترويج هذا الادعاء يتم لصالح تميزات اجتماعية نافذة تلائمها السياسات الجارية (١).

تجل سادس : دورة النشل والنشل المضاد

حينما يعجز النظام عن إشباع الحاجات الأساسية للجماهير (غذاء - سكن - علاج - توظيف ..) فهو لايتورع عن تقديم تنازلات أخلاقية منعاً لاحتباس الأزمة فى نفق مسدود يهدد بالانفجار .

قوام هذا التنازل هو إعادة توزيع الدخل (من وراء أسس علم الاقتصاد) بغض الحكمة

لبصرها عن شواهد الفساد بشكل يسمح بتقنيته (عرفياً) فهي تغض بصرها عن رشاوى الصغار من موظفى الحكومة حتى يسدوا الفجوة بين الدخل والنققات الضرورية لاستمرار حياتهم .

وهي أيضا تغض بصرها عن فساد الكبار (رجال أعمال - كبار المسؤولين - ساسة - نواب) وهي حينما تغض بصرها عن فساد هؤلاء الكبار فهي تحقق هدفين .. أولهما أنها تعجل بنمو طبقة رأسمالية تحقق تراكمها المادى ليس عن طريق العمل والإنتاج ولكن من خلال نهب المال العام وعمليات السمسرة والرشاوى الكبرى ، هذه الطبقة تشكل القاعدة الطبقيّة للنظام كما إن هذه القاعدة موكول إليها بناء الاقتصاد الرأسمالى عبر مشاريعها الاستثمارية وذلك على جثة اقتصاد رأسمالية الدولة حيث يتم تفكيك الوطن مادياً ببيع مشروعات ومصانع القطاع العام (الخصخصة)

الهدف الثانى يتجلى فى سهولة سيطرة النظام على هذه الطبقة بحيث يصبح ولاؤها الأخير له لأن النظام هو الذى سمح لها بكل هذا الفساد ، والنظام هنا يستطيع وفى أى لحظة فتح الملفات لأفراد هذه الطبقة أن هم جاوزوا الضوابط المرسومة لهم .

إن هذا التقنين للفساد (بالعرف) و(الطناش) يتم وفقاً لما يمكن تسميته بـ (دورة النشل والنشل المضاد) كثافة إعادة توزيع الدخل يتم فيه إرضاء الصغار بما يكفى لاستمرارهم أحياء بينما أربعة أخماس الكمكة تذهب إلى الكبار عملاً بالمأثور القائل أن الجماهير تزحف على بطونها أما النخبة فهي تزحف على ملذاتها (تملك السيارات - الليخوت - المسكن الفاخر - الغذاء - الجنس - الاصطياف فى مصايف أوروبا أو فى منتجات وطنية مسورة بعيداً عن " واغش الشعب ") .

إن دورة النشل والنشل المضاد تعنى ببساطة أنه إزاء انفلات الأسعار الدائم (التضخم) وانفلات معيار الحراك الاجتماعى من الحراك عبر العمل الجاد إلى الحراك عبر الكسب والتملك ، وأيضا إزاء تخلى الدولة عن العديد من مسئولياتها (التوظيف - التنمية - التخطيط الذى يستهدف إشباع رغبات الجماهير) فى إطار منظومة اقتصاد السوق وأيضا أنه إزاء التآكل التدريجى لقاعدة الطبقة الوسطى اجتماعياً واقتصادياً والسباق المجنون نحو تأمين عدم التآكل وعدم الهبوط إلى القاع .. إزاء هذا كله تبدو (دورة النشل والنشل المضاد) إحدى آليات النظام لمنع احتباس الأزمة فى نفق مسدود يهدد بالانفجار فى أى لحظة . إنها تعنى أن كل فصيل اجتماعى والذى يعمى جيداً تفاصيل الأزمة المنه عنها فى السطور القليلة السابقة ومن أجل تأمين فرصة الحياة - مجرد الحياة - أو لتحقيق تراكم مائى هائل فهو لايجد حرجاً فى النهب والسرقه والاحتياال على باقى الفصائل الاجتماعية .. ويتعير أكثر وضوحاً أن كل فصيل اجتماعى يضع يده فى جيب فصيل آخر .. وهذا الآخر يضع يده فى جيب فصيل ثالث والثالث فى جيب رابع ..

وهكذا دورة كاملة من نشل ونشل مضاد قوامها السرقة والنصب والاحتيال.

فالمدرسون مثلاً ينهبون جيوب أولياء الأمور ثمناً للدروس الخصوصية لتأمين فرصة الحياة وأيضاً لأنهم أبناء الطبقة الوسطى المهددة بالانقراض في ظل اقتصاد السوق فهم يتجاوزون فرصة الحياة إلى فرص أوسع لتحقيق أكبر تراكم مادي بالتوسع في قبول أعداد المجموعات بطبع المزيد من الللازم والمذكرات وبيعها للتلاميذ ، هذا التراكم المادي يحقق لهم الدخول في استثمارات غالباً ماتكون عقارية.

ثم تستكمل الدورة بأولياء الأمور فمنهم الطبيب أو الموظف والتاجر والسائق والسيار كل منهم سوف يضع يده في جيب الطرف الآخر الذي يطلب منهم خدماتهم أو خبراتهم فالطبيب سوف يضع يده في جيب مريضه الذي هو المدرس وهو الموظف الذي سوف يضع يده في جيب المواطن طالب الخدمة العامة الموكول له بأدائها للموظف (رشوة) وهي تبدأ من بضعة جنيهات حتى تصل إلى الملايين (يوسف عبد الرحمن - محمد الوكيل - الهباك) دورة كاملة من نشل ونشل مضاد تحت سمع وبصر الحكومة . أما الكبار فهم يضعون زيادتهم في جيوب البنوك (قروض) وجيوب الحكومة (تسهيلات - إعفاءات - صفقات مشبوهة) وأيضاً في جيوب المواطن (رفع أسعار السلع والخدمات التي يقومون بانتاجها) . ثم تقوم الحكومة وتضع يدها في جيب الشعب (ضرائب عامة - ضرائب المبيعات - ارتفاع رسوم التقاضي - ارتفاع رسوم أداء الخدمات العامة تعليم - صرف صحي - علاج - تخفيض سعر صرف الجنيه المصري مؤخراً) حيث ارتفعت أسعار السلع الضرورية والكمالية بمقدار ٢٠ - ٣٠٪ وهذه الزيادات في الأسعار التي أدت إلى انخفاض في قيمة الدخل الحقيقي للشعب (القوة الشرائية للجنيه) سوف يتم تعويضها من خلال دورة النشل والنشل المضاد حيث سيقوم كل فصيل اجتماعي برفع أسعار خدماته التي يقدمها لباقي الفصائل تحت شعار (كل حاجة غليت) .

هذه الدورة المسكوت عنها هي التنازل الأخلاقي الذي يقدمه النظام من أجل عدم احتباس الأزمة في نفق مسدود.

تجل ثامن : الجهر بالعنف .

البلطجة جهر بالعنف مائداً بالإيذاء البدني للغير ومعنوياً بالإيذاء النفسي للغير (أقلها الشتائم وأكثرها الترويع النفسي والتهديد) وهي تنتشر في المدينة عنها في الريف بحكم أن الأخير لم تزل تحكمه بعض الخصائص الثقافية مثل قوة العادات والتقاليد التي تمنع الريفي من أن يكون مصبراً لفضيحة عائلية بحكم الانتماء العائلي القوي كذلك (قضاء العرف) الذي يحل محل القانون في النزاعات الريفية ولم يزل القضاء العرفي مؤسسة قانونية قوية في الريف.

أما عن ظاهرة البلطجة في المدن فهي تتركز غالباً في نشأتها في حزام العشوائيات المحيطة

بالمدن (٩٠٧ مناطق عشوائية يقطنها ٧٢ مليون شخص) لكنها إلى جانب كونها تعبر عن نفسها في محيط نشأتها بالعديد من التجليات (فرض إتاوات - ترويع وتهديد وإيذاء بدني ونفسي) فهي أيضاً تخترق فضاء المدينة الحداثي المؤسس على احترام القانون من أول قوانين المرور حتى قوانين البناء مروراً بفرض المنازعات عبر وسائل التقاضي.

وتصل الأمور ذروتها بالتفعيل السياسي لظاهرة البلطجة داخل المدن كما يحدث في الانتخابات إذ يتم استخدام قوى البلطجة من قبل النظام والأفراد لتمير نجاح مرشح معين أو إسقاط مرشح معين .. كما يتم استخدام البلطجة من قبل بعض الأفراد أيضاً داخل المدن لتصفية الخلافات والمنازعات مع منافسين لهم خاصة في دنيا الأعمال.

أن الانتشار الواسع لظاهرة البلطجة خاصة في قلب المدن هو بمثابة التنازل الأخلاقي الذي يقدم مجتمعاً يعيش حالة من الفضاء القانوني بشكل يهدد الركن الركين لمجتمع الحداثة وهو احترام القانون.

تجل تاسع : لافائدة من القانون

يقول نبيل عبد الفتاح في كتابه (اليوتوبيا والجحيم) يمثل نظام القانون الحديث إبراز ملامح مشروع الحداثة السياسية الاجتماعية من خلال تأسيس هندسة قانونية اجتماعية حديثة على غرار المثال الأوروبي عبر إسماعيل باشا حتى اللحظة الحاضرة ، وكان ذلك على أنقاض المشروع العرفي والقواعد التقليدية .
ثم يقول :

• أن تقول سلطة التنفيذ على المساحة المخصصة للتشريع أدى إلى إضعاف المبادئ القانونية . يتجلى الجهر بأنه لافائدة من القانون في عشرات الأحكام التي تصدرها محكمة النقض بشأن بطلان العديد من انتخابات دوائر مجلس الشعب ثم يتم وأد هذه الأحكام تفعيلاً لما يسمى (ب) سيد قراره) . إن شعار سيد قراره هو بالفعل أحد أشكال تفوق سلطة التنفيذ ترسيخاً لفكرة توثين النظام ، إن شعار سيد قراره هو أيضاً أحد أشكال القضاء العرفي الذي يمثل أبرز ملامح الردة على سيادة القانون .. فما معنى أن يجتمع أعضاء اللجنة التشريعية بمجلس الشعب ثم يقومون بدراسة أحكام محكمة (النقض وتفضيل هذا الحكم لهذا المرشح وإقصاء هذا الحكم لهذا المرشح لاعتبارات سياسية بحيث تخدم توجهات السلطة التنفيذية بعيداً وتاماً عن جوهر مبادئ القانون وهي العدالة والمساواة ، إن الخطورة هنا تتمثل في تفعيل السياسي لمبادئ القانون لحساب السياسة على حساب تفعيل الأخلاقى للقانون وإرساء مبادئ العدالة والمساواة.

تجل عاشر : إشاعة سيكولوجية الفضيحة والتجريس.

فضيحة حسام/ بينا أن المسلك الذي تم به معالجة هذه الفضيحة يعتمد على صناعة وعي

مجتمعى قائم على إشاعة سيكولوجية الفضيحة والتجريس وثقافة الغرائز بحيث تصبح هذه السيكلولوجية هى نوع من التشفى الجماعى المرضى فى رؤوس الفساد . تصبح هنا إشاعة الفضيحة بديلا عن إعمال القانون فى واقعة الفساد المالى ويصبح الأمر كله مجرد فضيحة جنسية تم تصديرها بذكاء مؤسسى على حساب فضيحة نظام سمع بنهب كل هذه الأموال من البنوك. هنا يتجلى أيضا نفس الجهر السابق (لا فائدة من القانون) حيث يتم إضعاف مبدأ الحساب القانونى ، هنا أيضا تتجلى قدرة النظام على فتح الملفات.

تجل حادى عشر : مشروعية الخيانة.

ذلك التعاطف الحار الذى شيع به بعض مثقفينا الأميرة الراحلة ديانا إلى مثاها الأخير . وديانا مجرد امرأة أقسمت أن تمرغ شرف التاج البريطانى فى الوحل انتقاما (لأنوثتها المنكسرة) على حد تعبير أحد الكتاب بفعل خيانات زوجها الأمير تشارلز فعاثت لغرائزها ومارست الخيانة وجاهرت بفتوحاتها الجنسية للصحف.

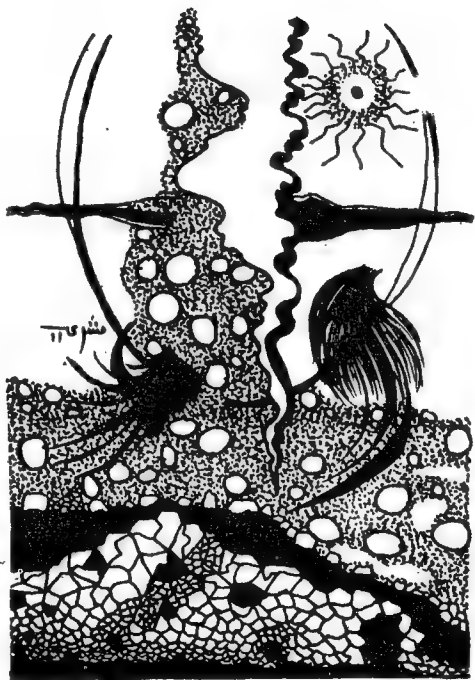
نحن لا دخل لنا إطلاقا بهذه المجاهرة من جانب ديانا فهى متسقة مع سياق حضارة حررت نفسها من عقد الجنس على خلفية (الحرية الفردية) وحررت الجنس من إطاره الاجتماعى والأخلاقي وتتعامل معه بشكل مكشوف ومباشر وكثته مجرد نشاط بيولوجى منفصل تماما عن القيمة وأصبح على حد تعبير د. عبد الوهاب المسيرى مجرد قضية إجرائية .. أين .. ومتى.

إن الجهر بالسوء هنا يأتى من بعض هؤلاء المثقفين الذين تعاطفوا مع أنوثتها المنكسرة بكلام ظاهره وباطنه باطل وفاسد ويتجلى هذا الباطل وهذا الفساد فى تبرير شرعية الخيانة الزوجية إذا ما خان أحد طرفي العلاقة الآخر . ويأتى هذا على خلفية ثقافية قوامها تعظيم اللذة.. وأن الأمور كلها نسبية بما فيها المعايير وبالتالي فلا مرجعيات ولا مطلقات معرفية وأخلاقية مع التأكيد أن هؤلاء المثقفين لابسى قبعات الصدائى يخفون فى داخلهم عمامات التراث والنص المقدس وكل أعراف الرجل الشرقى حول قداسة وحرمة جسد المرأة فما بالك (بالمحصنة).

تجل ثانى عشر: الاشتهااء المنحرف

قصة الولد(س) طالب طب الأزهر الذى تحول إلى الفتاة (س) بعد إجراء عملية جراحية ثم احترفت الرقص الشرقى فى أحد ملاهى الهرم يقدم للمنحرفين جنسياً وصلة من (الاشتهااء المنحرف).

الجهر بالسوء هنا يأتى من كونه لم يكتف بإجراء العملية الجراحية فى صمت بل أصدر كتابا يحتوى على اعترافات خادشة لحياء الحجر- إن كان للحجر حياة- فهو يباهى بتفاصيل جسده الذكبرى واستداراته الأنثوية قبل إجراء العملية ولا يجد حرجاً فى التعبير عن حرقته فى رغبة الاتصال الجنسى مع أحد رفاق (الثلة) قبل إجراء العملية.



تجل ثالث عشر : أدب المراحيض ونكاح المحارم والجهر بموت المثقف

ما أسماه بعض نقابنا الشرفاء بـ(أدب المراحيض) ونكاح المحارم والاجترار على المحرمات . وهو لون من الكتابة تعتمد على مكاشفات جنسية تعكس وعياً غارقاً في نصفه الأسفل فقط رافضاً التعامل مع راحة وتركيبة الظاهرة الإنسانية وحصرها فقط في الجسد حيث تحول الجسد إلى ملاذ أخير في مواجهة الواقع عوضاً عن ملاذات أخرى تراهن على الأمل الإنساني في عالم أكثر عدلاً وأقل ظلاماً . إن الانشغال بالجسد يأتى على حساب التجاهل العمدي لأسئلة التخلف والاستبداد السياسى والتحدى الإسرائيلى وأمبريالية العولة.. كما يأتى الجهر بموت المثقف متسقاً تماماً مع ما يروج له في الغرب عن سقوط عصر الايديولوجيات والمراجعيات.

تجل رابع عشر : فتنة المنتصر وتلك الحكمة البليدة.

يمثل المنتصر دائماً فتنة للمهزوم . يتماهى المهزوم مع أفكار المنتصر بدلا من مقاومته . ويسعى إلى محاكاته محاكاة القردة لبنى الإنسان . تاتى الفتنة بالمنتصر هنا فى تسابق وكان النظام مع جوقه بعض المثقفين من نخب التكيف فى الجهر بأنه الوقوف فى وجه أمريكا هو(انتماء وطنى) بشأن العدوان الأمريكى على العراق بحجة الواقعية السياسية عن تمييزات مستمدة من فقه التبعية من قبيل(الأمن القومى لمصر - مصر فوق الجميع - هذه ليست حربنا -المسئولية التاريخية لنظام صدام حسين كسبب مباشر للحرب -عدم تفعيل اتفاقية الدفاع العربى المشترك بحجة احترام شرعية المعاهدات الدولية أى معاهدة القسطنطينية بشأن قواعد المرور فى قناة السويس» . إنهم حتى لا يقولون (العدوان الأمريكى) .. بل يقولون الحزب العراقية -الأمريكية.. وكلمة حرب لا تعنى أبداً تلك الحمولة الدلالية لكلمة عدوان التى تعنى حكم قيمه وتوصيف فى القلب منه انحياز للمعتدى عليه الذى هو العراق.

ولأن فتنة المنتصر تخلق وتعزز وجدان التبعية . فلكل هذه التبريرات هى جهر بالسوء ، فى كونها أولا تمثل اجهاضاً من النضال وخطاب الارادة.. ولأنها ثانيا تاتى تعبيراً عن حكمة بليدة تخفى عجزاً مهيناً . وتخفى عجزاً يتمسح بحكمه لم تستطع أن ترى أن أمن مصر القومى قرأه الفراعنة جيداً مروراً بالممالك (عين جالوت) وصولاً إلى محمد على وعبد الناصر . ولم تخرج هذه القراءات عن الايمان بأن أمن مصر القومى هو فى سلامة أمن النظام العربى القومى.

إن الفتنة بالمنتصر فى حالة من توحد المهزوم مع المنتصر على أراضيه من هزيمة نفسية كاملة تبرر للمنتصر كل جرائمه «هوس الاحتفال من جانب النظام وبعض المثقفين الذين هم فى الواقع عملاء حضاريون للغرب يمرور ٢٠٠ عام على حملة نابليون الاستعمارية على مصر بنفس حجة الاستشراق الاستعمارى فى كونها جاءت بالمطبعة لكنهم ينسون أن المدفع هو الذى سبق المطبعة -تحصيل صدام مسئولية كل هذا الدمار» وهكذا يتم تبرير جرائم المنتصر على خلفيه من فقه التبعية

فغتلما جاء نابليون الغازى بالمطبعة.. فسوف يجئ بوش بالديمقراطية -رمش مهم- كونه سوف تاتى على أجنحة صواريخ كروز وتوماهوك مع التحفظ الشديد على هذه الديمقراطية.

أيضا أن الفتنة بالمتنصر على خلفية فقه التبعية تجعل المهزوم فى سبيل حسابات الكرسي والمصالح لا يقبل فكرة(التنوع والاختلاف معه) لذلك فهو لا يتورع عن قمع المعارضة ويأتى شك «واقعة مسجد السيدة عائشة حيث نزلت قوات الأمن صحن المسجد واعتقلت بعض الرموز وإنهالت بالضرب عليهم فى سابقة لم تعرفها مساجد مصر منذ نابليون يوم أن دس بخيوله وجنوده صحن الجامع الأزهر».

تجل خامس عشر-نفقات الهيبة

يقول فرانز فانون فى كتابه المهم (معذبو الأرض) .. إن حكومات العالم الثالث تخفى فشلها فى إنجاز مشروع التحديث فيما اسماء (نفقات الهيبة) أى ذلك الاتفاق السفى على مظاهر الحكم «أمن -حراسات- أرتال السيارات الفخمة فى مواكب المسؤولين- الأبنية الفخمة».

إن نفقات الهيبة تغذى الشعور الفردى والمجتمعى بالضالة أمام قوة الدولة كما إنها تعزز فكرة(توثين النظام) بشكل سيتم تفصيله فيما بعد.

تجل سادس عشر : الشرع حينما يتحول إلى غطاء للدعارة

فى السنوات الأخيرة انتشرت وعلى نطاق واسع ظاهرة الزواج العرفى خاصة فى أوساط الجامعات وينسبة أقل فى الأوساط الوظيفية(الموظفين اللاتى فاتهن سن الزواج) والأخطر من ذلك أن أصبحت ورقة الزواج العرفى إحدى آليات الدفاع القانونى فى قضايا الدعارة أمام جهات التحقيق ووصل الأمر إلى احتفاظ الساقطات والمسجلات أدا ب هذه الورقة فى حقيبة اليد ويتم تجديدها كل مرة لإبرازها وقت مداومة حملات شرطة الآداب على أوكار تعاطى الدعارة.

إن شرعية الزواج العرفى محل جدل بين الفقهاء ، ويدفع الجانب المعارض بعدم شرعيته لكونه يفقر إلى التوثيق القانونى لعدم اختلاط الأنساب وحفظ الحقوق وإنقاء مواطن الشبهات.

ونحن مع الرأى الأخير بحكم أهمية وجود مرجعيات ضابطة لحركة المجتمع.

إن الزواج العرفى هو المقابل الشرقى لظاهرة (البوى فريدن والتيرل فريدن) فى الحضارة الغربية حيث يمارس طرفا العلاقة هناك الجنس كاملاً بحكم وتبرير كونها حضارة تحررت من الكبت الجنسى، وفى حالتنا هنا يتم تبرير هذه العلاقة الجنسية(الزواج العرفى) عبر بعض الاستشهادات الفقهية والتى لم تزل محل جدل كما أن النفع القانونى أمام جهات التحقيق بورقة الزواج العرفى فى قضايا الآداب فهى قمة الجهر بالسوء حيث يتحول الشرع عبر بعض الاستشهادات الفقهية إلى غطاء للدعارة.

إن الزواج العرفى هو أحد تجليات الأزمة الاقتصادية التى نعيشها حيث مجز النظام عن

إشباع حاجات المجتمع الجنسية من خلال مؤسسة الزواج والأسرة. كما أنه يعد تعبيراً عن عصر (عنوسة الرجل) الذي تجاوز سن الزواج دون الدخول في علاقة زوجية رسمية لضيق ذات اليد.

التجليات عديدة ويمكن لأي أحد إن يرصد المزيد وهي في تقديري تصب في مجرى الانهيار المجتمعي.

ويقول المؤرخ الأمريكي ديل ديورانت أن أخطر ما يهدد المجتمعات هو انهيار قوة الأصالة). والرجل يقصد بذلك انهيار القوة المعنوية المتمثلة في منظومة الأخلاق والمعايير والضوابط والقيم في نفوس الأجيال جيلاً بعد جيل بفعل أشياء كثيرة من أهمها الفساد حيث تتراجى الهمم ويضعف الإحساس وتموت الطهارة وتصبح ربود الأفعال أقل حيوية ويرى الناس البشاعة المحيطة بهم ثم يحولون أنصارهم عنها ويدخل الجميع في عصر اللا قيمة وتكون النهاية.

اجتهاد في التحليل

علّمنا التاريخ أن الانتقال من منظومة قيم (موجبة) إلى أخرى سلبية كثيراً ما يقتزن هذا الانتقال بدرجة عالية من الفوضى والفساد.

بتعبير آخر إن الخروج من حالة مجتمع (معياري) إلى حالة مجتمع (لامعياري) غالباً ما يؤدي ذلك إلى تلك الفوضى وهذا الفساد.

والمعيارية هنا تعني ذلك الإطارين الثقافي والاجتماعي الذي بموجبهما يتحدد سلوك المجتمع. هذان الإطاران يتجسدان في مجموعة من القيم الموجبة والتي على أساسها تتحدد مكانة الفرد في الهيئة الاجتماعية. أما اللامعيارية فهي عكس ذلك كله. فهي ضد النظام وهي هدم للبناء التكاملية الذي يشد الناس بعضهم إلى بعض وهي تعني أيضاً اللاقانونية. هي في النهاية هدم للنظام والقانون وفي اللامعيارية تصل الحرية الفردية عادة إلى حدها الأقصى الشاذ حيث لا تحفل إطلاقاً بنظرة الآخرين إليها (الولد-أ.خ-المملة الشهيرة).

تعتبر هذه اللامعيارية من حالة عقلية يتمركز فيها الفرد/النظام/ المجتمع حول ذاته وتصل إلى درجة التوثين، توثين الذات (الولد س-المملة الشهيرة-الانشغال بالجسد في آداب المكاشفات الجنسية) كذلك توثين النظام- تزوير الانتخابات- نفقات الهيبة- عدم جدوى القانون) وتصل درجة التوثين إلى قمع أي معارضة واتهامها بالتخلف كأن يسخر أبناء المكاشفات الجنسية من فكرة الالتزام وتوظيف الإبداع لقضايا المجتمع الكبرى (توثين الذات) وفي توثين النظام يتم قمع أي معارضة تطالب مثلاً بإلغاء قانون الطوارئ، ونزاهة الانتخابات حيث يصب ذلك القمع في مجرى (توثين النظام).

والنظام هو صانع اللامعيارية الأول. وإذا استخدمنا الأساليب الكمية لقلنا أن المعيار أو

الإيميار هو (المخلات) التي تدخل وتستغرق في الوعي العام ثم يأتى السلوك الذى هو المخرجات وهذه المخرجات تتشكل وتأتى دائماً على مقياس ما تم إدخاله من المخلات.

وحين نقول إن النظام هو صانع اللامعيارية الأول فهذا يعنى أن توجهات النظام الأيديولوجية فى السبعينيات فى إحلال اقتصاد السوق وما صاحب ذلك من سياسات الانفتاح الاقتصادى والذى وصفه أحمد بهاء الدين بـ (انفتاح السداح مداح) فهذه التوجهات هى التى أفرزت فى التطبيق ظاهرة الجهر بالسوء ، من هنا كانت أشكال هذا الجهر تمثل حالة مجتمع خرج (ويقل فاعل) من كونه مجتمعاً معيارياً إلى كونه مجتمعاً لا معيارياً . فما الذى حدث؟.

لكن حكمتها لم تعنها .

على رد بطش الذئاب الخبيثة

فأوقعها رجل فى الظلام على ظهرها

ثم غادرها

الذى حدث هو أن مصر عرفت فى عهدى الثورى الخمسينيات والستينيات مجموعة من المعايير الحاكمة التى كانت تمتد توجهات النظام والمجتمع والفرد من قبيل (الاتحاد -النظام-العمل -المسئولية- الالتزام- الطهارة- الإنتاج- الحراك الاجتماعى القائم على التحصيل العلمى والعمل الجاد- التراحم -التكافل-البعد الاجتماعى فى عملية التنمية-العمل حق وواجب وحياة وشرف- إدانة رأس المال الخاص المستغل -تكافؤ الفرص- العدل الاجتماعى).

وكلها معايير إيجابية كانت تصب فى مجرى نهضة مصرية شاملة تم تطويقها بحرب ٦٧ ثم الغياب المفاجئ لعبد الناصر.

ومن داخل أحشاء النظام الناصرى خرج تحالف اليمين (أغنياء الريف- المقاولون أصحاب الملكيات العقارية- كبار التكنوقراط- أعمدة البيروقراطية- جنرالات الجيش والأمن الداخلى) ويقود كل هذا الممثل التاريخى لقوى اليمين فى صفوف الثورة (أنور السادات) ، كان السادات وقوى التحالف اليميني هم (الخارج الجدد) الموكول إليهم هدم هياكل التجربة الناصرية.

كان الاحتواء السياسى لأجهزة الحكم هو المشهد الافتتاحى لعملية الهدم فيما عرف بقضية مراكز القوى، حيث تخلص السادات من الجناح البيروقراطى المعوق لتمرير توجهاته ، وكان ثانى علامات المشهد على خلفية الانتصار السياسى هو الخروج على أقدم مقدسات الميثاق الوطنى (١٩٦٢) وذلك بصور قانون الاستثمار الأجنبى (١٩٧١) «لاحظ عزيزى القارئ أن القانون صدر بعد أقل من عام من وفاة عبد الناصر والذى أصدره هو نفس الرجل الذى لثم يد عبد الناصر وهو جثمان ميت وهو نفسه الذى انحنى أمام تمثال عبد الناصر فى مجلس الشعب وقال إن طريقه هو طريقى» وتم تعديل قانون ٧١ بقانون ٧٤ الذى كان تنويجاً للتهام المصرى

الأمريكي عقب زيارة نيكسون لمصر.

فى الميثاق تم الترحيب بالاستثمار الأجنبى المشروط بإرادة النولة وفى بعض القطاعات التى تفتقر إلى الكوادر الوطنية.. فى قانون ٧٤ تم فتح أبواب الوطن لرأس المال الأجنبى وفى جميع القطاعات وقدم القانون ضمانات تحية تليق بالكرم العربى المشهور مثل عدم التأميم والمصادرة مع حرية تحويل الأرباح.. وكانت هذه القوانين بداية ولادة لفئات جديدة هى فى جملتها ذات ارتباطات عضوية برأس المال الأجنبى وكانت هذه الفئات الجديدة تشكل مع التحالف اليميني الذى قاده السادات عام (١٩٧١) هى الغطاء الطبقي الجديد للنظام الحاكم الذى بدأ عملية النهب مكررا (القطط السمان التى تحولت بعد ذلك إلى ضواري وكواسر).

تحت ضغط الحركة الطلابية (١٩٧٨) والتي طالبت بإنتهاج سياسات محددة بشأن القضية الوطنية (احتلال سيناء) وتحت ضغط مطالب قوى التحالف الطبقي الجديد فى التعجيل بسياسات التحرير الاقتصادى وجد النظام نفسه فى مأزق.

كان عليه البحث عن شرعية جديدة تعطيه تلك الجرأة على اتمام الانقلاب الايديولوجي على تراث الحقبة الناصرية .. شرعية تتجاوز كونه أحد صناع ثورة يوليو كانت حرب ٧٣ هى شرعيته الجديدة والتي كانت رغما عن مجدها العسكري انتصارا مشروطا بعدم التقدم بعد المرات (اعترف السادات بذلك فى خطاب له لنيكسون بعد أقل من أسبوع من الحرب) وعلى حد قول (اروى صالح) (تم شطب القضية الوطنية) لم يتم تحرير الأرض .بقى فقط أن تتحرر العقول من كل أوهام الاشتراكية وحكايات العدل الاجتماعى.

كانت حرب ٧٣ هى شرعية النظام الجديد لتمير الصفقة مع الغرب (انسحاب من سيناء- صلح مع اسرائيل- علاقة خاصة مع أمريكا- فتح أبواب الوطن للاستثمارات والسلع الأجنبية) ..كان زهو الانتصار العسكري المعجون بدم الشهداء الذين ماتوا هناك على رصيف الوطن فى سيناء هو ثمن (اللامعيار) . حيث كانت سياسات الانفتاح الاقتصادى على البوابة التى دخلت بها مصر زمن اللامعيار واللائظام (إلا نظام اقتصاد السوق) حيث حمى الكسب السريع وقيم الخطف والنهب (خد ألفلوس واجرى) تدهس فى طريقها كل معايير الماضى القريب ..كانت هذه السياسات هى الصانع الأول لدراما الانهيار المجتمعي المستمر حتى الآن (ألا يعترف أركان النظام الآن وفى عز الازمة العراقية قبل العنوان الأخير باسم الواقعية ان مصر فقدت الكثير من معطيات دورها التاريخي وأصبحت عاجزة عن أن تلعب دورها المعتاد فى نظامها الاقليمي العربى) ليس هذا اعترافا بانهيائها الداخلى والناتج فى التحليل الأخير عن صفقة الشؤم فى ٧٣ ورهن وتسليم ارادة الوطن مقابل ٢ مليار دولار (حجم المعونات الأمريكية) مقابل سلام باش مع إسرائيل وعلاقة خاصة مع أمريكا وسياسات اقتصادية واجتماعية أكثر بؤساً أورثت الجماهير المزيد من الإفقار.

«أتى زمن البيع

والمشرون أنتهوا من حساباتهم».

بالاحتواء السياسى (١٥ مايو) والاحتواء الاقتصادى (سياسات الانفتاح) على خلفية من زهو العسكرية الظاهرة فى سيناء تم تدشين زمن (اللامعيار) حيث رأسمالية النهب السريع وحيث ديانة السوق التوحيدية هى البديل لمعايير العمل والانتاج والتكافل والطهارة والعدالة وتكافؤ الفرص:

فى هذا الزمن تم تفكيك الوطن ماديا (الخصخصة) بالتخفيض التدريجى والمنظم لوزن الدولة فى هيكل ملكية وسائل الإنتاج لحساب الملكية الخاصة وهان عصر الانفتاح واقتصاد السوق.. وتحول الوطن كله إلى هيكل ملكية وسائل الإنتاج لحساب الملكية الخاصة وهان عصر الانفتاح واقتصاد السوق .. وتحول الوطن كله إلى سلعة تطبيقا لمبدأ التسليع الرأسمالى «ألم يتفاخر السادات بأنه فى عهده أصبح سعر متر الأرض فى مصر يساوى الآلاف من الجنيهات» ألم يتفاخر «بأنه فى عهده تم زرع كورنيش النيل بناطحات السحاب» فى إشارة منه إلى قوى أصحاب الملكيات العقارية (أحد عناصر تحالفه الطبقي) التى ضخت أموالاً طائلة فى نشاط عقارى لاصلة له بعملية الإنتاج .. ألم يفكر السادات يوماً فى بيع التاريخ كله ومرة واحدة (مشروع هضبة الأهرام) لأحد الأفاقين الأجانب .

وفى هذا الزمن تم تسليع ارادة الوطن نفسه (٢ مليار دولار) مقابل التخلي عن حكايات العدل الاجتماعى والاقتصاد المخطط وستان الاشتراكية لعبد الناصر وحليم وجاهين .. ومثلما تم تفكيك الوطن مادياً ثم تفكيكه معنوياً بغرس قيم البيع والشراء والخطف والنهب (٥٠٠ مليونير فى عصر السادات) حققوا تراكمهم المادى عبر تسويد النمط الطفيلى فى التجارة والنمط الاستهلاكى فى الصناعة ناهيك عن أعمال المضاربة والسمسرة وعوائد غلب الليل والشقق المفروشة والمخدرات وتجارة الرقيق الأبيض « ألم يتفاخر السادات بأن الذى لم يفتنى فى عصره لن يفتنى أبداً ».

هنا تنهار أى ضوابط أخلاقية ويتنقل المجتمع من حال كونه مجتمعاً تراحمياً إلى مجتمع تنافسى داروينى .. البقاء فيه ليس للأصلح بل للأقوى والأفسد والقادر على النهب (من أول الأغذية الفاسدة لتوفيق عبد الحى حتى المبيدات المسرطنة ليوسف عبد الرحمن) .. ومثلما اشتعلت الجبهة ٧٣ بنيران المدافع اشتعل الداخل أيضاً بحمى السوق ومصائر الكسب وانسلف حمامك القديم.

وفى هذا الزمن اللامعيارى أصبح الجميع ضد الجميع واتسمت العلاقات الاجتماعية بدرجة عالية من التوتر والعنصرية والعنف المادى والمعنوى بدءاً من الشارع حيث أخلاقيات الزحام مروراً

بمكان العمل وانتهاءً بالمنزل .. فى هذا الزمن والمستمر حتى الآن أصبح الحديث عن قيم من قبيل الطهارة النمة العمل المنتج ، الالتزام من باب غرائب الأشياء.

وهكذا اقترن الانتقال من منظومة معايير الخمسينيات والستينيات إلى منظومة اللامعيار - بالمعنى السابق شرجه - بهذه الدرجة العالية من ظواهر سلبية كانت كفيلة بهدم قوة الأصلا ب على المستوى القيمى والمعنوى (هناك دراسات عديدة تناقش الانقلاب القيمى الحادث فى المجتمع المصرى خلال الربع قرن الأخير)

الطبقة الوسطى هى حافظة القيم .. وهى التى تفرز معطيات التماسك الاجتماعى .. وتاريخياً تعرضت تلك الطبقة لكبر عمليتى حراك اجتماعى فى الخمسين سنة الأخيرة.

كانت الأولى فى اتجاه التصعيد إلى أعلى زمن الحقبة الناصرية .. حيث كانت خطة التنمية الاقتصادية التى أفرزت حاجة النولة إلى أجيال من البيروقراط والتكنوقراط لإدارة عملية التنمية ، فكان لابد من التوسع فى التعليم والأخذ بالمجانبة .. كما كانت قوانين التأميم والتعصير والإصلاح الزراعى والتى أدت بدورها إلى تخفيض المراكز الاقتصادية والاجتماعية للأرستقراطيين الزراعيين (الإصلاح الزراعى) والرأسمالية التجارية والصناعية (التعصير والتأميم) لصالح تحسين نفس المراكز لأبناء الشعب .. كان هذا الحراك الاجتماعى الواسع يتم على خلفية من مشهد اجتماعى تقوده ثورة ظافرة ترفع شعارات تكافؤ الفرص ، والعمل حق والعمل واجب والعمل شرف والعمل حياة (وكلنا كده عايزين صورة) .

ثم كان الحراك الثانى فى السبعينيات وكان إلى أسفل .

لأنه مع تخطى الدولة فى ظل سياسات اقتصاد السوق عن مسئوليتها فى قيادة عملية التنمية وتقاعسها عن إنجاز أى مشروعات تنموية وتوقفها عن تشغيل الفريجين والإقلاق عن سياسات الدعم الاقتصادى (وكلها آليات خالقة للطبقة الوسطى) .. كل هذا أدى إلى تآكل الوضع الاقتصادى والاجتماعى لقاعدة الطبقة الوسطى التى كان عليها أن تبحث عن أب اجتماعى جديد يحميها من غوائل مجتمع يتفكك.

تجلى هذا الأب الجديد عبر وسائط عديدة منها الهجرة إلى منابع الجاز .. ومنها أنه مع تنامى الإحساس (بالخوف من بكرة) والخوف من شبح الهبوط أن تمكنت بعض فئات الطبقة الوسطى (القيادات الوسيطة والعليا فى القطاع العام والحكومة) من استغلال مواقعها الوظيفية فى تحقيق تراكم مادى قائم على الرشوة واستغلال النفوذ . كذلك مع تنامى قيم الكسب السريع والسهل ظهرت فئة من السماسرة ورجال الأعمال الذين استحلوا لأنفسهم كل شئ ويعيداً عن أى ضوابط أخلاقية (الفردية للأخلاقية) من تجارة المخدرات والعملة والأغذية الفاسدة والمضاربات وتنامى

قطاع الخدمات (مطاعم -إسكان-سياحة-صرافة) ..وأصبح المشروع القومى على حد تعبير د. جلال أمين هو مشروع الترقى المادى الفردى ..لأن الخوف من الهبوط ومن بكرة أشعل روح المنافسة بين الجميع ..هنا فى هذا الجو الداروينى تسقط أشياء كثيرة.. لأن هذا الحراك السريع والعشوائى تقوى القيم المادية وينخفض تقييم المجتمع لفضائل الاخلاق.

كان (الخوف من بكرة) هو القنازل الاخلاقى الذى قدمته الطبقة الوسطى فى رحلة الخوف من الهبوط ..لأن الارتفاع السريع يفتح الشهية، والهبوط السريع يجعل الطبقات المهددة أقل تمسكاً بالقيم .. إن الخوف من الهبوط يجعل الناس أقل تساهلاً مع السوء ومع الرذائل ..ومع الصعود السريع تتدهور قيمة العمل المنتج ..لأن الانتقال هنا يتم عبر الكسب المادى وليس عبر العمل الاجتماعى ..هنا تسود كل صور الفساد على حساب أى قيمة وأى معيار.

أما الذين فشلوا فى عملية التصعيد الاجتماعى ..هؤلاء تجلى لهم الآب الاجتماعى الجديد عبر (الهروب إلى الوراء) حيث التاريخ والمقدس وحيث اللجوء إلى قوى علوية لا تستطيع قيم السوق مناهضتها وحيث المعرفة نهائية ومستقرة وتقدم حلولاً سحرية لكل ألوان التوترات.

فحينما يفشل الواقع فى تقديم غواياته التى كان يقدمها فى الماضى القريب وأهمها تلك البهجة بالعدل ..هنا يظهر الدين ويقدم هو الآخر غواياته والتى لا تخرج عن كونها مبدأً نفسياً عبر قيم الصبر والوعد بالفرج والاصطفاء الدينى..هنا يقدم الدين غواياته تلك لكل المتبوعين من فريوس التحالف اليميني حيث تقاحة الانفتاح المشتهاة ..كان الهروب إلى الدين هو النداء العاطفى الهائل لطبقة مهزومة عاشت مجدداً فقيراً فى الستينيات وما هى ترى بامر عينها كيف يتم التكتيل بها باسم اقتصاد السوق..وكانت المفارقة المرة ان ابناء الطبقة الوسطى الذى هتفوا (الله أكبر) فى حرب ٧٣ هم أنفسهم الذين يهتفون اليوم بنفس الشعار فى حريهم ضد النظام عبر العديد من الاستشهادات القرآنية والتى يرون أنها تعطيه الحق فى الجهاد ضده..

ويانهيار الآب الاجتماعى القديم للطبقة الوسطى .. لم يكن غريباً أن يلوح لها د. رمزى زكى بثلوحة الوداع الأخير قائداً لها (وداعاً للطبقة الوسطى).

استنتاج -الاستلاب العام وتوثيق الحكم

تبدو المجاهرة بالسوء فى بعض تجلياته كأحد أشكال الرد على مجتمع(فصامى) يجاهر بالفضيلة بينما الواقع عكس ذلك على طريقة (يا عزيزى كلنا فاسدون) وهذا الرد يأخذ شكل الحرية الفردية فى حدها الأقصى الشاذ.. كأحد تجليات حرية السوق مثل حالة الولاد(س) وأكاد أجزم أن اعترافاته العلنية مثل إشارة داعية منه إلى انتشار ظاهرة الجنسية المثلية خاصة بعد اكتشاف العديد من شبكات هذه الدعارة. والتى تخطت حدود مدينة القاهرة (الحدادية) إلى مدينة دمنهور ذلك المجتمع التقليدى (تم اكتشاف تنظيم مؤخرًا يتعاطى أفراد هذه الظاهرة فى مدينة دمنهور) ..أيضاً هل نستطيع تجاهل انتشار ألوان من الإبداع الفنى يتعاطى مع هذه الظاهرة بشكل تطبيقي .

كما نتأت اعترافات الممثلة الشهيرة من باب (يا عزيزى كلنا داعمون) كما تتأتى حالة النشل

والنشل المضاد من باب (يا عزيزي كلنا لصوص) ..كماتأتى حالة الجهر بأدب المراحض كأحد أشكال الحرية الفردية في حدها الأقصى الشاذ بعيداً عن أى ضوابط.

لكن الأمر في تقديرى أكبر من مجرد كونه حرية فردية شاذة ..حيث تبدو ظاهرة الجهر بالسوء فى سياق أكبر من ذلك يتجلى فى كونه تعبيراً عن تخطيط مؤسسى مدروس، والفرض منه (إشاعة الاستلاب العام وتوثيق الحكم) من خلال إحداث انقلاب قيمي حيث يبدو الفردى فى التحليل الأخير معزولاً عن أى وشائج اجتماعية تربطه بالآخرين.. لأن الاستلاب العام يحقق هدف التوثيق..

يتحقق هذا الاستلاب وبالتالي التوثيق فى حده الأقصى من خلال تجليات (تزوير الانتخابات -لإفائدة من القانون- فترة المنتصر- تمويه الانهيار- التفعيل السياسى للبطجة)هنا يشعر الفرد بأنه كائن ضئيل أمام قوة الدولة المجهزة بمدرعات الأمن المركزى وقذائف الإعلام الموجه ..هنا يترسخ فى الوعى أنه لا فائدة ويستحضر الذهن مقولة (مفיש فايده) والنتيجة هى المزيد من الانكفاء الشعبى والإحباط الجماعى ومن ثم تتحقق فكرة توثيق النظام ..أى تقديسه.

إن توثيق النظام هو حالة يكون فيها النظام مكتفياً بذاته ويكل أنساقه الفكرية منفلقاً على دوائره الضيقة .توثيق النظام تعنى تأييد وجوده بقهر أى معارضة وبالمفغات السوداء وبتزوير الانتخابات وواد أحكام النقض وبالتفصيل السياسى للقانون لصالح أغراض سياسية على حساب التفعيل الأخلاقى لمبادئ القانون وجوهرها العدل والمساواة.

فى حالة (النشل والنشل المضاد) تبدو مفارقة أولى تدعو إلى الحرية ..المفارقة تأتى من كون الإيمان العميق من النظام باقتصاد السوق ولكن على خلفية (توثيقية) ..كيف؟

إن إيمان النظام باقتصاد السوق يأتى على خلفية عدم تفعيل أى سلوك ديمقراطى يتجرأ عليه بالنقد وهذا هو لب المفارقة ..فالقول باقتصاد السوق أى الليبرالية بجناحيها السياسى والاقتصادى يعنى إطلاق الحريات (عمل -اضراب- تظاهر.. إلخ) وكذلك تفعيل الديمقراطية وصولاً إلى تداول السلطة.. كل هذه الحريات المفترضة تأتى وبالتناقض مع آليات توثيق النظام (تزوير الانتخابات على سبيل المثال) من هنا تأتى فكرة توثيق النظام متسقة وتماهى مع هامش الحريات الممنوح منه للقوى السياسية.. أيضاً تعكس فكرة توثيق النظام مفهوماً أبشراً للسلطة (الوجود كتابات تشكك فى أهلية الشعب المصرى لتعطى الديمقراطية ..ألا توجد كتابات تمثل قمة البجاجة وهى تبرر العمل بقانون الطوارئ) ..

المفارقة الثانية.. فى دورة النشل والنشل المضاد ، نرى النظام يقض بصره عن فساد طبقة (الكبار) لكنه فى نفس الوقت قادر على فتح الملفات السوداء لهذه الطبقة أن هى جاوزت الحدود وبالتالي فهذه الطبقة- وهنا المفارقة-بحكم تبعيتها للنظام وبحكم نشأتها فى كتفه وتسهيلاته بالفساد لها لا يمكن لها أن تلعب نفس الدور التاريخى الذى لعبته رأسماليات الغرب والذى حققت تراكمها بروح المبادرة والعمل المنتج الجاد وكان أن فرخت هذه الطبقة مشروعاتها

السياسى (الديمقراطية) (بغض النظر عن الفحوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه الديمقراطية وبغض النظر عن ان هذه الطبقة حققت جزءاً من تراكبها عبر النهب الاستعماري لدول الأطراف) ..أما فى حالتنا هنا فسوف نجد أن هذه الطبقة الموكل إليها التعجيل بالنمو الرأسمالى فهى عاجزة عن فرض أى مشروع تنويرى يستهدف مثلاً الإصلاح السياسى الذى يضمن لها تداول السلطة بحكم ثرائها .لأنها ببساطة تابعة للنظام الذى يملك ضدها ملفات سوداء (حسام- دينا -طاهيل -لكح- يوسف عبد الرحمن باعتباره رأسمالية بيروقراطية) إن هاتين المفارقتين تصبان فى مجرى توثين النظام .. فمن يجرؤ على النقد؟.

كما تاتى حالة(نفقات الهيبة) لكى تصب فى نفس المجرى مترافقة مع تزوير الانتخابات وواد أحكام النقض .. لكى تشكل جميعها ملامح تلك الوثنية.

إن الجهر بقمع المظاهرات الشعبية التى اندلعت مؤخراً عقب العدوان الانجلو ساكسونى على بغداد يأتى هذا القمع تعبيراً عن حالة الاستقواء على المواطن التى تنتج فى النهاية ذلك الاستلاب العام.. وهى تتشابه وتمازج مع الجهر بالقوة والاستقواء الاسرائيلى على الفلسطينيين وأيضاً مع الجهر بالقوة والاستقواء الأمريكى على العالم والعرب فى غيبة كاملة لمبادئ القانون (هنا) فى مصر والقانون الدولى (هناك) القابع فى أنراج الأمم المتحدة والذى لا يطبق إلا على الضعفاء على حد تعبير (تشومسكى).

ومثلما يصب الاستقواء الأمريكى فى مجرى توثين أمريكا.. يصب استقواء النظام على الشعب فى مجرى توثينه .ومثلما يتحقق الاستلاب العالمى أمام قوة أمريكا .. يتحقق نفس الاستلاب الشعبى أمام قوة النظام .. إن الاستلاب الشعبى أمام النظام هو نفسه استلاب النظام أمام أمريكا بحيث لا يجرؤ على انتقادها.. ولا يجرؤ على إدانة عدوانها على بغداد ..ويجرؤ على منع سفن ويواخر قوات الغزو من المرور بقناة السويس بحجة احترام شريعة الاتفاقيات الدولية(اتفاقية القسطنطينية) ..أى شريعة لهذه الاتفاقيات فى حرب هى أساساً غير شرعية وهنا يصدق قول د. جلال أمين(ب)ضعف الإرادة السياسية فى ظل الانفتاح وسياسات السوق) لأنه ببساطة تم رهن إرادة المواطن فى سوق الرهن الأمريكى بـ ٢مليار دولار .

إن الاستلاب العام يقضى فى الفرد على أحاسيس المشاركة الجماعية.. ويقضى على ذلك البناء التكاملى الذى يشد الناس بعضهم إلى بعض ..ويتحول الجميع إلى مجموعة من الجزر المعزولة كل منها عن الأخرى وهنا يتحقق التوثين كاملاً.

ولأن الأمور لا تحدث أبداً مصادفة.

ففى الخمسينيات والستينيات قامت أجهزة الاستخبارات الغربية بإشاعة بعض فنون الغرب(سيربالية -تكتيية-دائيه-مسرح العبث- الوجوبية حيث الخلاص الفردى) عبر تسويقها إلى دول العالم الثالث لضرب تصاعد حركات التحرر الوطنى وما تعكسه هذه الحركات من انعاش وانتعاش قيم المقاومة والتنمية المستقلة والأخذ بالحل الاشتراكى ثم انعكاس هذه القيم وبالضرورة

فى منظومة الإبداع الثقافى .وكان المستهدف هو إحداث انقلاب قىمى فى رسالة الثقافة من المقاومة إلى العدمية .من قيمة الخلاص الجماعى إلى قيم الخلاص الفردى .من الكلمة المستولة إلى الكلمة السابحة فى تهويمات العبث وانتظار الذى جاء نقلا مرتديا بذله من إنتاج المحلة الكبرى (عبد الناصر) ولم يكن يوماً من أشيك عشرة رجال فى العالم.. وجاء فعلاً عبر العديد من التجليات الوطنية (جيفارا-كاسترو- تيتو- نكروما- نهرو-الخ).

ليست مصادفة أبداً تلك الحفاوة المتواطئة من بعض مثقفينا لأفكار من قبيل موت المثقف ونهاية التاريخ وأدب المكاشفات الجنسية المبثثة.. ليست مصادفة أبداً ما حدث فى ٦٧ (على المستوى الثقافى) حيث أصبحت الساحة خالية لنخب التكيف .والاستغراب التى أخذت تروج لأشكال من النقد تسجن النص فى شبه اللغة وتمحور فيها النقد حول أوضاع النص اللغوية دونما اعتبار لأى إطار مرجعى لعملية الإبداع ذاتها حيث إن العمل الحداثى ثم ازاحته من المجتمع إلى فضائه الخاص .وليست مصادفة أن يتحول نقادنا إلى سكرتارية لرولان بارت وديدا على حد تعبير الراحل غالى شكرى.

ليس صدفة أن يتم تهميش نور مصر عربياً (المبارزة) مع الغزو الرأسمالى لسوق الوطن (الانفتاح) مع بزوغ فرانكفونية عربية متخصصة فى ترجمة نتائج الحداثة وما بعد الحداثة وتقودها تحديداً (المغرب) المصنفة سياسياً بضعف استجاباتها العربية.. هل هى مصادفة أن يتم استلاب النخبة وجرها إلى المادى استهلاك كل حماقات المشهد الثقافى الغربى على حساب الوظيفة الرسولية والتبشيرية للمثقف فى وطن ٤٨% منه أمى.

ليست مصادفة أبداً ذلك الاتجاه المتزايد نحو الانشغال بالجنس ابداعيا وارتباطه بما يروج له فى الغرب عن سقوط عصر الايدولوجيات واختفاء المرجعيات بحيث لم يبق ما يسميه أنصار ما بعد الحداثة بـ(النقص والحكايات الصفرى) ومنها حكايات الجسد.. والآتى.. واليومي بالشكل الذى يسجن الإنسان فى واقعه المادى الضيق طارحاً عنه (بهجة اليوتوبيا) طارحاً عنه أسئلة والاستبداد السياسى والتخلف المجتمعى الشامل.

ليست مصادفة أبداً أن يتم تهميش وتحقير الدور الرسولى للمثقف فى زمن المحنة الكبرى لصالح تمرير كل مشاريع الهيمنة الأمريكية والاسرائيلية فى إطار منطق ثقافى يرفع لواء ما بعد الحداثة باعتبارها المنطق الثقافى للرأسمالية المتأخرة والظاهرة فى ميادين القتال والاقتصاد حيث نهاية التاريخ وعسكر العولمة.

فكان لابد من تفرغ ثقافتنا الوطنية من محتواها النضالى وقوتها الإلهامية عبر كل أشكال الجهر بالسوء.



ليس في نعي بغداد

غادة نبيل

أوجل الكتابة دائماً حين لا أستطيع (الشلل النفسي يسيطر على أغلبنا . الكلمات تتخاذل وتخجل منها).

إن أحاول الكلام أو الكتابة . كلنا تقريباً نعيش نفس الغمة ، العراق يتحول إلى فلسطين أخرى ومن يدري من سيتبع العراق قبل أن تشبع شهية القول الأمريكي وطيغه الأتلي-بريطانيا التي بدلاً من أن تكفر عن جريماتها القديمة ، وعد بلفور-تضيف إليها جريمة جديدة، هذه المرة في العراق فهل لعجزنا عن أشياء كثيرة من بينها عجزنا التام عن تنمية عقدة الذنب لدى من أجزموا بحقنا تاريخياً في مقابل المهارة الاستثنائية لأعدائنا في هذا الصدد من الذين مازالوا يحيون ذكرى الهولوكست وقيمون المتاحف لأسطورة الطفلة آن فرانك إلخ علاقة جوهرية بما نحن فيه؟ أعتقد ذلك.

والحزن يمتص قلوبنا التي ترتعب من لحظة رؤية جنرال أمريكي يهل علينا من تلفزيون العراق بدلاً من المذيعين والوزراء العراقيين، ننتظر ونتابع كأنما كل بلد عربي لا يملك حقاً غير ذلك، من دون أن نذكر الأنظمة التي صدعت رؤوسنا بمقولة أن النفط ليس منقلاً ولا بارج.

والله؟! فماذا يكن النفط سوى هذا كما وجدت أمي نفسها تصرخ في وجه الأمير العربي العظيم الذي أصابنا الضجر من رؤيته وهو يريد هذه المقولة وبلاده ترفع من حجم صابراتها النفطية للولايات المتحدة ، لكي تستطيع إكمال مهمتها في سحق العراق وتنصيب زعامة عربية عليه تحظى برضاء واشنطن من المعارضة العراقية التي شاهدنا تلفزيونياً تدريب بعض كوادرها في

معسكرات عليها علم أمريكا، وعبارة «معسكر الحرية» في المجر بهدف ضمان أن يقوم هؤلاء الذين سينظر إليهم شعبهم ذاته كخونة بحكم هذه العمالة والتوقيت ، بالاعتراف بإسرائيل وربما فتح الأسواق العراقية أمام المنتجات الإسرائيلية ومد خط أنابيب الموصل -حيفا النفطي، كما صرح مصدر إسرائيلي و .. وكل سائق سيارة أجرة ركبت سيارته بكل مطعم أو محل ملابس دخلته بل حتى من يقومون بأبسط المهن مثل تلميع الأحذية على قارعة الطريق ويقرأون أُمَامَك ويضعون الترانزستور على الرصيف بجانبهم والناس في كل مكان لا يتكلمون إلا عن كارثة سقوط بغداد وتقسيم العراق أو احتلاله إلى أجل غير مسمى بهذه الخسة التي تجيد بها الولايات المتحدة محور كل من لا تريده أو من لا يخمن مصالحتها من الوجود.

ناعوم تشومسكي كان يسمى النظام العراقي نظاماً عميلاً للولايات المتحدة ولا أحد يعلم حجم الخدمة (التي بدأت بتأشيرها تظهر) التي أسداها صدام حسين لأمريكا منذ قام بغزو جارته الكويت مثلاً كعرب يحاول كل نظام الاختباء بداخل حائط أو تحت الأرض لو استطاع ويدير وجهه فقط حتى ينصرف اليانكي الذي لم يشن حرباً في تاريخه إلا للعوان والذي -بإستثناء احتلال الانجليز في عصور تكافؤ الأسلحة -لم يجرب هو الاحتلال لأنه كان دائماً هو المحتل.

يتشابه الانجليز مع الشعب الأمريكي في هذا فقد نجت بريطانيا وحدها من انزال قوات النازي ولم تقم فيها حكومة عميلة على غرار الفيشي في فرنسا التي عرفت معنى الثورة في قرون قبل ذلك والمقاومة ضد الألمان بعد ذلك . أما الأمريكيون فهم أولئك البيض الذين لم تكن قارتان بأكملهما كافيتان لاستيعابهما هما وشعب الهنود الحمر لون إبادة الجنس الثاني.

مأساة العراق جعلتني أرى أنه ما من نظام عربي أو غير عربي لا يكتب على مواطنيه وما من نظام لا يستخدم العنف في مواجهة مظاهرات مواطنيه إلى درجة انحطاط أخلاقي فعلية. والصور والتقارير في الفضائيات تشبعنا حزناً على البشرية.

بكى أبى عندما سمع مذيع عربي في قناة عربية يشير إلى أصوات المؤننين ترفع الأذان لصلاة العشاء في بغداد أثناء قصفها.

لم يشاهد أبى صورة الجندي الأمريكي الذي اقتحم مع مجموعة من زملائه منزلاً عراقياً وربطوا أيدي كل من فيه بينما اختص أحد الجنود مواطناً عراقياً بعدما أوثق يديه ويطحه أرضاً على وجهه بأن وضع قدمه اليسرى فوقه وظل هكذا.

الذل من نصيب شباب العرب وأجيالهم طالما نحن كما نحن ، كلنا والفون في جريمة احتلال العراق لكن ثمة ما يذهل في هذه الكآبة المصيبة الشعب الذي كنا ننظر إليه كمحتل عنيف يتحرش بجيران سابقاً ، الذي افترضنا جميعاً أن الديكتاتورية السياسية والحظر الاقتصادي والحروب العرقية التي أقحمهم فيها قاتته ، هذا الشعب بعناصره الاثنية والدينية المتعددة والتي تعرض

بعضها لفحش أسلحة نظامه وقهره ما جعل بعضها يسارع بالانضمام للغزاة ، ما زال شعباً جديراً بالاحترام لأنه ظل يخوض واحدة من أكثر معارك التاريخ الحديث خسة بعد أن فرضت عليه ويناضل ويستشهد جنوده ومواطنوه وهم يعرفون أن التفوق العددي والعسكري للغزاة أو المغول الجدد لابد سيحسم الحرب لصالح الغزاة وهو ما حدث.

هذا أمر نعرف جميعاً وربما مع صدور هذا الكلام للطبع يكون مجرمو الديمقراطية كما أراهم قد أحكموا سيطرتهم على العراق.

لكن.. هل سيحكمون سيطرتهم أبداً؟.

عندما يمتلك أى شعب هذا الوضوح فى الرؤية ، هذا التصميم على القتال «الخاسر» بالمحصلة الأخيرة لمفاهيم ونظريات النصر العسكرى فإن ثمة أشياء أخرى فى المعادلة والتقييم ينبغى أن يحسب حسابها . إرادة الشعوب والتمسك بالإحساس بالكرامة وعدم الزيف النفسى حتى تظل عارفاً ما الذى يستحق أن تعيش من أجله وكيف تعيش وما الذى ينبغى أو الذى يستحق أن تموت من أجله ولماذا؟.

هذا هو الذى ما زال يمتلكه شعب العراق الذى كنا نكاد نسخر من وصف تلفزيونه لمواطنيه قبل هذا الغزو البربرى بانهم «النشامى» أو «الاشاوس» . كنا نظنهم تفخيمات وتضخيمات نفسية من النوع الذى نجده عند كل الشعوب خاصة المقهورة منها.

لا ننسى رامبو وغير ذلك من بذاعات فى دعاية الولايات المتحدة لنفسها حتى كان يوم ضرب رامبو فى ١١ سبتمبر.

العراقيون صنعوا فى وجه أهوال كثيرة يستعصى على خيال غزاتهم التعامل معها .. خاصة إذا كان أكثر هؤلاء من صفار السن أقرب إلى سن المراهقة كما لاحظنا من وجود الكثير منهم (الأسرى وغير الأسرى) فى التلفزيون.

أقل الأشياء تصيبهم بالفزع-حريق مثلاً حتى لو لم يروا النيران ويتم السيطرة عليها فى دقائق كما حدث فى مبنى كليتى منذ أكثر من عشرين عاماً وأنا أدرس العلوم السياسية بجامعة أمريكية. ليلتها هروا الجميع لكن الطالبات الأمريكيات كن الوحيدات اللواتى يبكين .. رغم أنه لولا وجود عربات الإطفاء ربما لامتدنا أن الأمر كله إشاعة.

هل الغريب أن تهزم خمس دول بينها الدول العظمى الحاكمة للعالم فى النظام العالمى الجديد والذى تجرب بغض أحدث أسلحتها على عدوها ، دولة صغيرة منهكة سياسياً واقتصادياً ومتخلفة عسكرياً عن أعدائها بأجيال؟.

الاجابة -عسكرياً- معروفة ومحسومة لكن يبقى الحزن.

لكن هل كل نصر هو النصر العسكرى فحسب؟.

لقد غيرت المقاومة العراقية ليس فقط مفاهيم وتوقعات الخبراء الاستراتيجيين للقوات الغازية حيث اضطروا رغم عددهم وسلاحهم لطلب امدادات وانتظارها بل وتراجعوا عن تصريحات أدلوا بها بشأن توقيت انتهاء الحرب وهم يضرّبون كل بقعة في العراق ليل نهار وما زالوا يواجهون مقاومة.. متقطعة ، وإن ولم يرمهم أحد سوى بقتلة أو حذاء كما يستحقون.

قبل سقوط بغداد -ويالآلم هذه العبارة- كان بإمكاننا أن نقول : أليس نفس توقعات العدو، بذاته نصراً؟.

فقط بغداد لم تسقط والأرجح أن وجهة نظري ، أنه قد تمت خيانتها عبر صفقة لكن هل يظن المحتلون أن سقوط دولة العراق سيعني التطبيع النهائي والتسليم الأبدى والكف عن المقاومة؟ هذا سؤال جدير بال طرح ، حتى لو أصر المتشككون والساخرون ، أن السلب والنهب الجارى الآن يجيب نفسه عن كل الأسئلة وينذر- فى احتمالات لا يستبعدا أحد- بنشوب حرب أهلية كـمخرج مثالى قد يحرض عليها الأعداء الذين يصفون أنفسهم بالتحالف ، لضمان نزع فتيل المقاومة الوطنية ضدهم رغم إبعاد اللجوء إلى قوات الشرطة العراقية للسيطرة على التدهور وانهلال الدولة بكافة مؤسساتها.

كنا ننتظر الصيف البغدادي الحارق الذى أعرف حيثة بحكم حياتى فى الكويت المجاورة لسنوات ومعاصرة بعض أقاربى لحرب الخليج الثانية واضطرابهم للخروج متخفين برأ خوفا على حياة أولادهم والقليل والتمين من ممتلكاتهم.

فى المقال التالى الذى قمت بترجمته كما هو الذى نشره صاحبه قبل تسليم بغداد دون مقاومة والذى نسف كل تحليلات الخبراء الاستراتيجيين وصدم الجمهور العادى ، نقرأ رأيا لكاتب غير عربى وصحافى آخر يدعى كمال خان نشره فى واحدة من كبريات صحف بلاده -باكستان- الناطقة بالانجليزية.

وكان ذلك الكاتب قد توقف- لفترة- عن مواصلة الكتابة عن موضوع غزو العراق لأنه -كما قال فى حديث صحفى أجرى معه رأى أن هناك الكثير من الشرفاء فى هذا العالم الذين يكتبون أفضل منى ويحرصون على قول الحقيقة «وبوضيف ، فى ذات الحديث، إنه ليس كل أمريكى يؤيد هذه الحرب » مستشهداً فى ذلك السياق ببعض من بلغ بهم رفضهم المشاركة فى حرب فيتنام حده الاتجاه إلى اليابان والاستقرار بها رغم أن من هؤلاء من كان يعمل ويشغل مركزاً مرموقاً فى مجلة Time الأمريكية وغيرها».

لقد عاد الكاتب إلى استئناف الكتابة حول ذلك الموضوع بعد التداعيات الصادمة الأخيرة وانعكاساتها التى يبدو أنها ستلقى بظلالها على بعض الدول الأخرى المتهمة بمساعدة العراق وبالتخديد سوريا.

ونحن نصدق وحتى ونحن نسمع الأغاني للعراق فى إذاعاتنا العربية هذه المرة، وليس

لفلسطين إن هناك شرفاء من كل الجنسيات سيظل انتماءهم الأول للحق والحقيقة، لا للدعاية الديماغوجية أو الثغرة العنصرية أو للمصالح غير المشروعة.. هؤلاء الذين يتحملون في سبيل الحقيقة، خسارات مستمرة لكن ليس من بينها احترام النفس أى احترام الإنسان، وحقه أن يختار بنفسه ما يريد لنفسه.

أما أنا فباليقين الذى يملأ كل من يذهب ليضمحى بحياته فى سبيل تحرير أرضه أو مقاومة المحتل لأرض عربية وإن كنت لا أملك نفس شجاعتهم وإنكارهم الكامل لذات، فأتأثق أنه حتى لو قبل العراقيون بحكومة عميلة مؤقتة أو انتقالية كما يسمونها، حكومة «صنع فى الولايات المتحدة» تبصم على كل مطالب إسرائيل، إلا أن الشعب العراقي، متى استرد أنفاسه ورغم السلب والنهب نعم.. لن يقبل بعد فترة الحداد وانعدام التوازن وحصى الانفجار بعد طول قهر، أن يبقى محتلاً ومنهوباً ذلك النهب الطويل من الخارج بعد جلاء «التحالف».

الفلسطينيون لم يقبلوا وما نحن سنتجاوز ٥٠ عاماً على النكبة فلماذا وكيف يقبل العراقيون ؟ مستنقع بوش وبلير

كمال خان

عندما كان مخطوط الحرب الأمريكيون يناقشون الكيفية التى سوف يجبرون بها صدام حسين على الخروج كان العنوان الذى أعطوه لذلك (المشروع) أنه سيكون أكبر عرض للألعاب النارية. يمكن مشاهدته على الإطلاق.. صدفة ورعب سوف يجمدان العالم.. أسلحة مثل أم القنابل، كما يحب أصدقائنا الأمريكيون أن يسموها Mob وهو اختصار ثلاثى لحروف القنبلة البذينة التى تحوى أكثر من ٢١٠٠٠ من المتفجرات حتى أن المرء يعجب أليس هذا بذاته من أسلحة الدمار الشامل ولنتخيل لو كان صدام حسين يمتلك التفوق الجوى أو يملك أم القنابل هذه بأعداد وفيرة لكان الجنود الأمريكيون الصغار المساكين هم الذين يتعرضون لكل ما يحدث الآن بدلاً من القوات العراقية المنهكة بالجوع.

ثمة كلمة أخرى قبيحة من ثلاثة حروف هي WMD أو أسلحة الدمار الشامل.

إن حقيقة الأمر أن الولايات المتحدة وبريطانيا كذلك تمتلكان أسلحة دمار شامل فلماذا لا نكون أكثر شمولاً ونقول بأن أمريكا وكل القوى الأخرى أيضاً يجب أن تلقى وتدمر أسلحة الدمار الشامل، إن لدينا فريق بليكس والبرامسى الذى سيكون أكثر من سعيد أن يتعاون فى هذا الصدد. هل الأمر على هذا النحو: أن أم القنابل قد أعادت معها أم المعارك التى تحدث عنها صدام فى حرب الخليج السابقة؟ يبدو أنه (صدام) قد حقق أمنيته ليلعب دوره فى ذلك الفصل على أية حال ولو أنها قد تأخرت.

لقد أظهر العراقيون فى الأيام الخمسة الماضية (بعد أسبوع فقط من المقاومة العراقية) أن المرحلة التى كان يحلم بها الغزاة قد بدأت تتكشف عن «كابوس فى شوارع البصرة وهذا رغم أن

المخططين في واشنطن قد افترضوا وأشاروا بأن (الحرب) سوف تكون نزهة أو «دفعه يد» حيث سيتم الترحيب بالمحتلين كمحررين للعراق . وكان ثمة توقع بأن الشيعة الغاضبين الذين يريدون رؤية صدام ميتاً سوف يحتفلون في الشوارع ويرحبون بالفزاة بالورود ويأترون مفتوحة.

إن طهران تشعر بالخطر مثلها مثل الشيعة جنوب العراق . وإيران أيضا تود لو تطول هذه الحرب لكي ترى الفزاة ينزفون حيث يخاف الايرانيون أن يأتي دورهم بعد العراق كما تخشى دول أخرى عديدة في المنطقة حتى أن العديد من المواطنين الذين هاتقوا شبكات التلفزيون بشأن الحرب قالوا إنها ليست بغداد وإنما الإنسانية كلها هي التي تتعرض للهجوم.

إن تحديد إيران وكوريا الشمالية والعراق بالاسم قد ذكر الناس في طهران وبغداد وبيونج يانج بأن الإدارة الجديدة في واشنطن فعلت ما وصفه أحد أصدقائي الصينيين بأنه إظهار لأوراقها في اللعب دون أن تدري ما الذي فعلته . إن الخداع الذي مورس على باريس لأنها أظهرت أوراقها ثم التظاهر بالاندهاش والتعرض لرقعة هذب عندما أظهر بوش محوره للشر هو أمر ينم عن نطق بالغ الرذالة . لقد ألمح المسؤولون وصناع السياسة الأمريكيون سراً إلى من سوف يأتي عليه الدور دون أن يدركوا أنهم لم ينهوا بعد ما بدأوه في أفغانستان.

وإذا ما نظرت إلى وجه بليز سوف ترى أنه قد عاش ليالي أرقعة وسوف يكون عليه أن يقنع الشعب البريطاني بالنطق وراء هذا الاخفاق الوشيك ذلك أن الجنود البريطانيون لم يذهبوا إلى بغداد ليعودوا وهم ملتقون بالعلم البريطاني .. سوف تندب الأمهات والأرامل واليتامى لكن هل يهتم أحد؟.

في الحقيقة أن أكثر الناس يكثرون ولقد خرج الملايين من الناس لكي يقولوا لا للحرب بينما يطلق بوش ترسانته القاتلة من عقالها ضد دولة ذات سيادة.

ويبدو أن الأمر لم يخضع للتخطيط الكافي في حالة التصب لأسوأ السيناريوهات التي تحتل التعامل مع مقاومة تتميز بالإصرار والآن لأن هذا قد حدث والفزاة يتعرضون للخسائر نلاحظ اهتماما مفاجئا باتفاقية جنيف (الخاصة بمعاملة أسرى الحرب) .

يمكن هكذا أن يتساءل المرء ما إذا كان هناك أي احترام لمجلس الأمن والذي يمكن مع ذلك أن أضيف أنه يضم دولا تتميز بالإحساس بالمسؤولية مثل روسيا والصين وألمانيا وفرنسا عوضا عن دول أخرى كثيرة فلماذا إذن تعد اتفاقية جنيف شديدة الأهمية ولو أنها كذلك يمكن للمرء أن يتساءل عن أسرى طالبان المعتقلين في قاعدة جوياننامو.

إنهم «مقاتلون أعداء» كما يطو للإدارة الأمريكية تسميتهم وتكر عليهم أية عدالة إذ نرى صورا لأسرى الطالبان وهم عرايا موثقو الأيدي بالأغلال بداخل أقفاص مثل الحيوانات - وهذا أيضا انتهاك لاتفاقية جنيف منكما أن إبقاء الناس في حال من العزلة واتباع معاملتهم إنهم تهدف إلى إحداث الصدمة لا يمكن أن يجد تبريراً له تحت أي قانون أرضي معاصر.

وعندما يقوم ناس يفترض أن يتميزوا بالمسئولية بأعمال غير مسئولة فلا بد للعالم أن يتكلم بصوت واحد.. صوت تتأغم دينى وعرقى وليس صوت صدام الحضارات بل إن العبارة الأخيرة بذاتها تتمتع بنفس الغرابة التى تتميز بها الأحداث التى تتجلى أمام أعيننا ذلك أن التصور بأن الجنس البشرى يستطيع أن يمارس الذبح ضد نفسه باسم الحضارة هو تصور مريض غير أن المثير للحرز أن هناك كثيرين هذا هو هدفهم.

ومع اقتراب الصيف سوف يتضح أن أمتنا الطبيعية هى أكبر الأعداء..
الصحراء سوف تبدأ فى الغليان حيث ستصل معدلات درجات الحرارة إلى الأربعينيات لهذا كان التوقيت دائماً هو لب الموضوع إذ كان المتوقع أن ينتهى كل شئ فى أسابيع قليلة.
غير أن المؤشرات على أرض الواقع تشير إلى أن عملية الغزو يمكن أن تستمر لشهور.
لقد قرر الشعب العراقى أن يحافظ على أرضه ضد الغزاة وهناك أدلة الآن على أن القوات العراقية تمتلك صواريخ متحركة مضادة للدبابات ومناظير للابصار الليلية وأجهزة تستطيع إعاقة الرادارات عن عملها.

ومتى تبدأ عواصف الصحراء سوف تجد قوات المشاة نفسها محرومة من الدعم الذى تقدمه لها المروحيات وسوف تضطر الطائرات عموماً إلى التحليق لمسافات أعلى الأمر الذى سوف يقلل من قدرتها على تحديد الأهداف أكثر ومن ثم يقلل من الدقة (فى إصابة الهدف). أما بالنسبة للمقاومة العراقية التى تعرف بطبيعة أرضها وهى مقاومة معتادة كذلك على ذلك الطقس فسوف يكون الصيف بالنسبة لها طوق نجاة بينما هى تصعد من هجمات الكر والفر على القوات (الأمريكية) الممتدة (على الأرض العراقية).

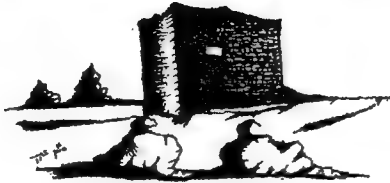
ولقد أظهرت التجارب السابقة أن الرمال تدخل كل الأماكن حتى الجوانب والزوايا الصغيرة ويمكن لها أن تعطل أو تؤثر على الأجهزة الالكترونية.

وما لم يصل الغزاة إلى العاصمة للاحتفال بمهزجان النصر الكبير الذى من المفترض أن يحبيه الشعب العراقى الفقير لأنه سيأتيهم بالديمقراطية وكعكات الجبن فسوف يجدون أن دباباتهم ومدعراتهم ذات الجلد الرقيق سوف تشوى فى الخلاء مما يقلل من فاعليتها.

سوف يحتاج الجنود للمزيد من الماء للتعامل مع الحرارة المفرطة وهو كابوس لوجيستى رئيسى آخر.

إن ارتداء البزات الكيماوية فى حال التعرض لهجوم بالغازات سيمثل مشكلة أخرى.
لقد قال لى صديق أمريكى: «لأبد أن يموت الجندي من الحرارة الخانقة داخل بزته تلك فى عشرين دقيقة لا أكثر».

لأبد أن يسود القانون النبوى ولأبد من تقوية مؤسسات مثل الأمم المتحدة بحيث لا يكون مستقبل البشرية خاضعاً لإشطحات البعض.



الحياة الأمريكية

تأليف وهناء : مادونا

هل أصبح لزاما على أن أغير اسمي ؟

وهل سيصل بي ذلك إلى أي نتيجة ؟

هل أصبح لزاما على أن أنقص وزني ؟

وهل سيجعلني ذلك نجمة ؟

لقد حاولت أن أكون صبيبا أو ربما صبية

أو خليطا من الاثنين معا !!

لقد حاولت أن أكون الأفضل ولكن يبدو أنني أخطأت

هذا النمط من الحياة المعاصرة هل هو بحق يناسبني ؟

هل هو بدون مقابل حقا ؟

لقد ذهبت إلى الحانة أبحث عن مشاركة وجدانية

أردت أن أبحث عن صديق

معنى بسيطاً نريده ، ولكن دائماً مانطلق إلى نفس النتيجة : لا يوجد أصدقاء

أنا أعيش الحلم الأمريكي

أيها الحلم أنت أجمل شيء أراه

أنت لست مجرد حلم

لقد حاولت أن أبقى في المقدمة وأن أمكث على القمة

ولكنني بطريقة أو بأخرى نسيت

نسيت لماذا أفعل كل ذلك ؟



نسيت لماذا أطلب المزيد ؟

تبا لك أيها الحلم .. نعم تبا

فما زلت أشرب وأحقن جسدي وأنت تتصور أنني سعيدة

أقود سيارتي وأشعر بأنني عظيمة وأنت تتصور أنني سعيدة

أمارس اليوجا وأملأ جدران حجرتي بالمشاهد المثيرة

أفحص الأجساد بفرائزي

أمارس الرذائل

كل هذا الزيف ماهو إلا تخدير للنفس

حتى وإن كان كل ذلك يعطيني الأمل

لدى محام ومدير ووكيل أعمال ولدى طباطخ وثلاث من المربيات ومساعد

وسائق وطائرة نفثة

لدى مدرب ومدير منزل وحارس شخصي أو ربما خمسة حراس

ولدى جنائبي ومصفف للشعر

هل تعتقد أنني سعيدة ؟

أود أن أعبر عن منتهى وجهة نظري

أنا لست مسيحية أو يهودية

أنا مجرد إنسان يعيش الحلم الأمريكي بلا هدف

والقد أدركت لتوي أن الأشياء ليست كما تبدو !!

معنى المأساة

شعر : جوجس شكرى

- ١- سرق يعقوب بركة أخيه
وأشترى بكوريته بوجبة عدس
بعد أن تأمر مع أمه على خداع أبيه
أيضاً سرق يعقوب أغنام خاله وذهب بناته
وهرب كفأر
ثم صار نبياً يدعى إسرائيل.
وهكذا استطاع الرب
أن يعلم الناس معنى المأساة.
.....
- ٢- قال يهوذا :
بعت سيدى
ثم دعيت خائناً
وشنقت نفسى.
أنا أكثركم حباً له
ماذا كان سيفعل بنوفى
أنا الذى منحه المشهد الأخير
فى مأساته
- ٣- وقال لنفسه
لو كان حماراً لأبتسم ومات من السعادة.
- ٤- أنا قنبلة عمياء
أركب طائرة خرساء
وأصدق
أن الحياة يمكن تفجيرها
حين أبتسم
ويقول الموتى ليس على القنبلة حرج -
فقط الحرب عمياء لأننا نشاهدها عارية على
الهواء
فتموت نحن من الحرج
- ٥- وهو يرفع الغطاء
تبكي الدجاجة .. تتوسل :
لماذا ذبحتنى يا أخى؟
وهو يلتف حولها مطمئناً
ثم تخرج وحيدة
بعد أن ملأت الإناء بدموعها
فيمضفها ويوصلى
بارك يارب روحها
- ٦- قالت بعد موتها :



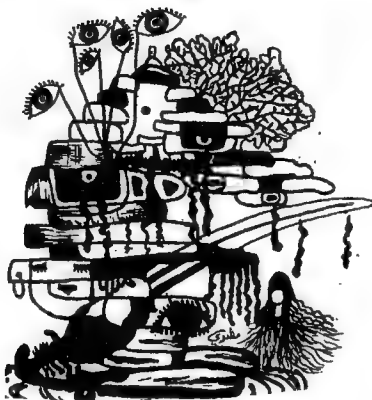
٢٠ مارس .. الميدان مرة أخرى

سامي الغباشي

خرجت لتضيف امرأة / صوتاً
 ولتدعم « بالصوف » محباً
 يقف على قنفيه منذ العاشرة صباحاً .
 وإذا احتتم الأمر
 كانت ترفض باحتة عنه
 بين فحيح هراوات الأمن
 وعربات الإسعاف
 -٥-
 الكعكة نقلت منذ سنين
 فعلام اجتمع الصبية ؟
 والحرية أيضاً في شيخوختها،
 فكيف ازحم الميدان
 -٦-
 حين انسل بلحيته
 كي يستنزل لعنات الرب
 (على كل خصوم النول العربية)
 طالب أن تبعد فتاة « تهتف ضد القتل »
 واشترط أن يطفى رجل سيجارته
 كي ينصروا الله !!

-١-
 فجأة..
 أضاعت هواتف الصبية المحمولة
 وازنحم البريد الإلكتروني « بالنداء :
 سنحضر هذا المساء من « قانون الطوارئ
 -٢-
 ابتسم حتى العاشرة مساءً
 لمحين التقيا بعد خصام
 في زحمة هذا الميدان... ..
 وضعت يدها في يده دون عتاب ..
 هتفا حتى يبع الصوت
 واتجها صوب محاريب الروح
 -٣-
 ولد يتخلل زحمة هذا الميدان
 وينادي بخفيض الصوت : شاي -
 بسكويث
 هذا الولد الطيب..
 يستثمر هذا اليوم مظاهرة
 ليعوض بعض خساراته.
 رغم الطقس السيئ

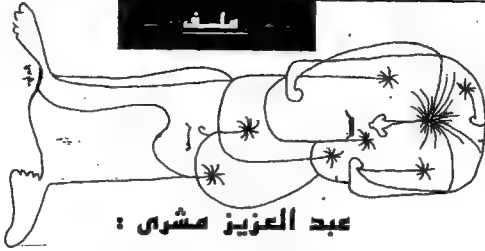




عبد العزيز مشري حارس ذاكرة القرى

إعداد وتقديم : محمد القشعمي

-عبد الله محمد حسين
-عزيزة فتح الله
-فصل من آخر رواياته
-أحمد السديحي
-بيليو جرافيا عبد العزيز مشري



عبد العزيز مشرى :

حارس ذاكرة القرى

مرت ثلاث سنوات على رحيل « سادى ذاكرة القرى » الرسام ، القاص والروائى المبدع ، عبد العزيز مشرى الذى ولد فى قرية جنوب المملكة العربية السعودية وافتتح بفنه الربح على العالم العربى . حاز تقدير وإعجاب عدد لامحدود من جمهور الثقافة والفن أيضا من البسطاء فى القرى والبرادى البعيدة ، الذين كانوا يجعلون أولادهم وأحفادهم ، يقرؤون عليهم مايكتبه عبد العزيز ربما لأنهم أدركوا بحسهم وفطرتهم ، أنه يكتب أفراحهم وأحزانهم وتطلعاتهم لعالم أفضل .

عبد العزيز مشرى تحدى الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة ، ليس هذا فحسب بل تحدى المرض الذى صاحبه طوال حياته هذا المرض قضم جسد عبد العزيز قطعة قطعة ، فقد بتر الأطباء قدمه اليمنى والساق اليسرى وزرعوا له كلى جديدة بعد أن أصيب بالفشل الكلوى إرادة فولاذية وحب جارف لوطته والادب والإنسان فى كل مكان . لقد كان هو من يبادر بالسؤال عن الصحة والأحوال ومد يد المساعدة على قدر طاقته . ليس أبلغ من سماع صوته عبر روايته الأخيرة « المغزول » والتي لم يتمها فقد وضع الموت الخاتمة : « ليست كل العذابات المرضية أكبر من انتزاع كرامة الإنسان وليست الأوجاع الليلية تلقى من مصادرة حرية المرء » وأن الحياة إذا اختل ميزان العافية فى طبيعتها ، لايجوز القضاء على بهجتها .

هكذا دائما كان ذلك المبدع الرائع ، وهكذا دائما « أدب وتقذ » ، تحقلى بكل فن حقيقى داخل مصر وخارجها ، لذا كان هذا الملف من واحد من مبدعينا العرب .

هذا الملف فى هذا الوقت بالذات كى يؤكد على أننا جميعاً فى خندق واحد ضد الإسفاف وطمس الهوية وخنق الحريات ومحاربة الموهوبين والمخلصين ، وقبل هذا أو بعده ، ضد الهيمنة الاستعمارية واحتلال الدول وقمع الشعوب وسرقة تراثها .

فلا سبيل للدفاع عن حضارتنا وثقافتنا إلا باستحضار النماذج المشرفة ودعم لأصحاب المواهب والقدرات ليس فى مجال الثقافة فحسب بل فى شتى المجالات .

ورغم صعوبة المرتقى الطريق الطويل ، إلا أننا سنواصل الطريق ومعنا تراثنا العريق وأرواح وأعمال مبدعينا الأفاضل . ونريد معاً مقولة عبد العزيز مشرى : « إنتهى مع الحياة والفرح والأمل » .



في ذكره الثالثة

دعه يستمتع ولو بلحظة فرح!

محمد عبد الرزاق التميمي

ورحل عنا عبد العزيز مشرى . وتمر الأيام كثيبة حزينة.. وتأتى ذكرى وفاته ١٤٢١/٢/٢هـ السنة الثالثة في وقت من أسوأ الأوقات وأشرسها والعدو الأنجلو- أمريكي يكشر عن أنيابه ويصلى إخوتنا في العراق بنيرانه . بأحدث ما توصل إليه من أسلحة النمار وأشد فتكاً -ركن الأمة العربية قد كتب عليها أن تصبح مسرح تجارب لأحدث أسلحته كام القنابل وغيرها . وتأتى ذكرى الصديق الراحل في هذا الوقت العصيب السيئ «واتذكر ..وأستعيد شيئاً مما في الذاكرة عندما كان في زيارات وتنقلات شبه دائمة بين جدة والرياض حيث مستشفى الملك فيصل التخصصي».

في شهر رجب ١٤١٦ هـ رافقت الدكتور يحيى بن جنيد «الساعاتي» في زيارة للأستاذ عبد العزيز مشرى في إحدى إقاماته المتكررة بالمستشفيات ، وبقيت عنده بعض الوقت وتصفحت بعض الكتب المهداة له من أحدث الإصدارات الأنبية مثل ديوانى فوزية أبو خالد وعلى باقى وغيرهما ، ورأيت ولاحظت أنه ضجر بعض الشيء رغم أنه دائماً يبادر بسؤالك عن مصحتك قبل أن تسأله عنها . فاستفسرت منه فقال : ألم تقرأ المقابلة التى نشرت فى عكاظ مع الأديب . فهاجبت بالنفى فقال : إنه سئل عن بعض الأشخاص وعند سؤاله عنى أجاب «الله يكون بعونه فهو يعيش حالة إحباط فى المستشفى عفا سألته عن هذا الشخص هل اتصل بك هنا ليطمئن عليك ؟ فنفى ذلك ، فقلت له : هذا تصرف جاهل وغير مسئول وانتهى الموضوع بنكتة ، وتجرت وسألته ونحن بمفردنا

ماذا عملوا لك هنا؟ فقال : أبدا هناك جرح بسيط بقنمى مصاب بفرغرينا والعلاجات لم تجد نفعاً مما استدعى من الطبيب تنظيف الجرح وأخذ جزء بسيط من الكعب فى هذه الأثناء أتته مكالمه من خارج الرياض وسمعت حواراه مع مهاتفه ، وأعتقد أنه أحد أشقائه وعرفت أنهم قد بتروا ساقه اليمنى من تحت الركبة ، فرقعت الغطاء بشكل سريع قبل أن يتمسك به ليمنعني من ذلك . ورأيت المنتظر فضحك من غيائى ، وقال هذه أمور بسيطة فأننا أفضل حالاً ممن وصفنى بالإحباط . وبدأ يملأ مقاله الأسبوعى لجريدة الجزيرة على شقيقه عبد الرحمن.

خرج بعد مدة من المستشفى وصدر له فى هذه الأثناء روايته «فى عشق حتى» من المؤسسة العربية للدراسات والنشر .. تكررت زيارته للمستشفى وأصبح لا يخبر أحداً ، إلا أننى وبعض الأصدقاء نعرف ذلك من الأخ مسعد النوسرى الذى يرتب له المواعيد أو من الأخ على الدمينى وبعد رمضان ١٤١٧ هـ أصيبت قدمه اليسرى بجرح بسيط ، إذ ارتطم أصبعه بحافة السرير مما سبب لها نزفاً لم يتوقف فخاف أن تصاب بما أصيبت به أختها ، فحضر إلى المستشفى وعاده الكثير من الأحبة ، بقى مدة لا تقل عن الشهر والأطباء يحاولون الوصول إلى حل يعالج الجرح ويشفيه دون تمرير القدم كما حصل للسابقة ، وكنت عند زيارته ويقاننا لوحدنا يحدثنى عن «حتى» وكيف قابلها ، وعن تاريخ حياتها وكيف هاجرت مع أهلها إلى حين التقى بها . وعن فندق «أبوليك» حيث كان يسافر من أجلها ويكون الفندق داخل مصر القديمة هو مربط الفرس . وكيف تزوجت وكيف عاشت بقرية بعيدة عنه وكيف أنجبت وتزوج عليها زوجها وهكذا . فى إحدى الزيارات وجدته مضطرباً بعض الشيء فسألته عن السبب فقال : إنها اتصلت به من هناك وهى تبكى إذ أنها تشكو من مرض خبيث ، وأنه لا يمكن أن يتركها لمسيرها . ولابد أن يقدم لها أى خدمة تخفف عنها هذا المصاب . وعرفت أن مكالماتها انقطعت أو هو قطع أخبارها عنى.

بعد يومين أو ثلاثة قرر الأطباء مجتمعين بتر القدم الثانية اليسرى حتى لا تسير «الفرغرينا» إلى باقى الجسم ، واقتنع بعد جدال ووقع بالموافقة على هذا الإجراء ، وتحديد الموعد صباح يوم السبت .. عدته مغرب يوم الجمعة ولم أجده فى غرفته وعند السؤال عرفت أنه خرج بإصرار قبل العملية رافضاً لها . مرت الأيام ولما هو يغادرننا إلى أمريكا وعرفت أنهم لأموه لتأخره ولعدم الموافقة على ما اتفق عليه الأطباء بالرياض ولهذا قرروا بتر ساقه من الفخذ ، اتصلت به هناك مرة وعرفت أنه مر بظروف صحية أخرى أبقتة أكثر من شهر ونصف تحت العناية الفائقة ولا يعرف من يزوره.

كان قبل سفره حريصاً على أن يرى روايته الجديدة «صالحة» وقد صدرت عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة وقد وصلتنى صورة لها فحرصت على أن أرسل له صورة الغلاف ، لو بالفاكس تحقيقاً لرغبته أو هكذا هاتفت الصديق عبد السلام الوائل اليحيا من إحدى الولايات الأمريكية لعله

يسافر إليه ليخبر أصدقائه وليطمئنهم عليه.

وأرسل لي صباح اليوم التالي رسالة «بالفاكس» يذكر فيها أنه اتصل بالمستشفى وأفادته الممرضة أنه لا يستطيع التحدث معك وسوف تجرى له عملية جراحية ، ويمكنك مقابلته خلال عشرة أيام وقال ما نصه «استناداً إلى التكليف الأخلاقي الذي حملتني إياه فإنني سأزوره نهاية الأسبوع القادم- متى ما أصبح من الممكن التحدث معه -وأشعر بأن ذلك واجب يتحتم على القيام به باعتباري ممثلاً عنكم هنا».

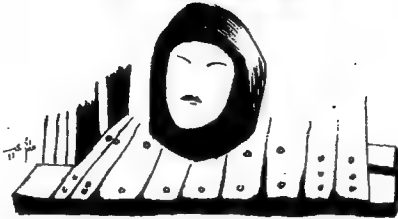
وهكذا بعد عشرة أيام استطاع أن يتغلب على ظروفه الدراسية وبعد المسافة التي أعتقد أنها لا تقل عن سبع ساعات طيران، وصل أخيراً فوجده غادر المستشفى قبل ساعات وهو يستعد للعودة للوطن الغالي وقابله- بصعوبة إذ أنه لم يعرف أين يسكن بعد خروجه من المستشفى- وطلب منه أن يزور المكتبات واقتنى مجموعة من كتب الفنون التشكيلية وغيرها.

وكان يحاول أن يقنعه بالبقاء قرب المستشفى حتى يزول الخطر ولكنه أبى بقوة رافضاً البقاء ولو لأيام إذ أن الوطن والأهل والأصدقاء لا يستبدلون.

وهكذا عاد وبمجرد الاتصال به للاتمئنان على صحته ولا يعطيك مجالاً للاتمئنان عليه، فعرضت على أبي سهيل -شيخنا عبد الكريم الجهيمان- أن تسافر إلى جدة لزيارة المشرف وبعض أصدقائه القدامى مثل الأستاذين عبد الله عبد الجبار وعابد خزندار ووجدنا جدة تسبح في بركة إذ كانت الأمطار قبل أيام تنهمر بلا قياس.

وجدنا عبد العزيز ينتظرنا بالشوق ، إذ هاتفناه بمجرد وصولنا وتوقعت أن نصل إليه في وقت محدد ، ولكن الأستاذ عابد خزندار سبق أن حدد موعداً مع أستاذ الجيل عبد الله عبد الجبار ليجمع الشئتين بعد أن تفرقا وهما أبو سهيل وعبد الجبار إذ كانا مدرسين في مدرسة تحضير البعثات قبل أكثر من ستين عاماً وتفرقت بهما السبل ولم يلتقيا منذ ذلك التاريخ الموهل في القدم.

وقفت السيارة أمام المنزل المقصود ومد لخزندار يده إلى خرم في الجدار فسحب خيطاً مثبتاً هناك فافتتح الباب، وسمع عبد الجبار بالحركة فخرج مستقبلاً ضيوفه وكان العناق الحار بينهما والعواطف الشجية ، شغمرنا بفيض مشاعره وكرمه وترحيبه وهداياه من الكتب والمصورات ولم يتركنا نذهب للمشرف إلا في وقت متأخر فوجدناه قلقاً علينا خوفاً أننا غرقنا في وحل أحد شوارع جدة وكان محتقلاً مع أخويه أحمد وعبد الرحمن وبعض الأصدقاء ، ورغم ظروفه الصحية وتحمله السهر والغرفة غارقة بالدخان والشيخة ، وأذكر أنني هاتفنا صديق الجميع الدميني شاكياً له تلك الصورة فرد على وماذا بقي له؟ دعه يستمتع ولو بلحظة فرح.



بطل ليس من هذا الزمان

عبد الله محمد حسين

إبان أزمة الطاقة تنفق البترولولار بفزارة في خزائن دول النفط ، وبدأ يتشكل عهد جديد عرف لدينا بزمن الطفرة .. ميدان هذه الطفرة كانت البنية التحتية .. حيث أخذت المدن الهاجعة تتملى وتتسع بشكل مذهل . مخططات سكنية عشوائية يغذيها صندوق التنمية العقارية . أسواق تجارية تمدحها صناديق الاستثمار ، وشرع في بناء المدن الصناعية فتدفقت العمالة الآسيوية من كوريا وتايلاند والفلبين والهند فطغت سحناتها على المدن وكادت تمحو ملامحها العربية ، صارت هذه المدن الناشطة عمرانياً تستقطب أيضاً أبناء الوطن من أطرافه القصية ، ومن هجروا قرى قلب الصحراء قصدوا المدن المغرية بالثراء السهل وبالأضواء والأسواق ومطاعم الوجبات السريعة ذات النكهة الجديدة والسيارات وصنوف الاستهلاك ولاشئ غير ذلك .. بقى البناء الفكرى بمنظومه السابقة نون حراك في هذا الزمن المتحرك كرمال الصحراء.

ضاعت جبال غامد بطموحات عبد العزيز وتطلعاته فيحث له عن متسع فكانت المنطقة الشرقية . قدم من قريته المنسية في بلاد غامد ، واستقر على الساحل النفطى في مدينة الدمام الملاصقة لمدينة الخبر العصرية الأنيقة.

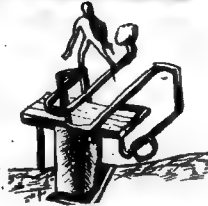
هنا التقى بصديقه الوفى على اليمينى الذى سبقه في القدم من بلاد غامد ، والتقى بصديقه الحميم جبير المليحان القادم من الشمال يحمل في داخله روحاً عطشى للفن والمعرفة ، وانكبوا بالدمام على وسائل المعرفة يقرأون ويكتبون .. وكانت " جريدة اليوم " النافذة الصغيرة التى أطلوا منها على العالم الواسع والمتغير . فى هذه البوتقة بدأ عبد العزيز فى التشكل .. يقرأ بنهم ، فقد كان قارئاً جيداً نكياً فطناً ومستمعاً متحفزاً ، يقرأ ويناقش ، ليهضم معارف وأفكاراً أكبر من المساحة المسموح بها والتي بقيت ضيقة لم تتسع رقتها ، كما اتسعت مساحة المدن.

لم يتح لمشرى دخول الجامعة ، حيث كانت هناك جامعتان : جامعة البترول والمعادن ، وجامعة ناشئة هي جامعة الملك فيصل .. أبواب الجامعتين مشرعة للمريد ، لكنه عرض عن ذلك بجامعة الحياة والأصدقاء وبما يتاح من كتب تتسرب في حقائب السفر .. وأخذ يبنى منظومة أفكاره وينميتها .

عند حافة هذا الزمن التقيته وكان في منعطف حاسم بعد مجموعته القصصية الأولى (الموت على الماء) عند صيرورة الفن والفكر ونضوج الذات المبدعة .. كانت الأفكار تنبت داخله عفوية وتتشكل ليقدّمها إنتاجاً غزيراً ومنوعاً .. مقالة ، قصة ، رواية وحتى شعراً .. التقيته وكنت أبحث عن صديق ، إذ عدت للتو إلى الوطن بعد غياب دام ست سنوات تسارعت فيه الخطى وقاتنى الكثير في الساحة الثقافية . ظهر جيل جديد من الكتاب يمتلك أدوات فنية أكثر تطوراً ، و يمتلك جرأة في ارتياد مناطق كانت محظورة ، كان عبد العزيز واحداً من أبرز ممثلي هذا الجيل وأغزر الجميع عطاء على الرغم من هجوم السكر ملك الأمراض .. التقيته في أروقة جريدة اليوم ، كان عبد العزيز يسهم آنذاك مع صديقه على النميني . في إعداد " المريد " ملحق جريدة اليوم الأدبي المثير للجدل .. لقد كان الملحق متقدماً وجريئاً فيما يطرح ، وفيه الكثير مما يفرى بالقراءة والمتابعة تقربت من مشرى أريده صديقاً وكان يتهرب من هذا القاسم من مكان مجهول ، ثم صرنا أصدقاء متلازمين .. كنت أذهب إلى المستشفى ساعات (الليلة) الغسيل الكلى وأجلس بجواره أقرأ وبمه يركض في أوجية تلك الآلة ، أو اواصل القراءة وهو مصمغ حتى يرهق .. صرنا قريبين .. قرأت معه نشئة (هكذا تكلم زراشت) . كان مشرى ينتشى بكلمات نشئة القوية ، كنت أحس بوقعها عليه . أعجب (بالسويرمان) الذي رسمه نيتشه .. لقد كان مشرى " سويرمان " زمانه فلم يعلن استسلامه لمرض السكر .. فقد كان ينقش عن جسمه ذلك الوهن الذي يبيته السكر في عظامه ويأخذ قلمه ويكتب .. يواصل الكتابة دون كلل أو ملل .. إذا أراد أن يسترخى أخذ الفراشة وراح يرسم ، فقد كان موهبة أيضاً في الرسم .. وإذا أراد أن يروح عن نفسه بعض السلام وعن أصبغائه تناول العود وعزف .. إنه في عناده وتعدد مواهبه أشبه مايكوكين بالشاعر الروسي المتمرد ليرمنتوف الذي قيل عنه : " لو لم يكن شاعراً لكان رساماً ولو لم يكن رساماً لكان عازفاً " . كان مشرى شديد الشبه بالشاعر ويبطل روايته الرائدة بطل من هذا الزمان (بولتشرين)

قاوم مشرى بعناد السويرمان مرض السكر والفقد الذي تواصل حتى غيبه عنا مبكراً .. قاوم فقدان البصر " الإعاقة القاسية التي حالت بينه وبين القراءة والرسم ، وفقدان التوازن وفقدان الكلى ، وأخيراً فقد الساقين ، لكنه لم يفقد القدرة على الكتابة وعلى رسم الابتسامة وهو في قمة الألم .. يكفي أن أورد مثلاً على روحه القوية : لقد ذهبت إليه في المستشفى لمساعدة أخيه الأصغر عبد الرحمن أسندناه معاً للتهوؤ من مرقدته فالألم مازال ناشباً في عظمة الساق المتبورة للتو .. كان يساق واحدة .. ارتخيت لأبحث عن حذائه فطعن قلبي بمزحة دامية قائلاً وهو يضحك :

يا صاحبي لاتزمني الآن إلا فردة حذاء واحدة.



وشم الذاكرة

عزيزة فتح الله

انضمت مريم إلى حلقة أصدقاء أبو قحطان الذين تعولوا عليها معه دائماً وفي أى سفرة حتى أنه إذا لم تحضر - لأى سبب - الكل يقول له يا أبا الأمة أين أمها ، أو البعض يقولون أين نصفك الثاني .. على ذكر أبو الأمة ، هذا اللقب أطلقه على أبو قحطان عبد العزيز مشرى رحمه الله الإنسان الكاتب والروائي والرسام الجميل الذي أحبته مريم وأحبها دون أن يريا بعضهما سوى مايسمعه عنها وتسمعه عنه . والمكالمات الهاتفية التي تكررت بينهما ، حيث جاء فى يوم أبو قحطان إلى سوريا . ورأته مريم منشغلاً بالمكالمات الخارجية (إلى جدة) . فسألته عن من تسال والدموع تقمر عينه فحكى لها أنه يكلم صديقاً له اسمه عبد العزيز مشرى صاحب قصص وروايات كثيرة وجميلة . وهو الآن (آنذاك) سيخرج من المستشفى بعد أن قطع له الأطباء قدمه لأنه مريض بالسكر وأصيبت بالفغرينا . ولم ينفع العلاج سوى ببتز القدم وكان قبل ذلك قد بتر ابهامه الشمال ، ونظراً لأنه كان يحب الضحك والتحكيت فقد كان يقول لأصدقائه إن الله انتقم منه فى إصبعه لأنه يعزف بها على العود .. وقد كلمته مريم أول مرة لتطمئن على صحته بعد أن طلع من المستشفى ومن هناك بدأ التعارف ، كم أحبته لأنه كان مرحاً فى الكلام ويتقن اللهجتين السورية والمصرية ، وقد عرفت منه أنه كان متزوجاً من مصرية ، ولم يوفقا فانتفقا على الانفصال ، وظل يصرف عليها حتى تزوجت .. عرفت مريم أن عبد العزيز الذى أطلقت عليه بعد ذلك اسم ابن السروى .. أصيب فى سن مبكرة بمرض السكر (١٦ سنة) وكان قد كافح وتعلم وحارب المرض الذى تمكن منه لكن دون جدوى .

وتتذكر مريم أنها ذهبت إلى الهيئة العامة للكتاب (بمصر) لتبحث عن رواية (صالحة) وتمكنت من ذلك بعد مجهود ثم أرسلت مايزيد على خمسين نسخة من زوجها إليه فى جدة وعندما وصلت أرسل لها نسخة عليها إهدائه لها ، مازالت عباراته راسخة فى ذهنها حتى الآن . (إلى العزيزة الغالية أمز الله لقاءك وأسعدك ودامت

لك الصحة والعافية وإننى أعزك حتى تتدمج البحار من المحيط إلى الخليج ..) .

أحبته رغم أنها لم تره سوى فى الصور لكن صوته وعباراته الساحرة مازالت تردّد فى أذنها وخصوصاً عندما ينادى المرأة يا أمى .. تكررت المكالمات وكل مرة يعدّها بأن يزورها فى مصر أو سوريا . لكن ظروفه المرضية لم تسمح ، وكل مرة يزيد الاشتياق إلى لقاء لم يتم .. أثر المرض كثيراً على ابن السروى الكاتب الجميل الذى كانت معظم رواياته وقصصه تتكلم عن ارتباطه بالقرية والديار .. فقد عبد العزيز رجله الأولى بالفرغرينا التى انتشرت فى رجليه حتى أولت ببتير الثانية وضعف بصره وكان كلما كلمته مريم لتطمئن هى عليه . وكذلك أصدقاءه الذين كانوا يزورونه فى المستشفى بعد كل عملية (حيث إنه تعرض لعدة عمليات) يسألهم هو عن أحوالهم ويكتهم هم المرضى وهو الزائر ، إنه فعلاً جبل قوم صنام يتصدى لجميع العواصف (الأمراض) . ومع ذلك استمر فى الكتابة والإبداع رغم البصر الذى ضعف كثيراً مؤخراً فقد كان ابن السروى رمزاً من رموز الثقافة العربية .

وكانت مريم تقرأ العمود الذى كان يكتبه تحت عنوان (تلويحة) بجريدة الجزيرة ، كان محباً لأصدقائه لا يتردد فى مهاذلتهم رغم مرضه وكان يبدى إعجابه بالآخرين وكانت كتاباته مرآته . إذا حدثت فيها سجده يتكشف همه وأفراحه وأحزانه وكان يملك روحاً جميلة جعلت جسده عاصياً على السقوط .

نظراً لأن أب الأمة (أبو قحطان) كما كان يطلق عليه المرضى كان يجب هذا الأخير ويريد استمراره فى الإنتاج والإبداع الأدبى ، فقد اقترح استخدام ممرضة وفى نفس الوقت تقرأ وتكتب له . نظراً لضعف بصره مؤخراً . وكذلك بعد أن أجرى عملية زرع كلية لأنه تعب من الفسيل اليومى . إذ أنه لم يعد يقدر على الحركة دون كرسي متحرك أو مساعدة الآخرين ، ومشاكل الضغط فقد كان يحمل فى داخله أمراض كثيرة وكانته مستشفى متحرك ، مع ذلك كان يقاوم ويتصدى لجميع الرياح .

وافق على رأى أبو قحطان الذى رشح له أخت مريم التى حضرت من المغرب إلى السعودية (جدة) كى تمرضه وتقرأ له .. تمعلت علاقة مشرى بمريم وكثرت المكالمات بينهما خصوصاً عندما أصبحت أختها فوزية عنده . تجددت معنوياته التى لم يفقد يوماً . وواصل الإبداع والكتابة رغم ذلك ، وظلت الزهرة تبحث عن أنية وتلوح منها الرائحة الجميلة متشبّعة بالفنم حتى جاءت ربيع قوية لتسقطها . فالمرضى كان هو هذه الزهرة حيث كان يتصدى لجميع الأمراض ويقاومها ، وفى كل مرة يدخل المستشفى يطالع منه ليعود إليه مرة أخرى وكان دائماً يقول إن (الموت لم يقدر عليه مرة واحدة فهو يأخذه بالتكرير) دق الجرس وحانت الساعة التى ودعت الساحة الأدبية فيها ذلك الجميل .

تحدثى فوزية (أخت مريم) ممرضة عبد العزيز التى قضت معه سنة تقريباً . أنه عندما كان يرتفع ضغطه أو يمرض يذهب إلى المستشفى ويرجع ثانى يوم ، وهو منتصر على المرض وفى آخر مرة ذهب وهو يقول لفوزية (فائزة جهزى الأوراق واللقم فلأنا راجع لأكمل قصة الفزول) ثم ذهب ولكنه لم يكن يعرف أن المرض هذه المرة سيهزمه ويتنصر عليه ليجمع محمولاً إلى قبره رحمه الله تعالى . ليرحل عنهم ابن السروى بعد صراع طويل مع المرض . وذلك فى آخر ربيع سنة ٢٠٠٠ تلقت مريم وأبو قحطان الخبر - وكانا فى الإسكندرية - مثل الساعة لم يتوقعا رحيله المفاجئ رغم المرض لأنه لم يشعرهما يوماً أنه مريض . بعد وفاته اتصلت مريم بأختها تعزياً وكذلك بـ محمد شقيق عبد العزيز الذى كان ابن السروى بمثابة أب له . وكذلك اتصلت بفوزية زوجة على الدمينى صديقه الأقرب له ابن قريته .. وقد بدأ جميع الأصدقاء يعزّون بعضهم البعض رحمه الله



شئى .. تلويحة ليست أخيرة ..!

أحمد الدويحس

أذرع الآن - ياسيدى بياض الذاكرة ، وسطور الورق والمسافات معاً ، أنقب وفى ثيابى ، شئ يقايا من (ريح الكادى) ، رسمت لوحة من حروف قصيدة ، كتبها وأبقاها معلقة فوق رأسى ، شاعر نحيل (جنوبى) ، وجميل جمال (الذخن) ، مثل ماكنت تريد أن تصف الصديق المشترك (المرحى) ، ولتوصى برسالة لم أسمع تفاصيلها ، فقد ظلت فى شواطئ حلم (موت على الماء) السريالية ، ومن غراب الزمن الراهن ومجانبه (المغزولة) ، والأمكنة يابن (السرى) المعتبة بعرض الوطن ، وقد صارت غير (صالحة) ، لأخط إليك حروفي بهذه السرعة ..!

أكتب إليك - سيدى بهذا الخفق العاطفى ، دون رغبة ، فقد تجاوزنا منعطف البكاء ، ومتعته أحياناً ، فليس مهماً الآن ، سرد التحولات الذاتية فى مواجهة ما يحدث ، كنت أريد أن أبلغك ، كيف كان وقع حضور بهائك العظيم بين الشباب هناك ، حيث (الغيوم ومنايت الشجر) فى أمسية قصصية بنادى الباحة الأدبى ، حيث (أعلى جبال (السروات) ، المسمى عليها من (كمال الصليبي) ، بثها مهد نزول التوراة ، وأنت سيد القرى ونخبها الحقيقى ، وتعرف رؤية السياج الحديدى ، والحرس القديم لكل من يخالفهم وأنت أولهم ، والصفات التى يصفونها بها ، على كل حال ، ماكنت فى سيرة الأمكنة ، وأنت خير من أرخ لها ، ورسم عوالمها وفضاء القرى ، تعرضت أمس لسؤال ، حول هوية المكان فى النص السردى ، ولأنه لم يعد بالذاكرة ، وقد تجاوزنا فى رائي تشخيص وخصائص جغرافيا المكان ، لوطن كل ما فيه صحراء ، وجبال ، ومساجد ، وشوارع ، وسجون ، ومدارس ، ومستشفيات ، وأودية ، دون أن تمحى من ذاكرتى ملامح المكان البكر ، وقد أبقته مشعاً عبر سرد ، لم ينهض به ويقوم غيرك ، فكان لابد أن أتحدث فى هذا الزمن الغير (صالح) عن أسطورة المكان ، ومن غير (بليس) بطلتى وحبيبة نصى ، أجوس بها هذا العالم ، خوفاً من حمم طائفة أمريكية ، تقودها مجندة معلقة فى السماء ، ويبتى تحاورنى عن حالة متوقعة ، تصيبها لو قادت سيارة على الأرض...!

سيدى - أيها الجنوبي ، أتذكر وأنا فى عالم الأساطير والخوف والمؤامرات ، أن فى البال (جنوبيين) آخر ، موت مؤلف رواية (الطوق والأسورة) فى حادثة سيارة ، تماماً كحادثة موت الشاعر (التهامى) ، ولم أرته فى هذا الزمن المخائل ، كرتاء الشاعر صاحب قصيدة (لاتصالح) بقوله ..

ليت (أسماء) تعرف أن أباهما صعد

لم يموت

هل يموت الذى كان يحيى

كلن الحياة أبد !

وكان الشراب نفاذ ! وكان البنات الجميلات يمشين فوق الزبد!

عاش منتصباً ، بينما

ينحنى القلب يبحث عما فقد ..

صار الصلح أمراً واقعاً مؤلماً ، وسرقة التراث والآثار والمتاحف ، وحضارة الأمة والإنسان ، تتم جهاراً نهاراً بحماية قوة (المارينز) الأمريكى ، فربما سرقوا سر الخلطة لوجبتنا الغذائية الشهيرة (الكبسة) ، فلن يكتفوا بسرقة (البترول) والنكته المصرية ، وكناتها جزء مهم من ثقافتهم ، ولم يبق للجنوبى الثالث ، وقد رأيته قريباً على شاشة التلفاز ، يبكى على ما يحدث فى العراق ، وقد صار الاحتلال واقعاً مؤلماً أيضاً ..

أهنا ياسيدى - ومعل أنت وهم ، الشاعر التهامى (المرجى) ، الفتى الجنوبي النحيل ، رحل فى غظة من زماننا (المغزول) ، وأبقى لنا قبل رحيله رمزين جميلين ، هما (طلال - وعبد العزيز) ، الأول فناننا الكبير طلال مداح ، والآخر يتأمل بأن يكون فيه شيئاً من أسمك ..

سيدى - بى جملة من التذاتعات تتوزعنى ، فالإنسان فى مثل هذه المعالة ، يريد أن يشير إليك (بتلويحة) ، بغض النظر عن مضمونها ، ولابأس أن تصبح المسألة مجرد ركام ، فكلن أن جسدك النحيل ، قادر على تحمل مثل هذه الشملحات ، وقد تحمل مشارط الأطباء ، لدرجة أن أحد المستشفيات العالمية ، يفكر فى زمن العولة والقدرة على (الاستئساخ) ، دراسة قدرة احتمال جسدك الخارقة لكل الأمراض والمتاعب ، وهم لا يعرفون أن الروح الفياضة بالحب والمودة ، وفيها دائماً (زهور تبثت عن أنية) ، لتخفى أوجاعها عن الأحباب والأصدقاء ، وإن أنسى ماحييت ، اللحظة التى عدت فيها من أمريكا ، فكشفت فيها أحدهم غطاءك الطبى ، فأغضى عليه إذ عرف أنهم بتروا قدميك فىكى طويلاً ، ويكى مثله ناقد لاتعرفه مثل مايعرفك ، وهذا مالا كنت أود أن أتعرض له ، الحالة الثقافية وليس حالة البكاء ، هذا الناقد ياسيدى هو د/ أحمد قطريه ، رجل سورى عاش فى أمريكا عشرين عاماً متصلة ، يدرس الأدب والفنون العربية ، فوقع بين يديه نص لك ، فذكره نصك ياسيدى القرى ، بقرينه المشابهة لكل قرأنا العربية بعد عشرين عاماً ، فعاد ليجد قرينه تلك ولم يجدك ، ففاض به الانفعال والبكاء بيننا فى منتدى السرد ، وتقطع صوته بالبكاء ، وهو يطالب بتكريس نصوصك فى المدارس والجامعات ، وخرجت منه الكلمات صابقة وحميمية حينما قال :

- (نصوص المشرى خلاصة من الفن المنحوت والمنحوك والمصقول من المشاعر والعذابات الإنسانية ، لم أجد فى رهاقتها بكل اللغات التى قرأت بها ، هزنتى كلماته أنا ابن دمشق ، وهو أين الجنوب !!)

كنت أريد أن أحدثك عن (أحوال الديار) ، كنت أريد أن أحدثك عن (مليحة الغنم وموت الصمطة) ، فقد أخذننى عبد الله بن وأفية ابن قريبك إلى ساحة بيتكم ، فرأيتهما واقفة منتصبية ، تتحدى عجائب هذا الزمن ،

المغزول

آخر روايات عبد العزيز مشرى

من هذه البوابة الواسعة على فكيها ، وعبر المساحة المرتقة ببقع زراعية مهندسة الأحواض ، ومجينا إلى المدخل الطويل اللامع .. دخل « زاهر » على كرسي العجلات ، مدفوعاً إلى الأمام بيدين تعودتا أن تمشيا يرتابة ، لاتعنى بشئ سوى برقم الغرفة فى الطابق الثالث ، حيث سيودع فى سريره داخل حوض الكرسي ، وكان يتألم من جرح جديد ، لم يكن للألوية المضادة « والعسل » تأثير ببعض الالتئام .
جاء بقدّم صناعية من الركبة إلى موضع الأصابع ، كان قد أجرى بترها بالضبط .. قبل اثني عشر قرماً شهرياً ، يتقص قليلاً أو يزيد .

و ..
اليوم جاء بجرح آخر .. لايدرى كيف سيتخذ الطبيب معه رأياً ، وبالطبع جرى له مقلما يجرى فى هذه الاعتياديات وقت دخول المستشفيات :
ضبط موازين السكر ، والضغط الدموى ، وتحص أعضاء البدن ، مع قراءة أسماء وجعرات الألوية المصطحبة مع المريض .
كان ذات الطبيب الذى قضى رأيه فى بتر القدم اليمنى قبل عام .. هو الذى دخل اليوم ، وكان عليه أن يبنى قراره بعد المشاهدة الأولى ، والذى لايحتاج فيه إلى من يعاونه عليه .. نعم ، ومن غير تردد قال :

- الأمر ، لايحتاج إلى تأخير .. هيئ نفسك للعملية ، بعد يومين من الآن .

- عملية ماذا يا .. دكتور ؟

- عملية ، بتر القدم من أعلى الساق .

- ولكن .. هذا ، لم يكن متوقعا يادكتور !

شئ من تلك الرجفات الحامضة .. تلك التى تجعل طعم الدم المختلط بالملوحة ، يطغى على اللسان ، ويجعل البدن فى حومة مفاجئة يتضاعف معها النبض ، ليس لتهيؤ « زاهر » عندما أى احتياط أو توقع ، غير أن الإنسان وقتما تحيط به واقعة .. واقعة لم تكن له على بال ، فاته لحظتها وبدون أى تردد .. تتوقف كل جوارحه ، بكل شعيرات دمه الباقية والغليظة .. كلها مع تاريخه وإمكانياته وطقوس تصورات ، للتركيز المكثف فى هيئة الخروج مما يسميه بالورطة التى يقع فى أم حالتها ، إنه لحظتها يحتاج إلى فعل ، اسمه عامل الزمن .. الوقت هو الأمر الوحيد اللائق ، لى يرتب قراراته العجلى بترئث ، إذ لايلبث أن يستومئها ، ثم يضع يده على أقرب الوسائل حالاً ! ..

* المغزول تعنى « المجنون » فى بعض اللهجات .

نعم ..
عليه أن يتوَقَّع قرار الطبيب الذي أضاف مؤكداً :
- تستطيع أن تفكر .. لديك يومان .

...!
- ليس في الصالح أن تتأخر .. الفيروس سيدخل عبر الدم ، وسيفتك بالقلب .. وبقية أجهزة الجسم .
- ولكن ، يانكتور ، ليس من حل آخر ؟!

...
صحيح أنه ليس صعباً ، بعد أن تصاحب مع حالته ورأى قدرته الطبيعية ، في المزاوجة بين قدم صناعية ،
وأخرى سليمة .. غير أن الأمر يبدو صعباً إلى ما هو خارج التصور .. الآن ، إذا ماتخيل أن رجله صناعيتان ..
كيف يستطيع أن يتحرك بهما ، أو يضمهما على الأرض ! وعلى أي حال .. فهو لم يكن خائفاً من فقد القدم ، أو
غياب هذا العضو المتحرك إلى الأبد ، وإنما خوفاً من حدوث العجز (هل أتى على الإنسان ظرف نهائى .. رأى
فيه نفسه وكيف يذهب لقضاء حاجته محمولاً)!

الليلة ..

بقيت الوحيدة في حياته التي سينام فيها بقدمه ، الثامنة في صباح الغد ، وفي وعى غائب .. متوقف وقوف
الساعة التي تعمل أجهزتها دون عقارب .. سيكون الطبيب قد ارتدى ومساعدوه القفازات والألثة ، ليضمو
سكائكنهم حيث خط البتر المحدد ، فيكون « زاهر » مثل تلك الحشرات السوداء الصغيرة التي كانوا يقطعون
أطرافها في القرية ، وهم صفار ، يتسلون بتعذيبها .. فلا يستطيع الزحف أو الانقلاب على بطنها .
وماذا بعد أن وضع توقيعه المتشعب موافقا يكامل عقله وتصرفه على الإجراء ؟ إنها الموافقة ، ليس دونها
بعد الإضماء تريد ..

لم يشأ أن يصبح خلف عدد من الساعات ، بلا قائمتين .. ويطوع موافقته ، جرح لم يكتب له النواء شفاء ،
فجأة سيصبح متنازلاً عن الرجل يكاملها .
قال ، إنه لن يدخل في الباكر خوف غرفة العمليات ، ورأى ألا يفعل .. فكتب طلباً بالخروج من المستشفى ،
و .. خرج كأنما أنتصر في قتال بينه وبين نفسه .

اقترح صديق لـ « زاهر » أن يسافر إلى خارج البلد ، لاستشفاء وراء الصنود البحرية البعيدة « زاهر » لا يحب
الأسفار البعيدة بقصد السياحة ، فكيف إن كانت بقصد العلاج ! لكنه لم يدخل تأملات خاطره في الشأن الذي
لا يقبل تأجيلاً بعد مدة التلّص .

أعد نيته مع مرافقه نحو السفر ، وكانت مدة طويلة تضيى وهو على مقعد الطائرة حيث لا وقت ولا مكان لغير
وجهة العلاج التي نواها ، وكان يشكل أنواعاً في أوضاع جلسته .. لم يدخن ، جاءت طلائع الفجر تطل على
أرض المكان الذي سيتلقف هيكل الطائرة ، وحدث قليل من الصخب بين الركاب الذين كانوا طيلة الرحلة مغمورين
بالصمت الثقيل والنماس ، إلا أصوات متقاطعة من أطفال تغيرت عليهم أماكن النوم ، امتزجت بقراءة طويلة من
القرآن الكريم ، انفعل في تلاوتها رجل حليق الرأس .. بثوب أبيض قصير .
الوقت يتسلخ دون إنذار من طرف الليل الأخير .. ويصب ضوياً ملجأ على الأرض المزروعة من أطرافها
بالشجر والأخضرار .

لم يكن « زاهر » منشغلاً بقراءة الموقع الجديد عليه ، ولديه محصلة ثقيلة عن الحياة الاستهلاكية في مصدرها
الأول .. لذلك .. فقد كان من الصعب على المرء في مثل هذا الحال ، أن يكون إناء للاندماش من الأشياء
الجديدة لأول مرة ، ربما لا يكون محصناً بمعرفة سابقة ، لسبب يومه كثيراً .. ذلك هو حرمانه من الدهشة

الثقافية ، وعلى أي حال .. فقد صابغها في فتافيت الحياة ، وكان أيسرها النظام الثقافى الذى يتحرك به البشر فى أعمالهم .

الأشياء تكاد تغيب من البال ، ويبقى نوع من الإلحاح على شئ بعيد ، أو على الأقل فى تلك الحالات الأولى لمضى البعد الجغرافى نفسياً .

بقى وجهها الأليف على حافة الذاكرة وكانت قبل سفره ألصق بدافع رغبة الأمانة . أن تكون مرافقته ، غير أن « زاهر » يعلم أن الأمانة جميلة أحياناً ، وأنها ليست خالية من الشعور بأنفسه المستحب ، والذي يجب أن يكون مستحباً حتى ولو اكتشفت أنها مجرد أمنية .

الأمر لا يتعلق بكون امرأة ما .. تقاسمت معه بعض طيب اللحظات أو شاطرته هم الانقسامات المرة فى جفاف صحراء الحياة .. لا ، وإنما لحوزتها على مقومات يجد فيها مايملأ ثغرة فى حياته بصيف التبادل ، مهما كان الوضع .. فقد أحس حاجة إلى الاحتفاظ بصورتها فى حقيقته ، وحين تذكر أنها بين أوراق الهامة ، فرح وصمت ومرافق « زاهر » نادر الحديث ، وعادة ما يجادل الأمور فى داخله دون أن يشارك بها من يجالسه ، أو يضرب معه سفرأ بعيداً ، وهذا أمر يفيض بمرارة وكبد « زاهر » ومع أن الأخير يعلم مقدار التلازم الحذر بينهما . لقد بقيا لساعات فى صالة المطار ، فكانا يبذران بصرهما نحو المارين يميناً وشمالاً .. حتى داهمهما الملل ، وكان الشباب من الجنسين يحملون حقائبهم البسيطة على اكتافهم وينثرون فقاعات ضحكاتهم حول خطواتهم الفرحة .. بين كل موجة ملل وأختها .. كان المرافق الذى بدأ ذرعاً ، يذهب إلى الموظفة المسئولة .. يسأل عن موعد الرحلة التى سيظيران عليها إلى مدينة « لينقر » بولاية « كورادو » وجاء وقت النداء .. حيث استعد « زاهر » لوضع جسده داخل حوض الكرسي المتحرك .

الوقت يتقسع يكامل ساعاته الأربع ، التى تحتشد بالثواني الرصاصية الثقيلة ، وأحس مريضنا بأنه غريب .. لم يحدث مرافقة بذلك ، أخذ مجلة من الجيب الأمامى لمقعد ، وراح يتقصفها ببطء وبقية .. كان يبدو أنه يقرأها ، لكنه كان بعيداً بعد الاستئصال ، إذ تتراقص السطور بحروفها الإنجليزية الصغيرة . سيؤخذ ثوباً إلى المستشفى ، وسيبدل إلى غرفته المعدة ، والطبيب المختص .. قال الطبيب بقم مزموه وكلام سريع ، إن وضع الجرح لا يطمئن ، وأن حالته تخالف ما كنت أتوقع .. (كان قد أبدى فكرة محاولة تيسير النورة الدموية فى الجرح قبل أن يشاهده) .

بعد خلع « كوتة » الأبيض الطويل واستئصال جهاز تضخيم النبض .. اقترب من القدم ، وسلط مركز القراءة فى اتجاه مسار الدم نحو الجرح ، فكانت القراءة تختفى كلما اتجهت إلى الكعب .. وكانت علامات غير مرضية تبان فى تقاسيم وجهه .. مالبت بعدها أن فضع مقدار سؤبه وغياب رضاه .. قال ، إن الجرح قد مضى عليه وقت بعيد لا يمكن الترتيق ، والأمر يستوجب عملية البتر !

— البتر .. أهذا ماتراه يا دكتور !

— للأسف .. بكل تأكيد ، نعم .

قالها بانجليزية مضغوطة .. كأنها يؤكد ، أو يستعجل فى البدء بالجراحة .

حادثة « زاهر » فى كيفية وجود العملية ، وكان يتوقع ألا تكون فى مكان الركبة أو فوق مفصلها .. لأن ذلك سيعنى عدم الحركة فيما بعد . وكان عليه أن يوافق فوراً دون تأخر ففعل .

* * *

الحقيقة التى لا ستار عنها ، أن المرء حين يتناوشه الألم .. فانه لا يفكر فيما هو دونه ، وإذا ماراح يدعى أنه منشغل بأمر آخر .. فانه قد يتخطى مصداقيته .

والحقيقة الأكثر مرارة هى تلك التى يسكن فيها الوضع بفعل ما ، ثم يعود بعد نهاية فعله أشد إيلاماً .

نعم ..

الألم ، كان محيطاً هائلاً بمريضنا ، فحيثما يجاهد فى محاولة تستيره .. إلا أنه يأتى كموج كبير وثقيل ،

فوق ماجاهد فى المرافعة فيه.

اليوم يفجؤه بدنه .. أصبح ثقيلًا كالرصاص ، ولكن .. ألا يمكن أن تكون العادة فى سهولة توفر النواء المسكن .. هى التى أصبحت تشافى الألم !

ليس صحيحا أنها العادة دائماً ، ولو أنه يصنق حد الامتلاء بهذه الأسلوبية .. ربما كانت المسألة جديدة ، على أى مسرى كان .. فقد كان الطبيب يدعمه بالمسكنات الشديدة ، فكان يحاذر أن يتناول من تلك التى حذره منها الأطباء المشرفون على زرع الكلى .. إذا تلتث مع مضى الاستخدام .. أن تهدم ماتم زرعها. لم يتعامل طبيبها الآن مع أى صنف منها ، لكنه أخذ صنفًا له فعل غير محمود فى جوانب جديدة.

مرافقه ، يعلم التفاصيل بدهقتها .. ويعلم مقدرة مريضه على الرفض أو القبول.
لم يعد يعي مريضنا بالذى كان فى غيابه .. يلمس رجله ، فيجها مقلولة بالاربطة ولايستطيع أن يلزم البتر فى وسط الركبة اليسرى..

(يارب الأوجاع ..

لماذا جاء قرار الطبيب فى هذا الموقع العالى ، وهل كان لابد من هذا المكان فى البتر تحديقاً ؟
قل ماتبقى .. ليس إلا مايراه الطبيب .. فماذا تذكر ؛ موسيقى جثائزية ، تتكرر ، كأنها هى بكبر دوران الأرض .. لانتتهى ، ولاتتوقف عند حد ، مئات الجنازير تمر بوسط عينيك .. كثير يبقى منها بذهك لأشخاص فى الغالب ذهبوا محمولين إلى حيث أبدية الدفن ، بعضهم ينتبه فجأة ليحادثك فى شئون لاتعنيك .

أنت فى قبر زجاجى .. لاتحلم طويلا ، إنه قبر أسطواني يفشاك بالأكسجين ، يفتق مسامحك .
هذا لايجعل الأطباء يعفونك من كابوسه .. سيفعلون حلولهم .. أنبوب يغرز بعملية جراحية فى باطن الأذن ، ليس مهما .. تنفس من متفريك أو أذنك أو فمك .. إنك لاتمى ، الحلم طويل يمتد شهراً ، شهراً لاتميه.

يارب الإنسان .. مالى أراهم يجتمعون حول سرى ، وكان الطير على رؤوسهم.
الصوت لايفرج إليهم .. يشع فيختفى ، ومضارب البدوان ، تبدو بعيدة حتى يغمض الطرف ، سليك ه يهزم جواده .. يمضى وهو لايمشى.

يدور فى مكانه حيث تنفرز قوائمه القاذمة فى الغياب ، غياب لم يات خاطره على الإيجاز فيه.
لاترفع صوتك ياه سليك .. ، إنك بلاصوت والمضارب بعيدة كالطيف ، وشاردة بلا حراك .

الموسيقى ترتفع كلما مرت جنازة ، تهدأ حيث تدفن ، والقبر الزجاجى ملفوف كأنبوب مضغوط ، لايسمح بالحركة .. كل الجهات المدورة تحيط بالهى الميت .

رب ..

بأى ذنب تكذب يدى هاتان المرضتان ، لماذا يقطن على حراستى . ألا يسمعن صوتى. المستغيثا ، يا أليفتى الطيبة..

اسمحي لى بالخروج .. أريد أن أدخل من باب بيتنا ، هاهى باب الدار مفتوحة. اقترنى لى تعويذة الدخول بالعربية التى تعلمتها . انظرى ، مو .. سيقى .. لا ، ليست « ميوزيك » لقد زازلت أعصابى .. أطفنى هذا الجهاز السمر فى بلعومى كالمنطاد المخفى .. كلما التقت ، توخرين حقنة طازجة !

اسمعى يا « فينوسى » الصغيرة ، لاتظننى عوا للشر ، واست أبهج الماء الزرقاء .. إنى أجيد الاحترام وأتطلع بلهفة إلى المضارة .. لماذا كل هذا القيد المروع فى يدى ؟

تشير المرضة إلى زميلتها القابلة بعينها .. فتمد يديها نحو مجموعة الأثابيب الملموعة فى وريد الرقبة ، تمسك بأحدها وترفع طرفه نحوها .. ماذا تصنع بداخله ؟ ، سائل تخين بلون عصير الطماطم ، ماذا يعينك . عصير أو زبد أو قش صفائح دموية .. أو خلاصة ثقاء النعاج .. يعينك أنك ترى مايراه الحالم النابه الغائب المختلط بالنعاس الدائم بالفيوية المسترخية فى القلق والخوف والاغراب والهولسة .

قطرات شديدة السرعة والضخامة ، تمر بعجلاتها الحديدية فوق الضلوع .. لا ؛ إنها خيول كثيرة بسنابك

عليها أهلة حديدية .. بل مدافع في فتوحاتهم الإسلامية .. مألوف الخيط ؟ هذا الضجيج الطويل الذي تكثر في تفسيره الخيلات .

تتشاور الممرضة مع زميلتها .. لابد أنهما سيصنعان فلة جديدة . تأخذانه ويتجهان نحو الباب .. يكون في مدخل مظلم ليست له منافذ ، فجأة لا يجد حوله أحداً .. يحتله خوف بعد أن يقضى زمناً لا يعرف له قياساً . يصرخ .. بلا صوت ، لقد انطمس صوته كما انطمس بصره في هذه البئر الأفقية المظلمة .. لاهية في الصوت ، لاهية لآية حركة من أحد .

ليل يعمق بخان أسود لا يعرف مصدره .. هدوء .. هدوء قاتل ، يسمع فيه أنفاس السرير المضغوط باكياس الهواء .. هل هو نفس شخص آخر يراه ، لم يعد يهمه .. الصعوبة في معرفة نهاية الزمن المظلم الذي يقع في عمق لفاقته السوداء !

دون اتباع لما مضى .. يرى أنه في زنزانة مخنوقة بضيق مساحتها .. يا .. هلوسة ، صديق قديم يتكلم معه ، لا يرى غير رأسه المشعث .. إنه لا يحادثه .. بل يقرأ قصيدة طويلة يجادل في معانيها الزمن ، هذا ما يشكوه الآن .. الزمن ، يرجوه لو يخرج من هذا العمق الأسود .. فيجيبه أنها في زنزانة .. لا يديران ماضي تهمتهما .. هلوسة !

لعل السجان يفهم .. ألم يسمع القصيدة ؟ بالعربية الفصحى كانت .. لا ، إنه لا يفهم العربية ولا الإنجليزية التي يمكنهما التحدث بها عن معانيهما ماذا يفهم ، وبأي لغة يتحدث .. هيئته تقول إنه من الهند ، جنيل .. يعنى ، من بلاد " المهاتما غاندى " لابد أنه قد عانى اختناقاً ما ، ولكن لماذا لا يخاطبنا بالإنجليزية ؟ ، انظر إنه يضع على عينيه نظارة باطار دائري نحيف ، رأسه طليق وأطرافه نحيلة وقوية مثلما الذي يتحدث الجيوش البريطانية في شعاب القرى الهندية الفقيرة .. انظر ، إنه يخيفهم بحزمه وصلابة عزمه .

يارافيق ..
مالنا ولهذا السينما التي نسمع هدير أصوات مغليها ولا تراها .. لا يتكلم .. لعله يعمل حسيماً يقتضيه عمله ، ربما أوصوه بإغلاق فمه .

أصوات متداخلة لمعثة معروفة ، تتقاطض مع رجل له صوت ضخم حول تجارة المخدرات !
صوت سلسلة غليظة الحلقات ، ترتطم فوق صلاية الأرض ،
شاحنة عسكرية ، تحمل جنوداً يرقعون بنائقهم ، ويهتفون بحدّة « قرى نوبم .. نوبم .. نوبم ، نوبم » ماعلاقة هذا .. إننا في زنزانة تضيق بانفاسنا !

ليل طويل .. أطول مما يضيق بالإنسان انتظار نهاية الزمن .
حقن برفوس طويلة خوازيق .. سواطير عليها بقع دم غامق يابسة ، قطط كثيرة مقطعة من رقابها .. خوذ تما لا الفضأ ..

صوت « فيروز » ينبعث من صحراء بعيدة « راحوا يروا غنمهم .. والعشب على ضلوعى » يقطع الصوت ، عيناه تدمعان .. فيه باب مهجور .. أهله منسيين ، عيناه .. ما الجديد ، لاصوت ، لاقدره على الحركة .. لانفاذة .. لاضوء ، الماء محظور ، منذ زمن لا ينكره « قالوا لى إبنى عشقان » و « أثارى الصبح عالى » ، تذكر أنه لا يستسلم .. لماذا يشكو .. أصعب الشكوى تلك التي تكون من الذات وإليها .
قالت « صغفرو الشجن » من غير غناء « أصعب اللحظات تلك التي تتذكر فيها ماضى السعادة وأنت في شقاء » .

مرة أخرى ..
يقاد إلى ماكينة الفسيل الدموى .. ممرضة طبية من « مصر » .. تقدم له كوب شاي بلا سكر « بقى على انتهاء مدة الفسيل ساعة ونصف فقط » ، من أدخله هذه التقصيلة .. إنه في وحدة الكلية الصناعية بمدينة جدة ..

هذا الدكتور « فيصل » .. لم يتكلم .. مر سريعاً نحو العيادة ، طبيب آخر لا يعرفه ، يؤكد له أن رجله المبتورة خالية من « السرطان » وأن اتصاله بالطبيب في « أمريكا » مستمر ومثمر ، حظك من السماء ياوزير .

مرافق يتذمر « طلعت الشيب بصلعتي » .

قناة تتسج مع أحدهم غزلاً قاضحاً وتدخله السبي .

ستارة ثقيلة تهتز ، يتراعى من خلفها أسد طويل القوائم قرفوع الذيل .. سيهجم على امرأة في الحمام ، تحاول أن تبحث عن شيء تستتر به .. تضع نراعياها على صدرها .. تنظر إلى مكان قدميها ، بشفة ملمومة .. كأنما تقول شيئاً غير مسموع .

كيف تتحول اللوحات إلى موسيقى عالية .. أسمع .. فقط انصت ، هذا الخط الأرجواني العريض ، ليست له نهاية ولايمكنك أن تعرف بدايته .. موسيقى .. موسيقى .. ألوان ، رائحة زيت .. فرش تتقاذف قرب اللوحة ، كتب باغلة أنيقة وخطوط بدائية .. رجال عري الصنور شواريهم طويلة وأذانهم قصيرة .. يرسمون أشكالا فاتنة .. الله ، موسيقى جميلة غير تلك المكرونة ، تتوقف .. يصبح الرجال ، لا يدرون من أين كانت تأتي .. صوت جرس التليفون .

— من على الهاتف ؟

— صديقك فلان ، أرفع صوتك .. لاأكاد أسمع .

— أنا بخير .. بخير ، لن أموت .

— كم الساعة عندهم ؟

— .. المسرحية طويلة

— كم الساعة ؟

— هذا الرقم .. أحفظه ، قل له أو لزوجتي إنني أنتظر هنا .. لا أعرف أحداً ، مقفل ، أنا بالداخل ..

تسمعي .. ألو ؟

— أرفع صوتك .. كم الساعة ؟

صوت جرس التليفون مرة أخرى .. باب يفتح .. تزعق مفصلاته ، لايدخل أحد . موسيقى مكرونة .. جنازينة ، لاتبكي على شيء .. وجهها الأليف محيطة به « شيلة » خفيفة ، لماذا تدمع عينها ولا تتكلم .. لابد أنني قد مت وأنا لا أعلم .

موت ! لا أرغب في مفارقة الحياة الآن .. ليكن في القد ، أريد أن أودع أصدقائي .. الناس .. كلهم أغزاء وليس من الفضيلة ألا أراهم .. الزهور وجدت قبلنا بثلاثمائة مليون عام ، « هيدى ، هلا .. مش ضريبة .. » يدك ملطش وستجرتين ، يقاطركم ! ليل طويل .

كان المرافق قد بحث حتى حفى عن « نارجيلة » وكان يدفن كل حواسه داخل غرفة بأحد الفنادق . لقد ضاق .. حالة مريضة غير مستوعبة ، والأطباء لاينبتون بخير طبيب ، اللغة لايتقن الحديث بها ، تضيق به الدنيا ، فيذهب إلى المريض ، يخرج من عنده نون أمل في لقاء آخر .. يدخل غرفته بالفندق ، يدخن نارجيلته ويتذكر « نفخ الأراجيل سام » .

لم يكن ليتصور أن السفر إلى أمريكا .. سيجعله وحيداً متعزلاً ، أو أنها ستدعيه إلى تدخين « النارجيلة » مثلما كان يفعل في أوقات الفراغ والسأم . إذا به يرى أن السأم يلقى في البلاد التي لايجد المزة له فيها مايشغله ، بل وفي نفخ النارجيلة ، وحينها تطول به الحال .

ويتنفس في تأملاته .. يجد أن السبب قد لا يكون محصوراً في إيقاع الحياة بالمكان الذي يعيش فيه مؤقتاً .. فهو لم يفكر .. يستطيع أن يذهب إلى أماكن عدة لا يجدها في بلده ، غير أن مشكلته اللغة ، وعدم توفر صديق أو مرافق ما .. ينتقده عدم القدرة على التجوال .. أيضاً فان طبيعة التريث والسكون .. ومعرفته المسبقة

المسيطرة على ذهنه عن العالم البعيد الذى اسمه « أمريكا » .. أن تصنع منه سوى السكون وتقضية الوقت بأى وضع كان .. فكان يسمى ويصبح فى الفندق ، لولا خروجه إلى مريضه ، أو قضاء حاجياته من الطعام أو .. الشراب.

لقد نفقت سماعته المقلقة بين أمل قريب وترقب مفاجئ ، مريضه فى تذبذب الحال ، والحال بالرصد المتسلسل عبر زياراته اليومية ، لاتقريب عن مذكراته .. فيكتب و .. يكتب :

فى يوم الخميس الموافق ١٩٩٧/٨/١٤ ميلادية الساعة ١٢ر٣٠ ظهرأ بتوقيت « كلورانس بأمريكا » بترت الساق اليسرى وكان الالتهاب شديداً لدرجة الموت لو طالت المدة .»

فى يوم الاثنين الموافق ٨/١٩ الساعة الخامسة صباحاً ، ضيق شديد فى النفس واتضح أن هناك التهاباً رئوياً فذهب إلى العناية المركزة بالمستشفى ، والحالة غير مطمئنة ، لاسيما أن هناك عدة مشاكل أهمها زراعة الكلى مع المضادات الحيوية ، نأمل أن تنتهى على خير .

فى يوم الثلاثاء ٨/٢٠ لازالت الحالة كما هى فى السابق ، لكن الحالة مستقرة (والحمد لله) نأمل أن يكون أفضل ، الساعة الآن ٦ر٢٠ مساءً فى الغرفة ، الطفش + الوحدة + طلال مداح + الشيشة.

قد لا يكون لى الحق فى الكتابة بهذه المفكرة ، لكن لا أجد من أحدثه وه للوزير طقوسه الخاصة ، الله كم اشتاق إليه أن يكون هناك قدرة إلهية للجلوس معه وكسر هذه الوحدة . ولكن لاعزاء ولا مفر.

اليوم الأربعاء.

الحالة أحسن بقدر ١٥٪ عن أمس ونأمل أن يكون إلى الأمام (إن شاء الله) مازال بالعناية المركزة ، المنظر مغزى نفسياً ، وممقن للداخل ، ولوراء أحد لرمى بتعزية من غير رجعة وغير تردد ، ولأننى مازلت متفائلاً وعندى حدس داخلى بأنه بغير رغم كل الأراجاع.

الخميس

الحالة سيئة عن أمس ، وجود استسقاء بالجسم ، أربعة مضادات حيوية ، التنفس مازال سيئاً ، أخذوا عينة من الرئة + منظار + مزرة لكل من البول ، والدم والحالة غير مطمئنة مع وجود شبه غيبوية ، قد تكون من جراء الأدوية ، لا أعرف بالضبط ، وأخذوا أشعة صوتية للرئتين ولم تطلع نتيقتها حتى الآن الساعة الرابعة عصرأ.

الجمعة

الحالة تحسنت من ٢٥ إلى ١٠٪ جيد.

النتائج لم تطلع بعد بالنسبة للمزرة ، عسى أن تكون طيبة ، أتمنى ذلك وللوزير وحشة كبيرة عندما تراه ولا يراك ولا يتكلم معك .

الله يعين .

السبت ..

طفش شديد ، حالة « الوزير » كما هى بالأمس ، والنتائج لم تطلع بعد ، طلع بعضها وهى جيدة ، لكن أهم شئ عينة الرئة لم تطلع ، الله يستر .

الأحد ...

النتائج طلعت كويسة ، ربما كان فى الرئة سوائل ، اليوم الصباح عند غيار الجرح الذى بالساق وجنوا إجماراً وإسوداداً بسيط ، كان نقص دم ، من يكره علاج أكسجين ساعتين إلى ثلاث ساعات يومياً .
الجسم بشكل عام للأسف ضعيف ، والامل موجود ، الحياة سوداء وكثيرة إلى حد الموت ، وغربة وعزلة ،
مازال الوزير نائماً تحت تأثير المخدر وحالة الرئة لم تتحسن .

الاثنين

الصباح جميل ، الشمس دافئة ، الحالة لا بأس بها ، سحبوا لترين من الماء من داخل الرئة ، السبب عرفوه .
هذا جيد ، الساعة الآن ١٢ الظهر نزل على غرفة الأكسجين علشان الجرح الذى بالساق ، نرجو له الصحة .

الثلاثاء..

بناءً على حالة الأمس صححت الساعة ٧ر٤٥ أخذت حماماً وحلقت ثقتى وذهبت للمستشفى ضاحكاً ،
فصدمت بأن حالة الوزير سيئة ، عنده جرثومة بالمصدر ، تكلمت مع الأخصائى ، قال إن نسبة اجتيازه المرحلة
٢٠٪ فقط ، نظرت لحالة الوزير فبكيت فى داخلى ، ولكن ليس هناك خيار آخر .
والامل موجود وتعنى إحساس بأن « الوزير » سيعدى هذه المرحلة السوداء وربنا يسهل .

الأربعاء ..

الحالة كما هى بالأمس لاتغير .

الخميس..

لاتغير ، لكنى متفائل جداً ، اليوم استطعت أن اتكلم معه لايرد عليه لكنه يالتأكيد يسمعنى ، لأن عينيه
مفتحتان ويحركهما ، أتوقع سماع أخبار ممتازة .

الجمعة..

للأسف لا يوجد تحسن ، لكن الحالة مستقرة وهذا يدعو للامل .

الأحد ..

« الوزير » بالنسبة لجرح رجله ممتاز ، يكره الصباح سينقلون الأنبوب من فمه إلى رقبته ، خوفاً من
الانتهاب ، الحالة للأسف كما هى لاتقدم .

الاثنين

الحالة بشكل عام ممتازة عدا التنفس ، لكنه أفضل من ذى قبل وأو بنسبة بسيطة ، ولكنها أحسن من لاشئ

* * *

الثلاثاء ..

الحالة تحسنت بنسبة ٤٥٪ تنفس ممتاز وإلى الأمام .

الأربعاء ..

الحالة ممتازة قياساً بما سبق تتوقع الأحسن .

الخميس ..

الحالة ممتازة ، تكلمت معه ، يعد يومين سينزعون الأنبوب من الرقبة ليستطيع الكلام ، ومن ثم حسب الحالة سينقل من العناية المركزة إلى الغرفة.

الجمعة ..

الحالة ممتازة وعظيمة ، تكلمت معه اليوم ، كان يضحك ، يعد يومين ، يوم الاثنين يطلع من العناية إلى الغرفة ومن ثم باقي المشوار ، تتمنى له الصحة والعافية.
بكره أنا مسافر..

(لماذا سافرت بي الأقدار التي تخطف في مسمياتها إلى هنا . لماذا قطعت الصحارى والبحار في وقت قضى ساعاته في النوم والقيوية ومستحيل الآمال ؟

هل صحيح أن ثمة أشياء تحدث دون أن يكون لنا يد فيها أو أصبع ، وهل صحيح أن كل الذي حدث في الغيبوبة لم يبق منه غير بيتنا القروي الأول ، وتلك الساحات البرحة والمزرعة باللون المتفرق على مساحات لاتعدى ركضة الطفل العجول .. وتلك الحواجز القصيرة لترد المدرج عن انثياله على الآخر ، والجبل الصامد عند شرقة الشمس ، عريض وكبير ويقمة سوداء كراس النهر المتحفر ، لماذا كلما جاء ذكر شرقة الشمس تذكرت ذلك الجبل وكأنها كانت في حمام فاتر من خليط الفضة والنحاس ، وكيف كانت فتحة عينها الصباحية تسكب رموشها الأولى في نافذة بيتنا .. نفت في قلوبنا واجب النهاب على المدرسة .. مدرسة كل أطفال القرية الذكور الذين يأتون بعد منتصف النهار ، حين تكون الشمس في كبد السماء إلى بيوتهم ، ليخالطوا أخواتهم وأمهاتهم ماتيقن من غذائهم في القنور الفاحمة الحواف ، وعلى عجل يحملون دفاتر الحفظ المدرسي وإلى المزارع يذهبون ، ويأكبر من عدم رقيبتهم يشاركون وعلى حين يحفظون ماتقرر من كلام ليفهمونه بقدر ما يحفظون .
الآن ..

وما هو حجم الآن ، هل امتدت من الطفولة الأولى .. أعنى إلى الآن ، وكمن مساحة الأرض والزمان تفضل بين هذه الحجرة البيضاء في وسط هذا المستشفى الأمريكي البارد ، البارد كرموش النساء فيه وكالقيعات الأمامية البيضاء فوق رؤوسهن قرب الأسرة وفي الدالين ووسط أدوات الطب وهجائن القطن والملفات الثلجية .. يارب ، لماذا كل الأشياء باردة جامدة متكئة كواقيت الدواء وجرات الماء المحسوب ، حتى الأحاديث مجمدة كأننا خرجت من ثلاجات ماتحت العشرة تحت الصفر ، بعد قليل ، وخلفنا تقف أمامي هذه القطة البيضاء المشوبة باحمرار طال فقوره في الثلج ، لتضع في أنابيب رقبتي البلاستيكية محاليل من الطعام والشراب ، وتنفذ عن أصابعها قفازها الطبي الأبيض دون كلام ، ولأنني لن أكون قادراً على الكلام والبلغ ، ولأن بلايصي المتخشبة شبيهة للماء الممتوع ، الماء الذي أن يرويه إلا إذا كان من البئر القريبة من دارنا بالقرية ، الذي كانت تأتي به أمي على ظهرها في قرية الجلد المدبوغه بالقطران .. فما جدوى أن أرهب ذاكرتي لإيجاد أى موضوع مهما كان مجنحاً عن ظرف وأدوات حالتي ، لكي أتحدث معها متسانلاً عن المكان الذي أنا فيه الآن من فائض الصحة العلاجية !

لماذا الكلام إذن ، ولماذا يعتبرون الصامت لايتكلم في حديث لايقطع مع صمته .. هل يعلمون الآن أنني بعينين إحداهما طفلة وأخرى فقدت عذستها اللاسقة في ممر مرضي هذا ولاأدري كيف كان .. ما العن أن يصعب البصير بلا نظر !

.. ماأصعب كارثة أن تجد نفسك بلا ساقين ذات ليال مظلمة لاتنتب فيها نقطة ضوء فلا تمتلك القدرة على الحركة ولا النوم على جنب مريح ، وكلك جنب واحد ملتحم بمرتبة السرير الهوائية ، يتحكمون في خفضها وارتفاعها حسبما تتطلبه أوضاع استخداماتهم الطبية فيك.

ما ألن الالم السريري الذي لا يعرف له علاجاً حينما يسيطر عليك حلم فيه الطغاة يجردون سلاسلهم في الأقدام وعلى الرقاب سيوف زيانيتهم ، ليس لئلي اقترفته في حق الإنسان ، وإنما لأنك ترفض القيد والمهانة ، وتريد أن تقول نشيداً في قلبك عن الكرامة التي يدعونها ولا يفعلون .. لأنك لاتريد أن تكون كمثلمهم . ليست كل الغدايات المرضية أكبر من انتزاع كرامة الانسان، وليست الأوجاع الليلية بأقسى من مصادرة حرية المرء .

ماأكبر الغربة والمرض ..

ماأجمل الأصدقاء حين يمرّون بالذاكرة الموجعة محملين بالذكريات ويلاسم النكات وأحلام المستقبل ، ذلك الرصيد المبارك حين غداؤك الوحدة والجعد والفراغ واللفة .. كم بقي من بورة لهذه الساعة التي تبدأ من حيث تنتهي ، وهل تمر في مراسيها على وجوه الأصدقاء في الهجرة المدنية .. هل بادلت أسمى الفتها مع صوتها وقتما تغنى في خفوت قصائدها في صدئ الوادئ والجبال المتقاضدة وقت انحصار نغم الغيوم على النيات والشجر؟! لا أعلم من قرع في مسامي نيا وفاة «ديانا» وليست أدري إن كان جاشي في الأسس الطويل كسافة مستحيلة .. أم أنه كان قبل ساعات ولم يمضين في مقاساتي الرخوة المدبوبة كبساط الزمن ، وماذا يعني موت هذه الشريفة المكرمة التي غزت العالم بينتأه وكأنتهم في حلم لذيذ لايتذكرون تفاصيله ، " بالعطب المشاعر والدموع .. أم من أجل جمال ابتسامتها التي تنتثر منها ياسمين النصر لآلام القصف في لبنان الجنوب ، أم حوارى القدس والخليل ، أم على جبل الشيخ ومآسى التهجير ، أم هي نجبية من أباء نجب لايمتهنون القدر » النابالم وقنابل المازوت والفسفور .. رياه ، إن العرب يندبون على «ديانا» مثمما بفعل الأمريكان إذ هبت في أجوائهم رياح التعازي البليدة ، فوقعت بأمصاء التعاسة على شفاهم المطيلة ، وكم ديانا ما بين القدس والخليل ، وكم من ديانا ما بين بغداد والسودان ، وكم ديانا في القرى الفقيرة بالجنوب .. يارب العين التي ترى القذاذ والمصادرة في الضحى حقاً . لتعت ديانا فهي ليست بأعز من أم تمجن دقيق رقيق في الخيم لأولادها الجوعى .. ليست تلك التي تهبط على موتها شعوب التي لايدري سوى أنها تعاطفت مع أبناء ثنائها ملونة في الشاشات بعد دمايات الجميلات عن «الهامبورجر» والمطعرات المزيلة لرائحة الأجساد .

أما أنت أيتها القبيضة الادمة في هذا السرير ، فما أنكا جرحك ، وما أكبر وجعك الليلي الطويل .. استدع المرخصة فالجرس لاتدري مكانه .. لكلك بذاكرة كوسع الأرض) .

أنا لست مسئولاً إذا كانت الخطوط الزرقاء والحمراء داخل بياض العلم تفرق بين دماء الأرض وتضع لها لوئين لا ثالث لهما ! .

اليوم الدولارى كبير أكبر من حديقة البيت الأبيض ومن كل مساحات السلام والديمقراطية التي تغطي الاعلانات .. لاذنب لك يا « زاهر» الباحث عن آخر مبتكرات الطب الحديث هنا .. لكلك لست غنيا برغم غيبوبتك المرضية ، فكل ماهو في أمريكا ليس ضرورياً أن يكون له دلو يسقى بالماء كل مواطن هنا .. أنت تحب النظام والترتيب ، تحب المضاربة في التعامل .. تحترم النقة في العمل والمواعيد .. وتحب الناس جميعاً ، لكلك تميل إلى التمثيل بهم واستغفالهم .. لست شعاعياً ولامنافساً عاطفياً وراء القيادات المعادية في عالم التنمية الثالث .. لست عدواً لأحد ، ولا مباركا لأحد ، غير أن عظامك قد تكونت بفتافيت ثرائها على نبد كل ماهو فتاك بالإنسانية في الدنيا .

« انفع رأس مالك في العناية والإعلان واستيق النتيجة » السلاح الثمري الناجح ولو ياهوا دماغهم ، الإنسان سيفرش جيوبه قبل أن يدخل بيته في الصارة الترابية .

كان « زاهر» قد أتى من قرية جنوبية بعيدة لاتتضح على الخارطة ، ولم يكن تعلم « الإلياذة » ولا قرأ « جاك روسو » ولم يكن قد تعرف على « زوريا » في إطلاعاته .. لكلك فتن جنسيا بـ « مارلين مونرو» وتنقل في الأحلام بين أحضان « بريجيت باردو» المملطة و« صوفيا لورين» و« جين فوندا» ، وهو مقتسل حتى نخاعه بسجائر « الكنت» و« الكارتير » .. لكلك بقى متندساً بمليون شهيد في « الجزائر» وكانت البندقية العربية تملأ ذاكرته

بالرصاص والبارود .. دعا الله وهو إمام في مسجد قريته الطينى الصغير أن يفتح قلبه للمعرفة ، فعرف أن الوطن لا يختلس بلغنية فى قم الغنية الجسدية بالكازينوهات.

لم يكن يقادر على النطق ، لقد رأى الطبيب أن صوته ينحدر فى خط بياني رفيع مع حالته العامة ، وأن الفيريس الذى داهم رثته ولأول مرة فى تاريخ مرضه بدأ يتفصح مع وطأة المنامة التى كان لابد منها منذ استنزاع الكلية ، وأن الاستزادة من المضاد الحيوى قد بلغت أقصى حد يمكن تناوله ووصفه فى قياس الطبيب المشرف على وظائف الأعضاء ، وقد عرض المرافق رأيا بالموافقة على أمر تنازلى خطير .. قال : فى سبيل الحياة لمانع من الفشل الكلوى مرة أخرى !

كان القرار صعباً وكانت مسعوية أهون من المفارقة الأبدية ، كان « زاهر » فى غيبوبته المشرفة على وسط الأسبوع الرابع لبدائيتها ، يتوسط الحال مابين القدرة على فهم آخر تراكيب لصورة الحديث ، لكنه لا يستطيع الربط الشبه موضوعى بين الكلمات ، ولا يدري إن كان لا يزال فى حلم الكابوس الطويل .. لم أنه فى برزخ بين الحالتين ، وهذا هو قلب المصيبة التى عاشها بعد إذ فقد فقرات رقتها .. كيف يفرض بين ماثصوره الذاكرة وبين مايعيشه الآن ، الآن الذى لا يوصف بزمن محدد ، هو قلب المالة ، والحالة لا تحتمل خطورة النرة فى المقدرة على النطق ، وكانت حركة الأطراف والرمشيين مقيدة بلا قيد .. لكن الكابوس مظلم والزمن خارج المس . وكان الداخلى فى حوار مع الداخلى لا يكاد يتوقف عن الحديث :

(لماذا لا يتضح من كلامهم ذى اللغة الانجليزية الباهتة سوى العلم الأمريكى ذى الألوان الثلاثة ، لماذا يكون فى البلاد النامية دائماً محروماً كالشهاب الغاضب وتحت الأقدام الصافية فى المظاهرات الشعبية .. ليس له مكان يبقى فيه سليماً سوى السفارات فى تلك البلدان ، وهذا هو الرهان الرسمى الذى يحتفظ بالأوراق الرسمية من اليد المتدثرة .. يا لتمثال الحرية المخائل ..

لم يكن ملاكاً ، إنه كالآخرين ، وليس فقيها بالخطب المدرسية كما تعلم وكان فى طفولته وصباه ، دعا الله ويكى ومحت بصماته الماء .. بل ذبل مكان الشرح فى مقعده من شكوك نقوض الوضوء « الاستنجاء عين الطهارة » وه التواضع قمة الشوامخ فى قول الأبرار « ، طمه جده ألا يشرب معه قهوة الصباح مع التمر اللذيذ إلا إذا أحسن الوضوء وصلى الصبح وقرأ ماتيسر ثم تجهز للنهاب إلى المدرسة ، وكانت المدرسة الابتدائية فى القرية ، هى الجامعة الاجتماعية التى تخرج الأولاد الطاهرين النجباء ولكن « زاهر » كان بليداً فى الحساب ، ووليدا فى أمور الرياضة البدنية ، ويصن القرآن والرسم بالألوان ، وجده الذى علمه نبالة البنائى والتهذيب فى المجالس والصمت وقت إذ يتحدث الكبير فى القوم ، ولئى ، وترك أيام جديدة لا تنفع فيها المائر الرجالية فيما وراء البحار .. وأية حمار) .

وقف « زاهر » وفتات تتفاوت فى عرش الوقت . وكان يشك فى طعم استرجار الذاكرة واختلاط ألوانها .. النقطة المرة غير الحقيقية والتى لا يعطها .. هى أنه لا يلمس الفاصل الواقع بين اليقظة ونقيضها ، والرب هو الحكم الوحيد فى مستوى وعيه إن كان يرفع عنه القلم أو يوضع عليه ، وأى قلم ذاك الذى يتمكن من رصد خيط الذاكرة الجديد .. !

.. و

لماذا حين تأتية فاجعات الحالة المرضية .. تعود الذاكرة عند فتايت الطفولة بالذات الدقيقة ، ولاتأتى فى الاسترجاع اليقظ ، وهل يمكن حقاً للناس الذين يتعاملون مع المجانين كالأطفال الأشقياء .. إذا كان صحيحاً لكم هم سعداء ، بطفولتهم التى يظنها الآخرون جنوناً .

فكر « زاهر » ..

إذا ما حاجة أن تختلط عليه الأمور ، كل دارس فى العلم ، والعلم الفقهى الذى تعلمه فى البيت ثم فى المدرسة .. كله علم فقهى ، وفى الحديث القسسى « إن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم » ، وأنه الآن فى

أمريكا وهى تبعد مئات الآلاف من الفراسخ عن الصين الواردة فى الحديث ، وعليه أن يفكر فى حاله فينظر كم من الأتلام المرفوعة عنه . والتي لم يكن له اختيار فيها ، وأن حالات البيع والتنازل والزواج والطلاق وأمور كثيرة ، لاتتم إلا باسترداد صحة العقل .. فهل هو فى صحة موزونة عقلاً وبيننا تمكنا من شرعية التصرف ، وهل دخل فى زمرة العاقلين ، وقت إذ سأل عن اللحم اللذيذ الذى يقدمونه فى وجبات العشاء .. فقيل له بعد أسابيع : إنه لحم خنزير .

لقد كان يتصور أنه لحم محرم يؤدى بأكمله إلى التوقف عن تناول الطعام بسبب نفور الاستساعة (....) ، أه لو علم جده المحرم . لقد كان جده عندما يراه مضطراً فى أمر نهاه عنه ، يعمره باتباع « الخندريسات » وعندما بلغ الأربعين ولمصادقة ما .. علم أن « الخندريس » نوع من الخمر كان العرب يشربونه فى ما قبل دخول الاسلام ، وأن « الزنيخ » صداً النحاس ، وأنه أيضاً بتحريف شعبى « الزنيق » وأن « الخازوق » وكان يعنى بها الورطة .. هو قضيب من الحديد مذهب يوضع تحت المقعد الأسمى فيخترق الأمعاء ماراً بالمستقيم والمستعرض والديق والبنكرياس إلى مكان الكبد .. ثم تفلظ الحياة ، وأنه لم يكن قد ابتكر للقضاء على حياة الموكل به ، وإنما لكى يرضى النجوم فى عز الظهور « قبل الموت ».

أما « التباتيك » التى كان يقولها لحظة المجادلة .. فلم يكن لزاهر علم بمعناها ، وسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

تعلم أن الجمال ليس فى جسد المرأة فقط ، بل والفزان العربية التى فتت شعراهم ، إلا إذا كانت حية ، وهم لا يربون حياة إلا حين يفقدون عليها حمى أشعارهم الطلية .. ثم يقضمون عظامها المتحمصة فى النار تحت بيت الشعر الصحراوى .

وأن الحب جميل والكرامة الإنسانية أجمل ، والزهور الميثوقة فوق صخور الوطن جميلة ، والعدل والحرية أجمل ، وأن الحياة إذا اختل ميزان العافية فى طبيعتها .. لايجوز القضاء على بهجتها . وليس المرض فى حياة الأسمى غير مقبل لتزيين العناء .. والنظرة المسنودة بالتجارب .. يالغناء الضعفاء حين تنتفض مفاصلهم خوفاً من طارئ المرض كم من أطنان الشفقة البائسة يحتاجون .

لماذا تقتنر العاطفة المتأثبة بالمرض فى بلادنا ، لماذا تدبل عبارات الحياة ، وتسيل كرساب البقر من تحت السنتهم المشفقة ..

لماذا ينظرون بالشفقة إلى أطفال المسلمين فى كوارث أوطانهم .

لماذا دائماً كلما رأيت فجعية أحدثتها التفجيرات والنار تمتد يدك إلى محفظة نقودك وكنتك هزمت المعتدى ، وإلى أين ستبلغ المأسى المدعوة بالضعف والإشفاق .

(.....)

الفرجة القاتلة أن تحيا ذليلاً فى وطنك .

أربعة أيد ووجهان خشيبان مسلولان فى الثلج .. تتقدم المرصتان ، فتلكان ذراعيك المسدلتين إلى حافتي السرير وكأن حلك الهارب بين الغيبوبة والصحو لم يكن من فراغ .. فالقيد الذى تحسه يخنق طريقك ويعطو إلى نبضك وأضلعك ، قد كان الأمر حقيقة ، والصور التى كانت تعيش فى ظلمات لقرار لها من المحاكمات وتحقيقات مزائلة بون تهمة ، ونفث الأسنان الأمامية والأظافر ، والرعى من شواقي طيور الرخ الكبيرة إلى صحارى عذراء الشجر والنبات القليل الشاحب .. فى عمرات تنمو فى مداخلها الزواحف .. وتمضى كعبال حديدية ضخمة بين قوائم الجمال .. الجمال الهائجة كاشفة الأتياب مفرجة الشفاة المشقوقة العريضة .. تنور عنك يابضع كائن ، لتسحكه تحت قرصان بطونها القاسية ..

يارب الطفولات :

لماذا لاتتلى فتاتيت الطفولة والصبا الطازج إلا عندما تبدأ تنسل على بطء من رحم الغيبويات ، وكنتك موعود بلا وعد مع فيلم عريض بين الفوسفوري والظلام وقتما تغتال بقطتك الغيابات الذهنية الطويلة والقصيرة



وكم هو حجم الأخيرة التي سجلت الأوراق الطيبة أن مدة شريطها الزمنى كان ثمانية وعشرين يوماً ؟

الآن ..

ماخطب هذه الأيدي المقفزة بالياض ، وقد حلت على حين انتباهه مقبية ، رباطات أطرافك الموثقة بالسريير

!

إنهم يدخلونك قبراً زجاجياً أسطوانى النفس ، يقلبونه من جهة الرأس بالحديد والمطاط والضواغط المانعة للهواء والصوت والحركة ..

القبر الأكسجيني الأنبوبى المصمم على قدر امتداد القامة الآدمية المديدة .. أنت لست مديداً ، وقامتك المدفونة فى هذه الأسطوانة الزجاجية المفرغة ، هى بلا رجلين من حدود الركبة إلى موطئ اللادقيمين .. هل تصورت أنك بلا قدمين ولأساقين .. بلا رجلين !

لا .. لا تستطيع أن تتصور لكثك من دونهما ، دح هذا الآن .. لقد تعلمت أن المصاعب فى أولها فوق درجة التصور .. فكيف الاحتمال ، بعد وقت ستغدو الأشياء فى منطقة التصديق ، ثم التألف ، ثم الطبيعى ، والآن ..

سيسلخون قميص المستشفى الضففاض الطويل عن جسدك البارد ، وسيخلون عبر هذين القضييين من مكان ركبتيك إلى القبر الزجاجى .. لست ميتاً ! ، إنك فقط مجرد من الوعى والحس ، وأذنك مثقوبتين كيلا ينفجر دماغك من ازدياد الأكسجين .. هيا ، عب الآن منه فى وقت تندر فى مدائنك الصناعية وأماكته المدنية الاستهلاكية الأكسجينية ، ألت ذاك الذى تفتح النوافذ وتشرع الأبواب ، وأنت مدخن فوضوى لاتحسن التفكير والكتابة فى الورق لون سجاثر .

هيا ..

اغترفت حتى تترع شرايينك ، إياك أن تشعر بالاختناق فى هذا القبر .. فالتنفس ممكن داخل الضمى المركز من مجموع التراكمات الخمسة التى تحتاجها من أجل النفس الرئوى الدموى فى هذه الحياة .

وقت لاتقدر على ضبط حوافه الدقيقة ، لكنه لن يزيد على ثلاث من الساعات ، ثم يعيدونك بحفظ الحافظ الكريم إلى سريرك وقبوك وأنايبك الغذائية والحواثية .

لاخلاف ..

لقد أدرك « سليك بن سلكة » رجل الصعلكة العربى لما قبل الإسلام ، أن زماناً يقترب ، لن يكون له فيه بين هاتجيات المطايا غارة لاغتصاب أموال القبائل حين يكون فى عليتها بيوت يرفع عواميدها الغنى ، لاخلاف .. فما اعتاد الصعلوك أن يغيروا على الكريم ولا المفيت ، ولاصاحب الشيمة وقت أن ينظر إلى ذات يده محتاج ، وأن الصعلوك مصطلح لا يحط من قيمة ارتفاع الإنسان ، فهو لا يرى مالاً ولا يرى بملكه الشحيح فى الزاد والقطيع ، ولا يمنع فقيراً ولا قليل حيلة ولا منكود دهر ولا صائغ كلمة فى الهوى والنوى وقهر سواد الليالى فى طول الجوع .. فلماذا لا يكون كمادات (بنى مصلوك) فى الفروسية وأخذ قانض الزاد والقطيع والمال ممن زادت عليهم أسباب حاجاتهم ، فيعطيه لمن احتاجها ، وماذا ينقص « حاتم طى » الذى تاب عن الصعلكة أن يبيد ذات اليد ، وينجح خيله الضعيف ، ويذكر أخوته السابقين ممن تصعلكو معه بخير الوفاض والشعر والمثل الجميل ..

لا .. يا ابن سلكة ، فالوبيض لا يبيض ، وه ابن الورد « وه الشنفري » ماندا على خير فى الصعلكة قدماء لكن زمناً يقال عنه قريب .. يأتى بتشريع جديد يقاضى فيه الناهب ويوهب للفقير والمسكين وابن السبيل والعامل فى الاختفاء حقاً ، فهل تنتظر حتى تجف عظام الفقراء انتظاراً ، وتقطع شريعة المعدين بقسمة الأرزاق بين القبائل ، وهل كان جرم على الفقير أن يكون فقيراً ، وهل كان على العبد جرم أنه لم يختار لونه حتى ولو لبس بيض الثياب ، وكم كان « فضل الكلاب على كثير من لبس الثياب »

..و

كان « سليك » قد رأى فيما يرى الهاجع فى النوم .. أن ولياً فى أرض الكنانة .. طاربت رغبات التسلط فحلقت به وجزت عن عنقه الرأس ، وجات امرأة تندب مولاه ، وتصب زغاريد حزنها فى قوم تحلقوا حول

الرأس المقطوعة يرتجفون من شعيرات ذقونهم العريضة .. نواظهم الجليدية تنتفض كرهاً ومزاودة وخوفاً ومخرباً ، وقطة نمرية للكساء ، تعلق رأس المذبوح بها إن الظالم والمظلوم يحتكمان إلى شريعة الزمن المشرع ،
وها إن « زليخة » تقطع مع النساء أصابعها ، أو تقطع اتجاه بصائرها وكمدتها .
(.....)

كان « زاهر » يسبح بدون قديمين بين الإغصاة الحاملة والإغصاة المدركة أحياناً .. لكن ماجنوى أن تكون معلقاً على بيروق أمام مبنى الواجهة فى « هيئة الأمم » والعدل باختلاف أمميته يراق كالغاز المسيل للدموع ، أو الغاز الضحك ، أو « الأيثيل » أو « الميثيل » .. العدل يتسرب من بين الأصابع ، ومن بين الضلوع ، ومن بين أذير المكاثن واسطوانات « الأكسجين » .

تترثر الخيالات فى الغفلة المخبرة ، ويلتقى زاهر باتاس عرايا يقهقهون ويفنون بأغان لا يفهمها .. إنهم طيرون على مايرى ، بعضهم يقضم أشياءه .. بعضهم يعض ظهر الآخر ، وبعضهم يصب سائلاً ذهبياً على (....) فيقلعه حتى يشمل ويتمايل كخضن ضامر فى شجرة اختلاط الأقدام والأقواء والغناء الغريب .
« رجل سمين يقايض زاهر : لا يدري على ما .. لكنه يفهم منه بعد صعوبة من حركة اللسان والشفتين واليدين التى أغدقت على فمه .. إنه يعرض عليه مالا خيالياً مقابل أن يصمت عن البحث .. يقول :
- البحث ا ، البحث عن ماذا ؟

يشير السمين إلى كتفيه يديه كميزان ، فيفهم زاهر أن الرجل يتحدث عن الميزان .. فيجيبه بالإشارة أنه ليس مستحيلاً ، وأن شفتيه لاتفهمان المقايضات ، وأن العدل ليس فى كوتهم عرايا ، وأنه يحلم فقط بأشياء خيرة وجميلة .

وكانت امرأة من بينهم تضغط على نهديها الفخمين ، وتصرخ حتى أن الحليب غامقاً يسبح على تكويرة بطنها وانسكاب فخذها وتطأ بأصابع القدمين «
يارب .. يستجدى زاهر .. إسعفونى .. إسعفونى !
تقول المعرصة
- ممنوع

يفهمها ، فإلاء لايليق بحالته وهو مقيد بالشحوب ، والشحوب يخشب بلامعه ، ولامعه مستبدلة بالبلاستيك ، والبلاستيك ليس إلا أنابيب صغيرة وضعت للطعام القليل السائل .
لقد تضخمت خصيتاه وامتألت ماتحت جلده بغاز يترك فى اذن السامع له جفجفة هامسة ، والطبيب المتردد عليه يخاف عليه من الغاز المميت .. يارب الفائتين ، ورب الغيبويين ورب الغرياء والمعالجين والموتى ، ورب العارين والمستترين !
كان زاهر يحلم ويفجع ولا يدري إن كان فى الغيبوبة أو الصحو .. يصرخ مفجوعاً .. ويظن أن صوته واصل .. فيطلب الماء ولأما ..

وجد زاهر أنه يحتاج جداً إلى قهوة مدعوك بالقرقة والجنزبيل .. كذلك التى روى بها صباحاته القروية .. إذ كانت أمه تسحق القهوة المحمصة فى المهراس النحاسى الثقيل ، خبزة الصباح المحفوظة بخم الزماد ، والرماد آخر مايبقى من حياة الجمر فوق « مشف » يكب وجهه فوق عجين تلك الخبزة فى الليل ، يطل الصبح بشرقة شمسها وفرحة رجوع ليله ، وارتداء الثوب الوحيد للمدرسة ، عدد من قراءات القول بالاستعجال ، بسرعة تصفر فى عين المستعجل ، تشرق الشمس من خلف الجبل ، ويتفادى من أعلى القمة إلى أعلى قاطئ ، وحين تصبح خلف شجرة اللوز الكبيرة أمام حوش المدرسة .. (نكون قد أخرجنا أكفنا الصغيرة من جيبونا استعداداً لصفارة الطابور) .. لقد قضى الأمر يا زاهر ، نامت الشمس آلاف الليالى وأصبحت آلافا .. غسلت أجفانها ونمشت جفونها الطازجة فى عيون الفلاحين أكلت وشربت معهم على رائحة الطين والمحراث والبذرة الطرية .

الله .. الله ، قل للجميلة في الشيلة السوداء لا تتشرشفني إن البساس لأنجاس ملاعين .

مالك يا ابن البلاد تخطط أوزان الشعر باكيالها ، وحفظتها بشعيرها .. مالك تحن كما لو أنك تئن بين غمدة سيف النهار وأغمادها ليلاً .. الله !

تمس الآن وجهها النهارى بين أصابعك الصغيرة وقبّل خديها المسفوحين كابلغ وجد في الدنيا يعانيك
وتعانیه ، شئتہی لو أنك تملك أوقية جرة تهبط قليلاً إلى شفتيها الوارفتين بالحرقة والظما .. إنك لست في
القرية المطمئنة الخجول .. ألست الدمايات هي التي عرفتنا بنجوم التمثيل ! أنظر الآن .. « مديحة كامل » هي
بلحمة ودهن شحمها وصورتها الأجنس الدافئ ، تلج في حلك ، تقول بالصوت المستعرض « عايزة مكيف في
الخيمة » .

« عايزة مكيف .. الدنيا حر ، ياسعيد ! »

لكن .. من هو « سعيد » يا عاشق الحمام .. رويها إلى شقتها في « الميدان » لقد نسيت فانتة العالمين أن تفتح ل « المكجى » لكى تترى « الأثريو » اللامع اللون فستانها الخارجى .. لا .. ومن قال إننى مفتون بالطوقم فى هذه اللحظة الغائبة الحاملة .. أريد صوتك المحجور وريقك المشابه لمسة فرعونية مرمية لمساء .. ترى هل نجت الإعانات . كلهن يقطن « عايزين موضوع جيد فى التمثيل » ، يارك الله ، مثل ماذا يافانتة المكويتين .. تريدن تمثيل زوجة « ختتصر » أو عشيقا « كالكيدى شاترلى » .. تعالى هذه المسرحية شعرية « الأميرة تنتظر » ، لايزال باب الصبور .. أو وجد بطلاً يلق ب هذا الدور .. وش معنى أنا الذى اخترتني .. يعنى مايفش غيرى « ياراجل يابوى »^{١٩}

ماذا أفعل .. لقد رأيتك في غيبوبتي ، تفحين (أحلى الفصح وتلوهم بلذة خارقة : لاسام .. نقيقي بين (... سام .. اه .. سام « قلت أنك سيدة في فهم القوافي الوطنية أحببت توهاتك ، قلت : أنت وحدك الملائمة لهذا الدور .. لاشك أنك مررت بـ « رؤوف مسعد » وهو يكتب روايت « بيضة النعامة » وكنت نجمة كنجمة « كاتب ياسين » في سجون الجزائر !!

« پس أنا .. عايزه أدخن .. لا .. لا .. من سجايري الخاصة ».

540

عجبا ، كيف تنمو الأمور في أحسن صورها ، وهي في حقيقتها منحدره نحو حافة الخطأ ، تعمل خالص
فجاعتها وأنكأ مغالاتها ١٩

لماذا تبدو الأشياء الخاطئة مارقة كالسهم ، لا يعترضها أى مانع من حقيقة المعاش اليومى !

هل صحيح أن الطلع يزهو بالغنم ، وأن الغنم هو الناتج النهائي لعمارة العسل الشوكي .. وهل صحيح أن البسكويت أرخص من الخبز ، وأن الخبز منتول كالحمى على الطرقات حتى أن الناس يتحاشون المرور بالدروب ، وأن الدروب مفتوحة لا يردعها غير الأفق البعيد ١٩.

عجبا .. لاجعياً ، فأنت حين تقرب سبابه يدك من عذسة عينيك ، ترى الفار فيلاً ، وكوب الحليب بقرة .. بل أنت تستطيع أن ترى المدينة بجذائرها تريض تحت سبابتك .. بل تستطيع أن تسد الأفق.

أحلم ..

فالحلم وحده الذي لا يمكن أن يقبض عليه ويودع في الزنزانة ، كل الكائنات خلقت بطبيعتها طليقة دون قيد .. نك ممن يرى أن الإنسان يجب ألا يوضع في درجة الصبيان ، وأن كرامة الآسميين في مثالياتهم التي لاتتصلح مع القوانين ، بل التسامي .. وكيف أنه يملك دماغ الحمار أو الفيل .. لو أن النشوة والارتقاء أتى على القطط لرأيت العجب !

الطبيب الذي لمس « زاهر» ببساطة تعامله وحرصه الإنساني - بحكم مهنته في هذا الواقع الصحي - وهو

هندي متجنس لا يكاد اسمه يصعب على الذاكرة « قفته ، أو كفته » .. أخبر المرافق الذي يعيش بين مرتكز أروجوتين في حالة مريضه « زاهر» بأنه لم يصادف حالة كهذه ، فبينما يكون قد صفق كفيه ونفضهما عن الأمل المقام على النتائج المختبرية العلمية ، إذ يزاهر يتنفس وتنب الحياة إلى رثتيه .. لقد تنفس اليوم منذ ساعتين مضتا ، تنفساً طبيعياً دون جهاز مساعد !

المريض لا يعلم عن أمور تفصيلية كثيرة ، غير أنه لا يزال يتصمم القيد .. القيد في التنفس ، وفي الحركة ، وفي الحلم أحياناً ، ولا تزال شواهد الأمور ، تذهب وتجيئ بين حالة الذاكرة التي تحس بالموسيقى الطويلة (التي رأها جنازية) في خاطره ويصدر هلوسته ، امتدت من قرى الجنوب إلى وسط أمريكا في هذه المدينة .. في هذا السرير .. على هذه المبعدة عن ألفة الأصحاء والأقربين والمعروفين .. إنه قد حير الأطباء في دهشتهم للتعرف على وجود سرطان في العظم !

نعم ..

هكذا كان اليقين الغيبي يميل بكل قاعته على الذاكرة المريضة ، وهذا ليس صحيحاً ، أجابه مرافقه ب « لا .. وكان يبتسم .

وسأله أيضاً :

— هل أنا .. ميت !

— لا .. لا

— هل أنا في وحدة الفسيل الكلوي بمدينة « جدة » ؟

— لا ، أنت في أمريكا ، تتعالج من أجل جرح في قدمك اليسرى.

— ولماذا ، هذه القيود بأطرافي ؟

— ليس هناك قيود ، مكان العملية الجراحية .. فقط

كان « زاهر» قد بدأ يب ديب الصبح حين يهسهس في أول يقظة العلم :

— منذ متى ، أنا .. هنا ؟

— منذ شهر ، تقريباً !

أجابه مرافقه وهو لا يزال مبتسماً كأنما لم يصدق .

قليلاً .. أتت إحدى الممرضتين اللتين رأهما « زاهر» جاليتين بين أصابعها حقنة المخدر (أمر الطبيب بها منذ بدايات الحالة ، لتسكين الألم) وليس لهذه الحقنة من معنى ، سوى إنها ستدلي المريض بذاكرته في حوض كبير رسمه « الغيبوبة » وتخريف التصويرات والهלוسة.

تصور .. اصنع الخيال كما لم تبغ .. كوابيس مخيفة .. أمور ليس لها حقائق مدركة : لقد رأى صديقه القديم وزوجته ، يتحادثان في أمره وهو مسجى على النعش .

(إنه لا يملك شيئاً ولم يترك شيئاً ، الناس كلهم دون اعتذار سيموتون بالسيف أو الرصاص ، أو ب « الفيروس» أو .. آلاف الحالات التي يفترها الموت المفاجئ ، ربما كان البحث عن حياة كريمة فوق وجه الأرض أو تحته لافرق .. استدعى أمه الآن ، بلغها أن تحمله في سيارتها التي تقودها إلى حيث تختار بقعة يدفن فيها ، فهي برغم أميتها التي تبلغ عدم فطنتها بفاتنة الكتاب .. لكنها أعرف بمكان دفنه) .

يسمع « زاهر» كلام صديقه الصميم ، يراء مطبقاً على حديث يمتد طويلاً فينباه ممثلتان بالحديث : (هذا واقع يافوزيه ، العالم لن ينتهي بموت « زاهر» .. قولى (ليرحمه الله ، ويرفق به) الكفن ، أو التراب . هذا واقع ، لقد .. مات) .

ليس جميلاً أن ترى نفسك حياً ، بعد أن تكون قد سجييت ، ونودي بأهلك لتحملك إلى مقبرة البيت الذي أنشأته فيه ، ليس جميلاً أبداً ، أن تشاهد موقعك عند الآخرين بعد موتك .

الموت لا يمزح ، ولا يمكنه أن يفاوض دماغك ، فكيف تتخيل أنك ميت .. هل بلغت بك الغيبوبة الطويلة جداً

جعلك تجد نفسك ميتاً ، ومامعنى هذه النهاية الأبدية التى تعنى انقطاع الدماغ عن كل المؤثرات والمعانى ؟
عجيباً .. غيبوبائك « السكرية » عديدة أغلبها أتى على تلايف دماغك لنقص شديد فى « الجلوكوز » وأنت
عند فى التواصل مع الغذاء .. ألا تدرك يا « زاهر » أن التصور أحياناً ، يكون مجانياً لما يحدث فى الحياة
المرضية .. أسمع ، تصورك أن عدم الرغبة فى الطعام .. سينتدك من الواجب فى أداءه تتاوله خطأ .
ألف مرة ومرات ، تعرف هذه القانونية الطبيعية ، لكلك لاتعمل بها ، ألم تدع أنك إنسان علمى الفكر
والتطبيق ، لماذا إذن يخونك أوتخون التطبيق فى هذا الأمر الضرورى !

تستأهل ، غيبوبائك متكررة ثم تلف فى الذاكرة .. لن أقول تصور أنك بدونها .. لأنك لاتستطيع أن تتصور ،
ماذا يبقى لك ، قلب ينض كالوردة الوحيدة بلا ذاكرة ، يا .. ثمة اثنان وعشرون مليون طفل جائع يموتون فى
الأرض ، وأنت أيها المدلل لاتريد الطعام ! لاتقل أنك تتصور الكالين كالبقير « الجوع كافر » لايعرف الحل .
قالت جيتك :

« راح واحد عند (...) ، ونشده :

.. ووش أحسن المعوشات ؟

قال : الجوع أبصر .»

قلت : أنت يوماً فى حالة عدم اتصال :

(الطبيعية لابد أن فيها نوعاً من الحق .. لماذا نجوع الكائن البشرى ، هل يتكدس ويسافر ويعمل ويشقى
لأجل إسكات حوارق الفراغ البطنى ، ألم يقل الكاتب الأمريكى المسافر حتى الموت فى الغربة « الإنسان
لايعمل من أجل أن يأكل » وكنت نتناول الأمور بشكلها التجريدى .. هل سألت : وكيف يعيش « هنرى ميلر » إن
لم يأكل ويشرب .. ربما قلت « ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان » نعم ، ولكن لم يقل أن الخيز ليس مهماً لحياة
الكائن البشرى ، الغذاء إذا كان سينتدك من السقوط فى غيبوبة ، فلماذا لاتنقها !
لاتقل إن أول بداية الطامع فى انتهاك حقوق الناس الآخرين هو الجوع ، فاستراتيجيات المستبدين لاتدل
على أنهم جوعى جاؤوا من أجل بطونهم .

دمك من ديماغوجية الفلسفة الجاهزة .. قل لى أيها المعتد بذاته المثلية .. لو أنك لم تتناول وجبة غذائك ، هل
ستعيد اللقمة لكل جاعى العالم ، إنك تضيف إلى جوعهم وجهلهم واحداً لايتحجون إليه .
يقول « التهامى » :

« حسبت أن رجلين تحمل أم بطة .. أثارى أم بطة تحمل أم رجلين !»

هو لم يقرأ فلسفات ولايحتنون .. لايفظ (.....) لكته جرب ، فاطلق حكمتك .

الغيبوبة « السكرية » ، قد تمتد فى الزمن قليلاً ، ثم تتحول إلى .. فالى .. فالوت ، أما الغيبوبة التى يعيشها
دون عيش « زاهر » فهى بأسباب ليس له فيها ضلع ، غيبوبة غياب مختلة بامتزاجات لاقاربة لها بالوصى ، وربما
ولا بالقلم .. كيف يجد ذاته أن يتكلم ؟
هل يجرب الحى كيف هو الموت ثم يعود !
نعم ..

لقد كان ذلك لزاهر ، فكيف جرب الموت ؟

لم ير شيئاً ، ولايدرى عن شئ .. إنها نهاية يهرب منها كل الناس ، مع أنها تعنى (...) تلك النقطة التى
لاوجود لها بناتاً فى الذاكرة ، لأن الموت هو الوصول (..) الوصول دون إدراك إلى الإدراك بالإدراك ، مم
الخوف .. ليس الخوف إدراك شعورى (.....) غير أن « زاهر » لايرغب فى الموت (..) .
الإنسان يخاف الموت لأنه يريد الحياة ، وهذا ضرورى للحفاظ على حياته ، الحياة ولو اختلفوا فلاسفة الدهر

ليست كل العذابات المرضية أكبر
من انتزاع كرامة الإنسان وليست
الأوجاع الليلية بنفسى من مصادة
حريّة المرء

الحب جميل والكرامة الإنسانية
أجمل. والزهور المبثوثّة
فوق صخور الوطن جميلة والعدل والحرية أجمل

الحياة إذا أختل ميزان العافية
فى طبيعتها لا يجوز القضاء على بهجتها

.. هى التى تجعل يفكر فى الموت .. أى أنه يفكر من موقع مضاد جداً بدافعه الكينونة الحيائية وليس الموتية .
علم « زاهر » ..

أن الأطباء يعتبرون الميت « متوفى دماغياً » وأدرك أن تقريرهم النهائى صحيح ، حتى وإن نمت الأظافر
والشعر بعد الموت بثلاثة أيام !

لكن .. هل يجعل المرء نفسه فى عرض موت رخيص ؟

الموت نهاية حتمية تقييمها يأتى فى مفهوم الحياة قبل أو أن نهايته .. الإنسان لو كان بلا مفهوم فى الحياة
سينتهى إلى الموت ، لكن خير الموت ذلك الذى تترك قبل حدوثه فى أى ظرف بترك شيئاً للحياة يستحق أن
يقال عنه قولاً طيباً ، أو فائدة إنسانية ، الذين يحسون بعدك .. إن الحياة هى تلك التى توجب عليك أن تحترم
ثوانها بإنسانها الذى أنت واحد من جزئياتها المترابطة التى تشكل وحدة خيرة إنسانية !

« زاهر » أدرك ذلك دون اعتماد : هل قال كلمته ؟

ليس بعد .. إنه يحب الحياة بالأمها وغيبياتها . لكنه لا يخاف الموت.

* من منكرات شقيقه أحمد مشرى ، وكان يناديه يا « وزير » بسخرية عاشقة.



سيرة شخصية

عبد العزيز صالح محمد بن مشري

* ولد في قرية محضرة بمنطقة الباحة (جنوب المملكة العربية السعودية) عام ١٣٧٤هـ - ١٩٥٠م وتلقى تعليمه الابتدائي والاعدادي بها.

* تفرغ للقراءة الذاتية والرسم والكتابة الإبداعية مبكراً حيث أحباقتة ظروفه الصحية عن استكمال دراسته أو الانتظام في عمل وظيفي.

* تميز بغزارة الإنتاج وتنوع الاهتمامات حيث صدرت له الأعمال التالية:

- ١- باقة من أدب العرب (وهو عبارة عن مختارات تأسيسية من نصوص التراث العربي).
- ٢- المجموعات القصصية القصيرة التالية: (موت على الماء - أسفار السروى - بوح السنابل - الزهور تبحث عن أنية - أحوال الديار - جاريدينا تتحاب في النافذة).

٣- الروايات التالية:

الوسمية

المغيوم ومنايات الشجر

رياح الكاوي

الحصون

في عشق حتى

صالحة

٤- «مكاشفات السيف والوردة» وهو كتاب ضم سيرته الإبداعية والثقافية.

٥- ترك المخطوطات التالية:

١- رواية «المغزول»

ب- القصيرة في المملكة» وتضمن بعض دراساته وتأملاته عنها .

ج- ترنيمة (نصوص شعرية).

٦- ترك عدداً كبيراً من اللوحات الزيتية والرسومات المخطوطة بالحبر ويطمح أصدقائه إلى

جمعها وطباعتها في كتاب.

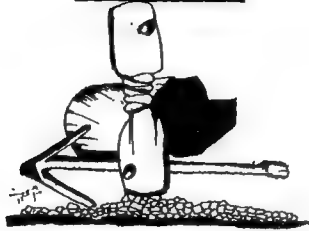
* شارك في تحرير الملحق الأدبي لجريدة اليوم «المريد» من عام ٧٥- ٨١م ، وأسهم بالكتابة الأدبية والاجتماعية في مختلف الصحف السعودية وينوي أصدقائه اختيار بعض تلك المقالات وإصدارها في كتاب.

* تزوج في عام ٨٠م من السيدة «ناهد» وهي مواطنة أردنية من أصل فلسطيني ، وقد أهداها مجموعته القصصية الثانية «أسفار السروى» «وحيث لم ينجبا نظراً لظروفه الصحية فقد أختار -بطريقة نبيلة لا يباريه فيها أحد- أن ينفصلا شرعياً، ليتيح لها فرصة الزواج والإنجاب ، وقد انفصلا في عام ٩٠م.

* أصيب بمرض السكري وأدت مضاعفات المرض والعلاج مع مرور الزمن إلى التأثير على البصر ، واختلال توازن حركة المشى والفضل الكلى واضطراره لغسيل الدم (الدليزة) وكذلك تعرضه لضغط الدم.

* أجريت له عملية لزراعة الكلى في مستشفى الملك فهد بجدة في النصف الأول من عام ١٩٩٢م وقد تكلت بالنجاح ، وساعده ذلك على التائق والإبداع في السنوات الست الأخيرة من عمره ، ولكن «الفرغينا» بدأت تغزو أطرافه فتم بتر إصبع من يده اليسرى ، ثم بترت القدم اليمنى ثم بترت الساق اليسرى كاملة.

* توفي رحمه الله في مستشفى الملك فهد بجدة في يوم الأحد الساعة السادسة إلا ربع مساءً بتاريخ ٥/٥/٢٠٠٠م وكان إلى جواره أخيه المخلص أحمد مشرى وصديقه الوفى سعد النوسري وقد ووري جثمانه الثرى في مقبرة الفيصلية بجدة، ويقع قبره في الجهة الشرقية من المقبرة على مسافة أربعة أمتار من الجدار الشرقي وثمانية أمتار من الجدار الشمالي.



الهادية التاريخية : إعادة البناء (١)

عاطف احمد

أشار الدكتور عاطف أحمد في مقاله بالعدد الماضي عن تحديث العقل العربي دعوة لحوار نظري ، والذي افتتح به الباب الجديد الذي يخص مجلتنا به " مساحة فكر " إلى كتاب الفكر الماركسي البريطاني جورج لارين " المادية التاريخية وإعادة البناء " .

وفي هذا العدد يواصل أحمد قراءة كتاب " لارين "

سوف أعرض هنا ثلاث نقاط من فكر لارين حول إعادة بناء المادية التاريخية ، واحدة منهم تقع في المقدمة ، بينما تقع النقطتان الأخريان في الفصل الأول . وتدر النقاط الثلاث حول :

١- أنماط إعادة البناء .

٢- الحاجة إلى إعادة البناء

٣- معنى إعادة البناء .

إذ يميز لارين بوضوح بين نمطين من مقاربة الماركسية : المقاربة البنيوية من ناحية والمقاربة من خلال الممارسة البشرية من ناحية أخرى .

فأما المقاربة البنيوية ، والتي يمثلها ألتوسير في فرنسا وكوهن في إنجلترا ، فهي تركز على أن الماركسية يجب أن تتم صياغتها بصورة علمية دقيقة تتخذ شكل تفسيرات نسبية ، وتعتمد على أن القوة التفسيرية للمادية التاريخية إنما تعود إلى أن الأفعال الإنسانية والصراعات الطبقة والتغير والتطور الإجتماعي ، إنما تنشأ من عوامل بنيوية يمكن تحديدها بدقة .

وأما المقاربة من خلال الممارسة البشرية ، والتي يمثلها كل من فليشر في ألمانيا وسارتر في فرنسا ، فهي ترى أنه على الرغم من أن التغير والتطور الاجتماعيين مشروطان بعوامل بنيوية ، فإنهما يجب أن يفسرا في نهاية الأمر كنتائج للممارسة البشرية والصراعات الطبقة ، التي ليست حتمية الحدوث دائما .

وربما كان من المفيد هنا - حتى نتفهم كلام لارين بصورة أوضح - أن نوضح الفرق بين هذين النوعين من المقاربة ، من خلال تحديد الفرق بين البنيوية من ناحية ، وبين الممارسة البشرية من ناحية أخرى .

فالبنيوية ، كطريقة لتحليل الظواهر الإنسانية ، تقتض أن تلك الظواهر مستويين من الدلالات أو المعاني : مستوى سطحي خارجي ظاهري ، ومستوى داخلي عميق . وبينما يتسم المستوى الأول بأنه أقرب إلى الذاتية المعنوية ، يتسم الثاني بأنه أقرب إلى الموضوعية الملموسة ، وبأنه يتكون من منظومة عناصر مترابطة ومتزامنة وقابلة للتحديد الدقيق . ويتميز المستويان بقابلية كل منهما للتحويل إلى الآخر وفق قواعد معينة ، وبأن المستوى الأعماق لا السطحي هو الذي يحدد ويفسر الظاهرة موضوع البحث .

وما يراه لارين هنا ، هو أن ثمة خطأ في تفسير الماركسية ، بين الشروط البنيوية للظواهر الإنسانية وبين الوقائع المفسرة والمحددة لتلك الظواهر . وهو يفسر ذلك الخطأ بأنه ناشئ عن ما تتسم به الشروط البنيوية من نقة في التحديد تمنحها طابعاً شبه علمي يجعلها أكثر جاذبية .

ويعبر لارين عن ذلك بقوله : إن تعريف العلاقات البنيوية على أنها ببساطة ، ترتيبات متزامنة لعناصر معطاة سلفاً ، يجعلها هي والمصالح المرتبطة بها ، قابلة للتحديد الدقيق . بينما تعريف النشاطات السياسية للطبقات المناضلة بأنها سلسلة من الأحداث المتعاقبة التي يصعب تحديد مسارها بدقة ، يجعلها تبدو غير دقيقة وغير مؤكدة . وربما كان ذلك هو مصدر الميل إلى تحويل العلاقات البنيوية والمصالح المحددة بنيوياً - والتي هي مجرد شروط للتغير - إلى أسباب مفسرة كافية . وإلى اختزال الممارسات البشرية - والتي هي الأسباب الحقيقية للتغير - إلى مجرد نتائج لها . وإذا كانت الممارسة البشرية - والتي هي هنا الصراع الطبقي - لا تتحول لنا لماذا نتج الطبقة الناجحة ، فالتفسير البنيوي أيضاً لا يضمن لنا أن الطبقة التي ينبغي أن تتجج سوف تتجج بالفعل . ويضيف لارين إلى ذلك قائلاً : ولعل الاعتراف بهذه الحقيقة هو في مركز مشروعي لإعادة البناء .

وأما مشروع لارين فهو يتحدد في تقديم مفهوم لإعادة البناء يتسم - دون تبني ماركسية عقائدية أو أورثوذكسية - بأنه أكثر حساسية للانقطاعات والثغرات التي يمكن أن توجد في فكر ماركس وإنجلز ، وإلى الحاجة إلى حلها . وهو ما سيتحدث عنه تفصيلاً فيما بعد .

* أما الحاجة إلى إعادة البناء فيحدها لارين بأن أية محاولة لإعادة بناء المادية التاريخية تتضمن افتراضا مزدوجا:

أولاً: أنها نظرية ذات قيمة وما زال بإمكانها أن تقدم إسهامات هامة لكل من العلوم الاجتماعية والممارسة السياسية.

ثانياً: أن ثمة أسبابا معينة لتعلل كون صياغتها الراهنة ليست مرضية وتتطلب فحصا مدققا. من هنا كانت الحاجة إلى إعادة البناء.

والافتراض الأول: يجب ألا يؤخذ ببساطة كأمر مسلم به فقد وجه كثير من النقاد للماركسية اتهامات عديدة منها أنها مشوشة، وتفقر إلى الدقة، وتتطوى على تناقضات. ومع ذلك فحتى أكثر النقاد قسوة يقرون بتأثيرها الهام والواسع فأكثرون مثلي يرى أن ما تتمتع به الماركسية من تأثير هام في العالم المعاصر يجعلنا في غير حاجة إلى الاعتذار عن محاولة فهمها وتقييمها. السؤال إذن هو: لماذا يظل بإمكان هذه النظرية أن تكون ذات تأثير شديد في المجال السياسي والأكاديمي كليهما؟

ربما وجدنا تفسيراً لتلك المسألة في مبدأ التحدد الاجتماعي للمعرفة، إذ لا يمكن لنظرية أن تحيا بشكل خالص على أساس قوة باطنية مفترضة مستمدة من تماسكها الداخلي واستدلالاتها الدقيقة، وإنما تحيا النظرية وتمارس تأثيرها بقدر ما تدخل وتصبح ذات معنى في ممارسات الأجيال الجديدة. كذلك فالتطور المستمر للماركسية وأهميتها مرتبط بمغزاها بالنسبة للأشكال المعاصرة للممارسة.

على أن أندرسون يرى أن الماركسية الغربية كانت نتاجاً لإخفاق وهزيمة الطبقة العاملة من أجل الاشتراكية مما أدى إلى انزياح النظرية الماركسية عن الأحزاب الثورية إلى الجامعات الأمر الذي أدى إلى أن المناقشات عن القوانين الاقتصادية عن الرأسمالية والاستراتيجيات السياسية الاشتراكية اختفت تقريباً وحل محلها خطاب فلسفي يركز خاصة على المشاكل المنهجية والأيدولوجية.

بينما يرى لارين -على خلاف ذلك- أن الماركسية الغربية قد اكتسبت طابعها الخاص، ليس من انفصالها عن الممارسة بل من وجود شكل نوعي خاص ذي صلة مع الممارسة. ويستند في ذلك إلى ما قاله ماركس عن الاستقلال الظاهري للنظرين الألمان في علاقتهم بالطبقة الوسطى حيث رأى تحت هذا الانفصال الظاهري علاقة ذات بعدين، فمن ناحية هناك صلة مباشرة بين النظرية والممارسة المحدودة للطبقة التي تمارسها بالفعل، ومن ناحية أخرى صلة بين النظرية وبين الممارسة الناجمة لطبقات أجنبية مشابهة تتنازل في ظل ظروف مختلفة وهكذا فإن كانوا وهيجل إنما كانا يظفزان ويظفزان الإنجازات العملية للبورجوازية الإنجليزية والفرنسية من خلال تحويل

تلك الانجازات إلى أفكار خالصة ومجردة ولعل هذا هو بالنسبة للارلين- مفتاح فهم تطور الماركسية الغربية فهي من ناحية نتاج ممارسة الطبقة العاملة غير القادرة على تحدى الوضع القائم جنريا ومن ناحية أخرى، وثانيا فإنها ترتبط بنجاح الممارسة الثورية للطبقة العاملة الروسية أولا ، ثم بالممارسة الثورية وفى عديد من بلدان العالم الثالث فيما بعد وهكذا فإن اخفاق الماركسية الغربية يتوافق مع عجز الطبقة العاملة الأوربية بسبب أن تلك الممارسة ظلت محدودة وهذه الصلة المحدودة تتيح لنا أن نفهم لماذا لا تستطيع الماركسية الغربية أن تحل نظريا التناقضات التى لم تكن الطبقات العاملة الأوربية قادرة على حلها فى الممارسة.

ومعنى ذلك أن المادية التاريخية فى مفترق طرق. فالسمات الخاصة للماركسية الغربية والتى اكتسبتها طابعا نقديا وحاولت أن تطورها بطريقة غير حتموية وغير اقتصادية- على خلاف الأرثوذكسية السوفيتية - قد دخلت فى أزمة عميقة . بينما اتسمت للماركسية فى العالم الناطق بالإنجليزية بحيوية جديدة أدت إلى اتجاهات تقلل من الوضع النظرى للمادية التاريخية أو تبعث التفسير الختموى مع تدعيمه هذه المرة بصياغات دقيقة. ومثل هذا الوضع يجعل لارلين يترك مدى الحاجة إلى إعادة بناء المادية التاريخية كنظرية للممارسة تقدم العناصر الأساسية لفهم التاريخ والمجتمع والفرد فى علاقاتهم المركبة. أى كلفسة إنسانية تحريرية تتبنى على الممارسة.

وأما بالنسبة لمعنى إعادة البناء ، فيلاحظ لارلين أن مفكرين عديدين قد حاولوا فى السنوات الماضية ، إعادة بناء المادية التاريخية لكنهم فهموا من إعادة البناء أشياء غاية فى الاختلاف فالتوسير مثلا يفهمها باعتبارها تقديم طريقة خاصة لقراءة ماركس وشرح ما أراد أن يقوله حقا وهو يرى وجود انفصال متواتر أو منتظم بين أقوال ماركس الصريحة وبين المسائل العلمية الفعلية المختفية وراءها. أى أنه يريد إعادة تركيب «اشكالية» ماركس العلمية المختفية . عن طريق «قراءة تشخيصية» تخترق سطح صياغاته وتكتشف بنية علمية نسقية كامنة فى العمق.

كذلك هناك مفاهيم منهجية لإعادة البناء تؤكد على الحاجة إلى توضيح نسقي وإلى إعادة تركيب الإطار الماركسية(مورترى)

أو تحاول أن تستبعد الغموض الذى يشوش مقولات ماركس وإدخال ما تتميز به الفلسفة التحليلية المعاصرة من مقولات (كوهن) فليصل الأمر إلى القول بضرورة التحقق مما عناه ماركس بالفعل حتى نكتشف المتطلبات المنطقية لنظريته أى إدخال نظام معرفى على أفكار ماركس وتقويمها.

وقد تنطوى إعادة البناء أيضا على تضمينات أقوى فهايرماس مثلا يسعى إلى تفكيك النظرية وتركيبها مرة أخرى بشكل جديد حتى تحقق هدفها الذى وضعت لنفسها على نحو أكثر كمالا فالنظرية هنا تحتاج إلى تطوير لأسسها المعيارية بصفة خاصة الأمر الذى يمكن أن يتحقق فقط

من خلال نظريته للفعل الاتصالي.

وأما سارتر ، والذي يرى أن الماركسية قد أصبحت نوعا قريبا وعقائديا من المعرفة التي تضع الأحداث داخل إطار مفاهيمي قبل دراستها ، فإنه يرى ضرورة إدماج أنظمة معرفية جديدة للماركسية حتى تستعيد ببساطة النطاقات العينية للواقعي وترصد التجديدات العينية للحياة الإنسانية.

على أن لارين يرى أن مفهوما صحيحا لإعادة البناء يجب أن يكون قادرا على التساؤل عما إذا كانت كل عناصر النظرية متسقة ، وبما إذا كان تفصلها النوعي صحيحا . الأمر الذي يجعلنا على استعداد لتقبل وجود تعارضات تجعل من الضروري إما تغيير التوازن بين هذه العناصر أو استبعاد الحلول المقترحة غير الملائمة . كذلك فهو يتقبل فكرة أن صياغة ماركس الخاصة لنشاطه النظري تتعارض أحيانا مع المفزى الفعلي له.

لكنه يرفض محاولة ملء الفراغات الجوهرية المزعومة في فكر ماركس بنظرية جديدة تماما للفعل الاتصالي أو بإدخال أنظمة معرفية كاملة تطورت على نحو مستقل مثل الوجودية والتحليل النفسي.

كذلك يرى لارين أن ثمة ثلاث مشاكل أساسية في أعمال ماركس ناشئة من صعوبة المهمة التي طرحها على نفسه . ويتحدد الأولى في الإطار الضخم لهدف ماركس المتمثل في تقديم تقييم دقيق لفهم صحيح للمجتمع والتاريخ . ويتمثل الثانية في مشكلة أخذ عناصر من أصول نظرية مختلفة ومن أنظمة معرفية مختلفة ومحاولة إدماجها في نظرية أرقى . وأما الثالثة فتتعلق بسعى ماركس إلى فهم المجتمع والتاريخ من خلال نظرية تنقسم بدقة العلوم الطبيعية (مقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، مختارات ماركس وإنجلز ، ص ١٨٢) وتتسم في الوقت نفسه بكونها نظرية نقدية وثورية في جوهرها (كلمة ختامية ، رأس المال ، المجلد الأول ، ص ٢٩) ويمضى لارين قائلا بأن محاولة ماركس تأسيس نظرية علمية وثورية في أن معا تطرح مشكل التوفيق بين القوانين العلمية العامة وبين الممارسات السياسية النوعية . وتطرح كذلك مشكلة دمج التحليل الدقيق للواقع كما هو ، ونقد طابعه المسلب والمتناقض في آن واحد .

وهكذا يتضح لنا أن مفهوم لارين عن إعادة البناء ، ليس معنيا كثيرا بجعل المادية التاريخية جدية بالتصديق شكلها ، وإنما هو معنى أساسا بأن يحل التوترات في أعمال ماركس ، حلا جذريا ، بحيث تصبح أكثر ملاسة كنظرية.

انظر

Dictionary of Philosophy : Pan Reference , London , 1981
- Dictionary of sociology Penguin , Books 1994



غالب .. سيد شعراء الأردية

انا ماري شميل

للميتين عطشاً أنا الشفة اليابسة..

هذه الكلمات للشاعر ميرزا أسد الله « غالب » في إحدى قصائده باللغة الأردية ، وهو يعبر بها عن العطش اللامتناهي وعن اليأس الذي لاحد له في الحياة والآخرة . اشتياق بلا نهاية ، يأس ، حزن عميق ، ومع ذلك همة عالية لاتعرف إلى القناعة ولا الراحة سبيلا ، فخر وافتخار ، نار الحسرة وسيل النوع : هذا مايشكل محتويات القسم الأكبر من ديوان « غالب ».

من كان إذا هذا الشاعر الذي يعرف اسمه كل من سكان الهند وباكستان ، والذي يحفظ شعره الكثيرون عن ظهر قلب ، بل أكثرية الناس في هذين البلدين ؟ إنه آخر شعراء عهد المغول في الهند ، وشاهد انكسار هذه الدولة (عام ١٨٥٧) وحكم الإنجليز ، وهو الذي ترنم بلقاعه وألامه الشخصية المتعلقة بالوضع السياسي والاجتماعي في أشعار فارسية وأردية ، واشتكى من حاله في رسائله إلى خلانه وأصدقائه بكلمات اللغتين . وما أن توفي « غالب » عام ١٨٦٩ - أي منذ قرن من الزمان - حتى صار صيته ينتشر ويتسع مع الأيام حتى انه ليعد الآن سيد شعراء اللغة الأردية بلا نزاع .

وإنه يتوجب علينا أن نقدم أولاً صورة تخطيطية سريعة للوضع السياسي والثقافي في الهند أثناء تلك الحقبة ليمكثنا فهم شخصية هذا الشاعر الغريب العجيب .

أسست الدولة المغولية في الهند عام ١٥٢٦ وذلك على أثر انتصار « بابر » ، من أحفاد تيمور لوك ، على شاه ابراهيم لودي الذي حكم القسم الشمالي الغربي من بر الهند ، ومن المعلوم أن بابر كان

مؤسس دولة المغول ، وخلفه ابنه « همايون » ، ثم خاصة حفيده « أكبر » ، فقد مد كل منهم حدود المملكة جنوباً وشرقاً حتى انضم القسم الأكبر من الهند تحت لواء المغول ، وكان ذلك فى القرن السابع عشر . وكانت اللغة الفارسية ذاتة فى الهند منذ فتوحات السلطان محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر للميلاد ، وصار كل مثقف ، مسلماً كان أو من الهندوس ، يتكلم الفارسية ويؤلف أشعاره ويحرر التاريخ ومكاتبته بهذه اللغة ، حتى إذا حل عهد المغول اتسع تأثير الفارسية مرة أخرى ، فزحف على دلهى وأكره ولاهور ما لاحصر له من الشعراء الإيرانيين الذين هجروا وطنهم بحثاً عن الترف فى قصور ملوك تلك المملكة وأمرائها وأغنيائها . وراح « أكبر » (المتوفى ١٦٠٥) يامر الأدباء أن يترجموا الكتب الهندية الكلاسيكية من السانسكريتية إلى الفارسية ، مضيفاً بذلك كنوزاً جديدة إلى الأدب الفارسى الرحب . أما الشعراء الذين توطنوا فى الهند فأخذوا فى استعمال أسلوب يختلف عن الأسلوب القديم المعتاد فى الشعر الفارسى ، وهو يسمى « سبك هندى » أى « الأسلوب الهندى » ، ونرى أن بداية هذا الأسلوب كانت فى القرن الرابع عشر فى أشعار الشاعر الداهى أمير خسرو الدهلوى (المتوفى ١٢٢٥) ، ثم إلى حد ما ، فى بعض تاليفات مولانا « جامى » الهروى (المتوفى ١٤٩٢) الذى كان يعيش فى مدينة هراة وبعد آخر الشعراء الكلاسيكيين فى إيران . أما شعراء العهد المغولى ، ومنهم عرقى (المتوفى ١٥٩٢) ونظيرى (المتوفى ١٦١٢) وطالب أملى (المتوفى ١٦٢٧) وقدسى مشهدى (المتوفى ١٦٤٥) وغنى كاشميرى (المتوفى ١٦٦٩) ، فقد امتازوا بأبداع رموز جديدة وكتابات مبتكرة ، وأشكال غريبة عبروا فيها عن أفكارهم وأحاسيسهم . كانت اليلافة الفارسية قد اشتملت على رموز وكتابات وإيهامات خاصة بها ، وهى موروثة مأثورة جيلا عن جيل ، وهى ذات تناسب جميل وموازنة لطيفة وإن تجاوزت أحيانا حدود الفلو والمبالغة . وكان شعراء الهند قد توارثوا تعابير الشعر الفارسى ورموزه المأخوذة عن القرآن وعن تاريخ إيران القديم وعن الأدب الصوفى والأساطير القومية ، ولكنهم راحوا يستخدمونها بطريقة تجريدية ، مبدلين معناها ، أو مسيقين عليها معنى مغايراً جديداً ، كما أبدعوا فى النحو الفارسى حتى جعلوا سياق الكلمات متشاكلاً ، وقد نبأ أن يستعملوا المصدر عوضاً عن الصيغة الشخصية ، ومزجوا بعض الكلمات العامية المأخوذة أحيانا عن اللهجات الهندية بالتعابير الفلسفية حتى غاب التناسب المتوازن عن أكثر أشعارهم . وأحيوا كذلك إرسال الأمتة فى المصراع الثانى للبيت ، عازمين بذلك على التباهى بعلمهم والتظاهر بالفصاحة ، وقد بالغوا فى العبارة حتى خرجوا بها عن الحد الجائز فى الشعر المعتن الفارسى ، ومن ذلك أن أحدهم أتى يذكر « الغم الذى يكون فى الشعر الفارسى - خاصة إذا كان فم المحبوب - صغيراً دقيقاً أشبه بحرف الميم أو بالنقطة .. وقد أفاد أحد شعراء الفرس فى الهند عن سكوته بقوله :

لا افتح فمى بعد لأتكلم - كان فمى كان جوراً ثم التأم .. أى أن فاه قد غاب تماماً كالجرح إذا طاب وضاع أثره . هذا هو الطرز الذى ألف عليه شعراء الهند أشعارهم فى القرن السابع عشر ، وبلغ هذا القريض الهندى أقصى مداه فى أشعار ميرزا « بيادل » (المتوفى ١٧٢١) . وكان فى نفس الوقت بعض شعراء جنوبى الهند نحو إلى قرض الشعر بلغتهم القومية المسماة « بالديكنى » ثم فيما بعد

بالأردية. وبينما كان حظ الأدب الفارسي والثقافة الفارسية من النحوع والانتشار محدوداً في جنوب الهند ، على العكس منه في شمالها ، لعبت اللغة العربية دوراً لا يستهان به في هذه المنطقة ، مع أن الشعراء والأدباء أحسنوا الفارسية أيضاً . ولأن نون المتصوفين بعض أشعارهم ونصائحهم باللغة الهندية القومية (الأردية) فقد أرادوا بذلك أن يصلوا إلى قلوب عامة الشعب الهندي ، وكانت بداية التيار الأدبي الذي راح يتخذ من اللغة القومية واسطة تعبيرية له ، في ناحية الدكان ، بالهند الجنوبي ، ويعد قرنين من الزمان ظل خلالها شعراء الجنوب يقرضون أشعارهم ، والمتصوفون يبنون حكمهم وشطحاتهم بهذه اللغة الشعبية امتد أخيراً هذا التيار إلى شمال الهند في أوائل القرن الثامن عشر ، واغتنم الشعراء بدلهي ولكنهم هذه الفرصة ليعبروا عن اغتباطهم لهذا التطور الذي عم نفحه أساليب اللغة الأردية ولم يمتض عليه سنوات عديدة.

وكان أحد أسباب هذا التطور الجديد هو الوضع السياسي والاجتماعي ، فقد انقضت الدولة المغولية بعد وفاة أورنگ زيب (عام ١٧٠٧) وكان هو الملك العظيم الذي عزم على إنشاء « حكومة إسلامية » حسب أسس الشريعة ، ممازفاً عن طريق المتصوفين الذين كانوا قد وضعوا نصب أعينهم إقامة « اتحاد مسلم - هندي » ، تابع لبرامج السلطان « أكبر » ، بينما رأى أورنگ زيب في ذلك خطراً عظيماً على الإسلام والمسلمين ، وإن كان النصر قد حاله في فتوحاته الكثيرة في أثناء حكمه الذي دام خمسين عاماً ، فقد أبغضه الهنوس وثأروا بعد وفاته ، وأوقدوا نار حرب أهلية في مراكز المملكة . كما أثار السكة الذين وقعوا تحت اضطهاد أورنگ زيب فتنة عظيمة . وخلف أورنگ زيب على تاج العرش سلطان ضعيف السياسة والتعبير ، ولقد تقلب في حكم هذه المملكة خمسة سلاطين في مدة لاتزيد على إحدى عشر عاماً ، وبينما كانت تزلزل البلاد هجمات الهنوس والسكة وسائر الأقوام ، كما استبد سلاطين المسلمين في أطراف الهند وفتح الإنجليز مناطق صغيرة في الجنوب والشرق جعلوها رؤوس قناطر لفتح المملكة بتجمعها ، وبذلك صارت دلهي الزاهرة كئنها مركز إداري بلا مملكة . زد على هذا أن في سنة ١٧٣٩ غزا الملك الإيراني نادر شاه بلاد الهند ونهب مدينة دلهي وعاد منها إلى إيران بغنيمة كبيرة من مال لا يحصى بجواهر لا توصف ، من بينها « سرير الطاووس » الشهير الذي مازال حتى الآن في طهران . ثم بعد قتل نادر شاه دخل أحمد شاه أبدالي السلطان الأفغاني مملكة الهند ، وإن جاء صديقاً للمسلمين بناء على دعوة كبار النواة والدين ، ولكنه لم يلبث أن نهبت عساكره مدينة دلهي مرة أخرى ، وهكذا استمرت سلاسل التخريب في أواسط القرن الثامن عشر ، حتى صارت دلهي الزاهرة خرابة وعاد شعراؤها كالابلال المخزونة بعد أن نهبت عاصمة الشتاء بالورد .

فالسultan هناك كان بالرسم ، لا بالفعل ، ومازال الإنكليز يمدون مناطق نفوذهم من البنجال حتى الشمال والجنوب إلى أن ملكوا قسماً عظيماً من ير الهند ، وصار السلطان في أيديهم كالعروس في لعبة خيال الظل .

احتاج الشعراء في نور كهذا إلى لغة يستطيعون بها الإفادة بكلامهم على نحو جديد . كانت الفارسية قد أصبحت لغة فنية ، مصطنعة ، وإن لم تزل تستعمل في المكاتبات الرسمية ، أما العامة فلم

يفهموها ، اللهم إلا قلة منهم ، بينما كان يحسن الأرية كل مواطن سواء كان في دلهي أم في شمال الهند . ومن حسن حظ هذه اللغة أن وجه بعض كبار الشعراء في دلهي اهتمامهم إلى هذه اللغة ، وهم « مير » (توفي ١٨١٠) وكان عاشقا حزينا متصوفا أستاذًا في صناعة الغزل العشقي « ميرزا سوداء صاحب الهجاء اللاذع والوصف الرائع » (المتوفى ١٧٨٠) ، وهو الناقد المرن للوضع الاجتماعي ، ثم « مير حسن » (المتوفى ١٧٨٧) مؤلف مثنوى « سحر البيان » الرومانتيكي الطو التعبير .

إلا أن الحياة قد صارت في دلهي صعبة مزينة على الناس عامة وفقراء الشعراء خاصة ! فما وجد هؤلاء سلطانا ذا يد طويلة ولا أميراً ذا ثراء ومال كى يبيعوه أشعارهم .. هكذا هاجر أكثر الشعراء في أواخر القرن الثامن عشر إلى مدينة لكهنؤ التي ما دخلها محارب واحد ولا خريتها قذائف الحرب كما أن سلاطينها كانوا من الأثرياء المحبين للشعر والشعراء ، المقلين على صنوف اللهو والمتاع ، حتى عرفت مدينة لكهنؤ بأنها « أكثر مدن الهند طربا » . وقد تطور هناك أسلوب جديد للأدب الأردى ، يتميز بخفة الظل ، ويصف الجوارى الأنيسات والراح ومتع المدام ، بينما انصرف الشعراء إلى صقل الكلمات والعبارات .. في الوقت الذى جعلت فيه الدولة الإسلامية تنقرض في الهند من يوم إلى آخر حتى ما بقى من ماضيها الباهر ..

هذا هو الوضع السياسى والاجتماعى فى عهد « غالب » شاعرنا الكبير .

ولد ميرزا أسد الله فى مدينة أكره فى ٢٥ كانون أول (ديسمبر) ١٧٩٧ ، أى فى برج الجدى الذى يكون « صاحبه » زحل ، وكان طالع هذا الكوكب المشنوم جليا إذا ما نظرنا إلى حياة « غالب » ، إلى فطرته المتكررة الفسنة أحيانا وإلى الملائخوليا الحارقة للأكباد ، وفكره العميق وحساسيته المفرطة . كان أجداده من الأتراك النبلاء . توفى أبوه فى عام ١٨٠٢ ، فكلله عمه الذى مالئ أن واقاه الموت بعد سنتين قليلة . وترتب على هذا الحادث العديد من المشكلات والصعاب لغالب ، فقد انتظر ميراثا من عمه يتيح له رزقا شهريا مهما كان ضئيلا من طرف الوارث ، وذلك عن طريق الشرعى الأول نواب « أحمد بخش خان » رئيس « لوهارو » . ولما كان هذا الأمير قد خلع نفسه من الرئاسة وترك أمواله لولده نواب « شمس الدين خان » الذى لم يهتم بأقربائه ولم يعطهم إلا معاشا ضئيلا لا يكاد أن يكفى أقل نفقات الحياة ، وفقد طال خلاف غالب مع عائلة « لوهارو » لمدة ٢٠ عاما ..

وقص الشاعر عن نفسه أنه أكثر من اللعب واللهو فى طفولة شبابه فراح يعاقر الضمر والميسر وعاش حياة عارمة بالمتاع والملذات بالقدر الذى أتاحه له دخل عائلته . بل زاد على ذلك بأن مد يده لأصنفاته يستمد المال منهم وقلما أعاد إليهم ما أقرضوا إياه وقد لازمه الدين طوال حياته بل وحتى بعد موته .. وكان من الطبيعى ألا تستحسن فيه عائلة عمه هذه الضصلة السيئة فسارعت بتزويجه أمة أن يؤدى ذلك إلى صلاحه وتوبته ، بينما لم يزد عمر غالب آنذاك على الثالثة عشرة .. كانت زوجته بارة ، تقية ، ذات حياة وعفة ، تنفر من عادات زوجها ولقباله على الشرب ، وهكذا كان الزواج نوعا من جهنم لكلا الطرفين .. ومع ذلك فما ترك غالب زوجته بل عاش معها حتى وفاته وقد ماتت لاحقة إياه بعده بفترة قصيرة . وولدت له سبعة أبناء لم يعمر واحد منهم ، وبعد ذلك لقصته ، ونراه يصف حياته الزوجية

بعد ذلك فى الكثير من مكاتيبه بأنّها « قيد على قدميه ويديه وعنقه » ومن ذلك قوله « إن هذه الحياة الزوجية موت لى » ، حتى أنه عندما توفيت زوجة أحد أصدقائه كتب إلى صاحبه يحسده على ما هو فيه : « ليتنى فى مكان هذا الزوج ! » لاشك أن هذه التجربة المريرة قد أثّرت عليه وتسببت فيما وقع فيه من تشاؤم أطل علينا من أشعاره ولكن هذه التجربة ماكانت السبب الوحيد لكربه وتشاؤمه .

بعد أن تزوج غالب ، لقي فى مدينة أكره رجلا قانما من إيران ، اسمه عبد الصمد ، وتعلم على يده الفارسية لمدة سنتين . لسنا ندرى من كان هذا الرجل ، وغالب نفسه أحيانا كان يصفه بأنه مرشد خيالى ، ولكن لاشك أن الشاعر الشاب غرق أثناء هذين العامين فى تحصيل عميق للنحو والأدب الفارسى حتى أنه بعد ذلك ظن نفسه « المحقق بالفارسية » وكتب لصديق له يقول « إن ميزان الفارسية بيدى » وادعى أن الفارسية كانت جبلة فيه لانتيجة تحصيل ما .

حوالى عام ١٨١٢ ترك غالب موطنه وسافر إلى دلهى حيث توطن ، وكان قد بدأ بتأليف فارسية على أسلوب « بيدل » الكثير الأشكال ولم يتجاوز الاثنى عشر من عمره ، ثم فى دلهى صار يفضل قرض الشعر بالأردية زمنا طويلا بعد ذلك . قصار غالب الشاب « شعبة المحفل » وسط الأدباء والشعراء وعاش يؤلف الأشعار حتى ساء وضعه المالى لدرجة أنه عاد إلى الخلف من جديد مع أهل لوهارو بصدد استحقاقاته المهضومة ، ولكنه لم يوفق أمام محكمة دلهى ، وشد رحاله إلى كالكوكتا ، مقر الحكم الإنجليزى فى الهند آنذاك . ورواده الطرب أثناء سفره كلما ابتعد عن أهله وعائلته .. وأقام مدة فى مدينة بنارس التى أعجبت كل العجب ، حتى صنف مثنويا فارسياً فى حسن هذه المدينة وصباحها البراق ونسوتها المفتحات فى نهر ججس . وعندما قدم إلى كالكوكتا أعجبت به الأخرى ، وأقام بها قرابة العامين ، ومع ذلك ما حل إشكالا ولا انتهى إلى نتيجة . بل بالعكس إذ أثناء اشتراكه فى حلقة منافسة بين شعراء تلك الناحية وقع بينه وبين « قتيل » - أحد شعراء هذه المنطقة - جدال أدبى حمى وطنية بسبب مسألة تتعلق بأسلوبه الفارسى ، لاسيما أنه كان قد هجر اللغة الأردية آنذاك واهتم بالفارسية وحدها فى قصائده .

عاد غالب إلى دلهى سنة ١٨٢٩ ، ومازال يتعقب قضيته ضد عائلة لوهارو . وكان شخصا شهيرا فى المدينة ، كل يعرف حكاية خصومته مع نواب شمس الدين أحمد رئيس لوهارو ، حتى إذا قبضت الحكومة الإنكليزية على هذا الأمير عام ١٨٢٥ وشتقوه لأسباب سياسية ، شاعت الشائعة بأن « غالب » - وكان إذ ذاك صديقا لأحد الولاة الإنكليز - قد لعب دوراً خفياً فى هذا الإعدام .. وفى سنة ١٨٤٢ عرضت عليه الحكومة منصب أستاذ لغة والأدب الفارسى ، لكنه رفض هذا العرض لأن ناظر المدرسة لم يكن فى استقباله على باب المعهد عند حضوره إليه ، وإنما انتظره فى مكتبه .. من هذه الواقعة نتبين مقدار سلف الشاعر واعتداده بنفسه بينما كان على عتبة الموت من الجوع ..

وقد داوم غالب على عادة لعب الميسر ومارتب عليها ، وإن ضاع أمه فى الحصول على نتيجة فى قضائه مع أهل لوهارو أى فى الحصول على رزقه الموروث .. أما الميسر فكان محرما لا فى الشرع

وحسب بل وفى القانون الإنكليزى أيضا . وقد قبض يوما على الشاعر (عام ١٨٤٧) وسجن فى دلهى لمدة ثلاثة أشهر .

مع ذلك ازداد شهرة فى دلهى ، وبعد سنتين نال ماكان بيتقيه منذ مطلع شبابه ، وهو أن تفتح أمامه أبواب قصر السلطان . كان قد اعتزم منذ مدة طويلة أن يتقلد منصب « أمير الشعراء » ومؤيد السلطان أو أحد أبنائه خاصة وأنه كان أعظم من قرض الشعر بالفارسية والأردية . وكانت العادة فى ذلك العصر أن ينتخب الملوك الذين راموا تعلم صنعة الشعر أحد كبار الشعراء ليلقنهم إياها ، ويصحح أشعارهم صاقلًا أساليبهم ، وكان هذا المنصب المحسود عليه فى دلهى فى يدى « نوق » الشاعر المجيد بالأردية ، فلا عجب أن ابغض غالب « نوق » وعده شاعرا لاشان له ولاقيمة لأبياته ، على حد هجائه إياه فى إحدى قصائده التى يقول فيها :

ما أصبح شريك صالح كل من ركب جملا

وما صار كحوسى الكليم كل راعى شاه

وما أخذ الكرة من خسرو برون كل من وجد كترأ .

وما صار مثل رضوان كل من أحضر بستانا

اليوم أنا « نظامى » و « خاقانى » فى صنعة الشعر

وصارت دلهى بوساطتى مثل مدينتى كنج (موطن نظامى) وشيوان (موطن خاقانى) معاً .

وكان أحد أسباب بغض غالب لـ « نوق » ونفوره منه أن أسلوب ذاك الشاعر كان سهلا لطيفا يحبه الناس بأجمعهم ، أما غالب نفسه فكان يفتخر بأسلوبه المعقد معتقدا أنه شاعر الخاصة ، لا تستطيع العامة أن تفهم كتاباته وتعبيراته العالية . ومع ذلك ود لو جلب اهتمام العامة وإعجابهم وحسد « نوق » الذى وفق فى التملك على قلوب الناس توفيقاً كبيراً . (أما أشعار غالب ، فقد خاطبه أحد معاصريه قائلاً .

قد فهمنا شعر « مير » و « ميرزا سوداء » ولكن الأشعار التى أنت مؤلفها لايفهمها سواك والله تعالى . وأخيراً ، فى عام ١٨٥٠ ، أخلع عليه السلطان خلعة وأمره أن يصنف تاريخ عائلة تيمور لك بالغة الفارسية ، حتى صار لقبه « نجم الدولة دبیر الملك نظام جنك » ومعاشه ٥٠ روبية فى الشهر . وكتب إلى صديق له يقول : « لأن كان المعاش قليلا فقد زنت عزا ورقة » ولكنه لم يحب كتب التاريخ ، وقال فى أحد أبياته :

ماقرأنا قصة اسكندر ودارا

لاتملنا سوى عن حكاية العشق والوفا ..

ولما توفى غريمه « نوق » عين شاعرنا أخيراً عام ١٨٥٤ أستاذًا لولى العهد المغولى ، ولكن مالبث تلميذه أن مات بعد فترة قصيرة ، وظل هو مع ذلك على صلة طيبة بالقصر السلطانى . ثم قضى على الدولة المغولية فى عام ١٨٥٧ بعد « الثورة العسكرية » Mutiny التى أطاحت بها ، وسمح للحكومة البريطانية أن تعزل السلطان ويتغيبه الى رانكون ، وأن تنصب الملكة فيكتوريا امبراطورة الهند ، وإن بقى

عدد من نوبيلات الهند مستقلا اسما فقط . مرة أخرى خربت دلهي وام يعد يقطنها من المسلمين إلا قلة . ومرة أخرى يفقد غالب معاشه الشهري . كانت له المناسبات الصادقة مع بعض الولاة البريطانيين وكان قد ألف في منحهم وفي مدرج الملكة فيكتوريا قصائد طويلة مليئة بكلمات الزيف والرياء (حتى أن بعض النقاد المعاصرين له قد لامه على ذلك لأنه قد استعمل عبارات وكلمات لاتتفق بنصب عينه العالي الذي عبر عنه في سائر أشعاره ..) وصنف كذلك رسالة فارسية حول « الثورة العسكرية » مقتصرأ فيها على استعمال كلمات محضه فارسية قديمة تماماً . لكن حكومة صاحبة الجلالة لم تمنحه مع ذلك معاشاً ، فالتجأ إلى أحد السلاطين المستبدين ، سلطان رامپور (عام ١٨٥٩) ومدحه وابنه فكسب ١٠٠ روبيه بالشهر كانت تكاد أن تقطى نفقات ضروريات الحياة ، ودام المعاش الذي كان يتقاضاه من رامپور بعد رجوعه إلى دلهي .

وكان غالب قد تبني قبل ذلك بعدة ابن أخت زوجته الذي كان شاعراً موهوباً وتوفى في شبابه ، تاركاً وراءه ولدين صغيرين تيناهما غالب بدوره . وكان عليه أن يوفر لهما ولزوجته اللبس والطعام وكذلك الرزق لخاضعين أو ثلاثة ، لأنه كان سخياً إلى الغاية لم يترك من جاءه ملتجئاً وإن كان جائعاً هو نفسه .. يصف في مكاتبة كيف خرب بيته من المطر ، وليس له وسيلة لتعميره ، وامتلأت مكاتبه بشكايات وتعابير غم وحزن :

لأخاف أن قعر جهنم سيكون مكاني

وأسفاه لو صار مستقبلي مثلما هو حاضري .

هكذا قال في أحد أبياته . ومع ذلك كانت مكاتبه على هذا النموذج الأعلى للأسلوب بالأردية : سلاسة وفصاحة مليئة بالعبارات المليحة والافادات الحلوة ويبدو منها أحياناً لمعات المزاج .. وما زال غالب يصحح أبيات عدد من تلاميذه ويكسب بذلك أحياناً المال القليل الذي كان يكفيه لابتتياع الشراب الكميث منشطاً فيه سعة الخيال ملهما إياه برائع الأشعار .. وفي أواخر أيامه أصيب الشاعر بمختلف الأمراض حتى توفي إلى رحمة الله في ١٥ شباط ١٨٦٩ .

نسلم بأن سيرة هذا الشاعر لاتبدو جذابة للوهلة الأولى ، وإن شخصية غالب ليست مستحبة من النظرة الأولى: كبر ، تكبر ، انهماك في اللهو ، نفور من القيد الزوجي ، حب المجادلة ، حساسية شديدة . هل يمكن مزج كل هذه الصفات بانتاج شاعر كبير محبوب ؟ وانطرح نظرة على مصنفاته بالفتن اللتين أجادهما :

تشتمل آثار غالب باللغة الفارسية على الأسفار التالية : كليات نظم فارسي (نشرت حوالي عام ١٨٤٠) ، « كل رعنا » (الوردة الجميلة) وهي مقتطف من أشعاره الفارسية ، ومقتطف آخر أحضر كي يقدمه الشاعر لنواب رامپور عام ١٨٦٠ ، ثم « كليات نثر فارسي » ، وهي تاريخ آل تيمور لك الذي لم يتمم الشاعر إلا تصفها « بنج أهنگ » (خمسة ألان) وهي رسالة في الأسلوب الفارسي والإنشاء وما يشبه ذلك ، « قاطع برهان » وهو رد على القاموس الشهير « برهان قاطع » الذي اعتبره الشاعر غير كاف ، بل إنه ملئ بالأخطاء ، وصدر هذه الرسالة مرة أخرى بشكل أوسع وأكمل تحت عنوان « درفش

كاوياني» أي « اللواء الكاوياني» مشيرا بذلك إلى أسطورة « كاوه» الحداد الذي نشر لواءه في محاربة الطاغى ضحاك (على ما قص الشاعر فردوسي في « شاه نامه » ، فصار هذا اللواء رمزا لتعزيز الملة الايرانية في أوائل تاريخها و - عند غالب - لتعزيز اللغة الفارسية الطاهرة ...) ثم يوجد في هذه الكليات كتابه السابق الذكر في تاريخ الثورة العسكرية ١٨٥٧ المسمى بـ « دستانبو » . وله مقالات ورسائل في النحو الفارسي ، منها مجموعة شعرية مسماة بـ « سيدجين » زى « لمعان الإثمار » نشرت قبل وفاته بعامين.

أما باللغة الأردية فيوجد ديوانه ومنتخبات منه ، ثم مجموعتان من مكاتيبه « اردوى معلا » و « عرد هندی ».

ومن الغريب أن غالب الذي اشتهر فيما بعد بأكبر شاعر عرفته الأردية قد رجح قصائده الفارسية على أشعاره الأردية حيث قال :

انظر إلى الفارسية تنظر نقوشا ذات ألوان

دع المجموعة الأردية فهي بلا ألوان

أو أنه قال :

كان غالب عندليباً من حديقة العجم

وقد سمعته من غفاتي « بيغاء الهند »

ومع ذلك افتخر بأسلوبه الأردى فى مقطع إحدى قصائده حيث قال :

إن سأل أحد كيف أصبحت الأردية تثير غيرة الفارسية

قل له : انظر إلى شعر غالب هذا - هكذا !

وله فى الفارسية سبعين قصيدة بالمعنى القديم ، أى أشعار مدح طويلة ، يحمد فيها الله تعالى ومحمد الرسول وعلى بن أبى طالب (وكان شيعيا مع أن عائلته من أهل السنة والجماعة) وملوك الهند وولاية بريطانيا فى الهند : وفى أشعاره هذه الأخيرة كان مقصده طلب المال أو قصد الجاه على أكثر تقدير . أعجبه أشعار « السبك الهندى » فى أوائل الزمان وقلدها ، بالخاصة أبيات « نظيرى » ولا يمكن للقارئ غير الايرانى أو الهند - باكستانى الإجابة عن السؤال عما إذا كان غالب يرجع فى الحقيقة إلى « الفارسية الفصحى الكلاسيكية » فى قرض أشعاره - هذه الفصحى التى استعملها « حافظ الشيرازى » أو « أمير خسرو » أو « على حزين » - أم لا ؟ بل يبدو على القارئ الغربى أن أسلوبه فى الفارسية كان أم فى الأردية يشبه أسلوب معلى « السبك الهندى » حتى أنه يفوقهم فى إبداع أنواع من الإيهام وتركيبات الكلمات وكتابات غير معتادة . لذلك كانت ترجمة أشعاره إلى لغة ما أن تكون مستحيلة . ولكنه من الممكن أن تقتطف بعض أفكار غالب ونشير إلى خيالاته العامة ولعل القارئ سيفهم لماذا أحبه الملايين فى الهند - باكستان .

يبتدى ديوانه الأردى ببيت لم يسبق مثله فى أول مجموعة شعرية :

نقش فريادى هى كسكى شوخى تحميركا

كاغذى هي بيرهن هر بيكر تصويركا

من جراءة كتابة من يشكو النقش ؟

إن كل رسم وتصوير ذو لباس من الورق.

ماذا يعنى هذا البيت ؟ يتعلق هذا المعنى بتعبير « لباس من الورق » . فقد جرت العادة فى القرون الوسطى أن يأتى المدعى الى المحكمة فى لباس من الورق ويرقع شكواه على خصمه ، وكان شعراء إيران والهند يستخدمون الإشارة الى تلك العادة كناية عن « تأليف كتاب » أو مايشبه ذلك ، ويتخيل غالب أن كل نقش وكل حرف مرسوم سوف يشكو اسمه فى المحكمة العليا ، فان كل حرف وكل تصوير لا يظهر إلا على ورق الكتاب أو المكتوب ، أى فى « لباس من الورق » وكل منها يدعو الى الله شاكيا من كذبه أو من رسمه ، أو ، على الإطلاق ، كل شكل مخلوق يشكو خالقه قائلا « يارب لماذا خلقتنا - إنك أردت أن تعرف كالخطاط والنقاش العظيم ، أما نحن فمبتلون بالآف البليات والأرزاء » .

يدل هذا البيت الاستهلاالى البديع على أمرين فى شعر غالب : فالشكوى الأزلية موضوعه الدائم ، كما كان رمز الكتابة والورق والقلم من أشد الرموز محبة إلى قلبه . ومن ذلك أنه يصف ليلة الهجران وحلكتها بقوله :

إذا سال الحبر (الأسود) على الورق عند الكتابة

صارت (الكتابة) تصويرا للبالى الهجر فى قدرى

والحبر وليلة الهجران والقدر (كما دعاه الإيرانيون والأتراك « بخت سياه » « قدر أسود » كل منهم أسود وكل منهم يذهب بخيال الشاعر إلى السوداء ، إلى الملائخوليا ، التى لاعلاج لها .

قال غالب فى أحد خطاباته « لاعلاقة لى بالأشعار الغرامية ، بل إني بعيد عنها بعد الكفر عن الإيمان » . يعنى بذلك الأشعار الغرامية الضعيفة فان أبيات مليئة بروح العشق المطلق ، ذاك العشق الذى يعدم العاشق ، قاطعا عنقه ، خارقا قلبه ، حارقا داره .. ومن المعروف أن شعراء العجم كانوا يصفون المعشوق بأنه جبار ظالم لاغاية له سوى قتل العشاق أو جرحهم ، أو أنه لايهتم بالعشاق - وهم ، مع ذلك ، سعيون يطلبون زيادة الالام . ولايتميز « معشوق » غالب أو معشوقته من ذلك النموذج المتوارث وإن زاده أحيانا بجانب جديد هو التطرق إلى وصف ظلمته كى يشتد اشتياقه إلى الموت والفناء والعدم .

ولكننا هنا طرف آخر : فان مقصد شاعرنا ليس الوصل أو الوصال بالمحبوب بل المعراج غير المنتهى من إحدى درجات الالام إلى درجات أخرى تعلو عليها فون نار تلهب قلبه إلى نار أحر منها تحرق قلبه وكبدته ، ومن سهام تحرق صدره إلى سهام أقوى منها تمرق صدره وكبدته معا كيلا يتبقى فيه عضو سالم ..

هو شاعر الحركة اللامتناهية والاشتياق اللامتناهى . انظر إليه كيف يخاطب معشوقه قائلا :

تعال كى ترى هيجان اشتياقى لأراك

وترى كيف أسيل من أجفانى مثل النور

إن هذا الشوق الذى يبذل الشاعر إلى دموع تشتاق النظرة إلى محبوبته هو القوة الباطنة فى الدنيا

والآخرة.

إنه الشوق الذى رفع الحلاج فوق حبل المشقة حين بشر بالتوحيد،

إنه الشوق الذى مات منه « قرهاده » موتاً صعباً ،

إنه الشوق الذى جعل « مجنوناً » يهيم فى الصحراء ..

والشوق لا يبلغ أقصى حده فى هذه الدنيا ، وإنما ، بالعكس ، اليوم فى الآخرة كذلك . يستعمل

الشاعر الفكر الصوفى القديم القائل بأن الجنة لا أهمية لها (كما قالت رابعة العدوية لأول مرة) وأنها

مقام لأهل التقوى والزهد ، لا لأهل العشق ، فانهم يشتاقون إلى رؤية الله ، ويدخلون فى أعماق

الالوهية التى لانهاية لها . قال غالب فى هذا الموضوع (الذى يكثر ذكره فى أشعاره):

لانتطلب الظل والينبوع فى حرارة علونا

لاستطيع التكلم معنا فى الطوبى والكوثر ..

وإن وقف الشاعر فى سيره هذا وارتاح فمن ضعف ، لا عن قناعة :

تركى الطلب عن ضعف ، لا عن قناعة

أنا الويال لراحة الهمة العالية

أى عدى من الشوق والطلب ما يهيج المكان الذى يستريح فيه أهل الهمة العالية ، فانهم يحتاجون

إلى الراحة أحياناً ، أما أنا فخشيت الشاغل أيقاظهم من الغفلة ليروا عجلتى وطيرانى إلى منتهى

المنتهيات.

أيضاً كان الشاعر ، يشتاق إلى السعة ويجاوز بذلك « مجنوناً » الهائم فى الصحارى :

حتى فى الحبس والقيد كان خيالى هائماً فى الصحارى .

يشبه الشاعر نفسه بالساحل الذى يريد معانقة البحر الواسع ، ويكرر الرمز القديم للقطرة والبحر ،

وهو الرمز المحبوب عند الصوفيين الذين رأوا فيه فناء الروح الفردية فى بحر الالوهية الرحب . وجعله

غالب رمزاً للهمة العالية قائلاً على سبيل المثال :

إن الحنان الذى لم يرد على الشفة صار سمة للقلب

للقطرة التى لم تصبح بحراً صارت رزقاً للتراب

هذا ماسيقوله « محمد إقبال » فيما بعد فى عدد كبير من أشعاره .. ولكن غالب قد استعمل هذا

الرمز بصورة أخرى:

منذ الأزل كان التوفيق على قدر الهمة :

إن القطرة التى لم تصبح نبرة بعد ، لفى عيني ..

أى أن التمعن الذى فى عين الشاعر أكثر قيمة من الدرر ومن البحر الذى يحتوى على مثل هذه

الجواهر ..

ولاسكون فى الدنيا ولراحة ولاطمئنان .. إن التفكير فى الموت يحفز المرء على فعل الشئ الجديد ،

ذلك أن فكرة الموت هى القيمة الوحيدة فى الحياة :

ما أشد شوق النشام ، ما أحره !

لولا الموت لما كان ذوق الحياة موجوداً !

بلى ، فإن الموت ميزان الأعمال ومعيارها - لكن قلب غالب لا يسكن عند هذا الفكر : لا يطلب
اطمئناناً عسى أن ينعم الموت به عليه ، وإن أفاد تارة عن أمنيته « أن أغرق في البحر ، بلا جنازة
ولامقبرة ففتسانى الناس وذنبى » .. بعد ذلك يجمع همته مرة أخرى ويفتخر قائلاً :

مع أن فكرة الموت تنعم على القلب الجريح بالسكون

لكنه صيد لنى فى حيل تمنياتى.

أى أن الموت كالعصفور لايهتم الصياد بصيده بل يطلب ما أحسن منه وألذ..

البلاء ، الألم ، الويال - هذا مايشغل قلب الشاعر ويهيج كل هيجان . لا أظن أن أحداً أفاد عن
المناسبة بين البلاء والهيجان برمز أفصح من الرمز الذى أبدعه غالب :

لترقص بنوق البلاء مثل انعكاس القنطرة فى الماء

عليك بالمقام ، ولترقص فى أن واحد مفترقا عن ذاتك !

لاتزال القنطرة ساكنة غير متحركة ، ولكن الانعكاس الذى كان نفس القنطرة وغيرها فى عين
الزمان ، يرقص ، يتحرك عندما تجرى الأمواج أو تلمس أيدي الريح سطح الماء..

كل لمسة تحرك قلب الشاعر ، ولو كانت لمسة شعاع الشمس :

قد تزلزل قلبى من زحمة أشعة الشمس

أنا هو قطرة ألم التى سقطت على شوك الصعراء.

عرف غالب أن هذه الحياة لارحمة فيها وأنه لادية للدماء المسفوكة هناك : لماذا يشكو الضمار الذى
ينبت على رأس الطريق إن مسه قدم ظالم غافل ؟ فانه

لا دية حتى للوردة فى دين القدر..

ولكن هناك أشعار بلا عدد ينشد الشاعر فيها شوقه على طرز آخر : شوقه نار ، نار حارقة ، تحرق
كل ما فيه من الأحاسيس ، من الأخيلة ، من الأفكار .. من الطبيعى أن شعراء كثيرين من قبله كانوا قد
تكلموا عن نار شوقهم وشعلة عشقهم ، وأن كناية الفراش الذى ألقى نفسه فى نار الشمعة لينوق الفناء
الكامل والوصال الذى لارجعة عنه ، كانت رمزا متوارثا منذ عهد الحلاج ، كما أن رمز الشمعة نفسها
التي تحترق باكية فى محفل المصيب كثيرا ما صار يستعمل فى الأدب الفارسي دلالة على الشاعر
العاشق .. أما عند غالب فيتجاوز استعمال عبارات « نار » « حرق » « دخان » « سمة » « برق » كل تلك
الصور :

ما أحسن حالى ! جسمى نار ، فراشى نار

أين الحب (كاسر العين) كى أقنقه على النار !

أراد أن يصبح رأسا نارا :

إلام يتصاعد دخان الشكوى من بيانى

ألهب النار حتى يغيب السمع !

أى أن هذه النار تهلك حاسة السمع كى لاتصغى إلى الشكوى المتصاعدة من كلمات الشاعر كأنه دخان .. وهنا أبيات لا عد لها ذكر الشاعر فيها « قيد النار » فى قدميه أو الألعاب النارية التى تتصاعد من شرر قلبه ، أو البرق الذى يحرق حصاد عمره (ويظن أن النار كامنة فى التبن الذى ينتظر البرق ليتحد بناره ، كما أن الدم محفوظ فى العروق ينتظر مجئ سهم المعشوق ليسيل من البدن) .

وله قصيدة قافيتها « جل كيا » أى « قد احترق » : احترق قلبه من النار الباطنية ، واحترقت الصحراء عندما تخيل الشاعر وحشته ، ولولا أن كان الشاعر فى مقام العدم بل فيما وراء العدم لحرق حنينه الحار جناح العنقاء .. أما أجمل بيت فى هذه القصيدة العجيبة فترجمته كما يلى :

لم يبق فى قلبى نوق وصال أو نكر معشوق

قد مست النار هذا البيت ، واحترق كل ما فيه .

ولله در الشاعر الذى ذهب إلى هذا الحد من اليأس وماذا يبقى إذا احترق حتى ذكر المعشوق ؟ وهناك أبيات شبيهة بالبيت المذكور عند غالب ، خاصة عندما يصف الحب الإنسانى وهو الذى كان يعتقد أنه لانتيجة للمحبة إلا الغم والالام . وإن كان الشاعر « نظيرى » قد شبه الغم بالجرح الذى طاب والتأم فقد وصف غالب حال العاشقين فى صورة استعارة غريبة حاسمة :

مارأيت محصول الألفة إلا انكساراً لآمال الأمانى :

إن يتألف القلب بالقلب فهو مثل شفتى الحزن .

كل عمل فى الحياة صعب ، كل فعل صعب ، وإن يبدو سهلاً فى بدايته فهو شديد العسر : حتى الآن قد جانب التوفيق ابن آدم فى أن يصير إنساناً .

لا ، لم يوفق الإنسان أن يبلغ هذه الدرجة العليا ، أى درجة الإنسان الكامل ، وكيف يمكنه أن ينتهى إليها ؟ فإن

قيد الحياة وغلاغل الغم فى الأصل شئ واحد

لا ينجو الإنسان من الكابة قبل الموت ...

هذا وبعد دقائق معدودة (لعلها كانت أياماً بل أشهراً طويلة فى حياة الشاعر الروحية) رفع رأسه

من فوق « ركة اليأس » وجادل القضاء مخاطباً القارئ :

اغتمت يا قلبى نعمات الغم

آلة الوجود ستصمت يوماً ..

وعلى طرزي صوفى خفيقي يترنم نوق البلاء فى أحد أبياته الشهيرة :

إن اعتاد المرء الالم سكنت آلامه

ولإن تراكمت على المشاق ، صارت سهلة .

ويتبسم القارئ فى سعادة تامة حين يصادف بعد أن يطالع الكثير من قصائد غالب ذات الاستعارات الغريبة والرموز المعقدة سطراً أو بيتاً بسيطاً كل البساطة يفيد فيه الشاعر عن هذه الأفكار



الرفيعة - وعده أن الهجر والوصال في الأصل هما قطبا الحياة وأن الهجر يسبب الشوق الأبدي (كما قال كذلك « محمد اقبال» فيما بعد) ، وقال في ذلك غالب :

للوداع والوصال لذة خاصة :

رح ألف مرة ، عد مائة ألف مرة !

علينا أن نتفش عن أفكار غالب الدينية . كانت له أشعار في حمد الله ونعت الرسول ، ويخاطب ربه ببعض أبياته في الفاظ خشنة على طريق بعض الصوفيين القدامى بعلومه ، مثلا ، على أنه أحل الخمر للنصارى والمجوسيين وترك المسلمين المساكين عطشى . (ومن المعلوم أنه كان يحب الخمر ويكتب كثيرا من شعره وهو يشرب) أو أنه يشكو ظلم القدر الذي

أجلس يزيد على سرير الخلافة

وجعل موسى الكليم راعياً في البادية

ويوجد له أبيات ذات ريق وعبارات رائعة في دعواته الشعرية ، مثلاً في هذه الأسطر:

أي ذاك الذي حاك عين إبليس بآبرة القدر

وحرق جناح جبريل بنفخه الحار:

أنا في معيتك مسرور الخاطر كموسى الكليم على جبل الطور

وأنا مع نفسي مجهد مكسور الجناح كعساكر فرعون في النيل ..

ويسأل في مطلع بعض قصائده :

عندما لم يوجد شيء كان الله

ولو لم يكن هناك شيء لكان الله موجوداً

قد بأسنى الوجود ، ولو لم أكن موجوداً ، فما الذي يكون ؟

أي : لو لم أكن موجوداً لأبأس في أن أكون أو لا أكون ،

أو : لو لم أكن موجوداً في هذه الدنيا لكنت في العدم،

أي كنت جزءاً من الله ، غير مخلوق بعد ولا معرضاً للكرب والالم والحقارة.

يعد من أحسن قصائد غالب القصيدة التي ألفها في نعت الرسول والتي يصور في ابتدائها ذنوب

شبابه:

كنت دائماً استمتع بالخمر واللهو والمسررات والذات

وكان عندي الشعر والشاهد والشمعة والشراب والميسر

بلا انقطاع ، سكران في الليالي ، نائم في الصباح ،

وعندي ألوان الدفاتر للشعر وأشعار رائعة..

هكذا راح يعد أذنبه واتهماكه في لذات الحياة الباطلة

في أكثر من عشرين بيتاً حتى يتوب إلى الرسول الأكرم قائلاً :

والآن قد صرت رجلاً صار وجهي أشبه

إلا إذا وضأت عذارى بدم النموع ألف مرة..

ويسود الافتراض بأن هذه القصيدة التي تعد من أرفع قصائد الشاعر أسلوبيا وأعمقها حسا كانت قد ألقت بعد عودة غالب من كالكويتا ، أى عندما كان فى الثالثة والثلاثين من عمره أو ما قارب ذلك .. ويكرر الشاعر دعاءه مراراً ، ولعل أحسن شعره فى هذا الطرز هو مايلي :

كيف لايتعب القلب من دوران الشراب

فأنا إنسان ، وما أنا بكأس ولا إناء (يبور فى مجلس الشراب)

ياربى ، أفناني الزمان - لماذا ؟

لست حرفا مكررا على لوح العالم

يجب أن يكون للعقوبة حد-

أنا فى الأخير مذهب لا كافر

أجل ، عرف الشاعر أنه مذهب وأحيانا ماكان يقتخر بذنوبه :

أنا من أبناء آدم ، ولى فطرة آدم :

أصبح علانية صيحة العصيان..

كان لطمة أمواج القدر من دار الى دار ، وإن كانت سيرته لم تشبه سيرة مسلم تقى مطيع لأوامر الشريعة كما كان لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، فقد عشق الله بشوق واشتياق، اعترف أنه تعالى خالق الآلام والغموم وأنه « ألقى العشاق فى موضع الحبل والمنشقة » كما فعل بالحلاج ، ثم عاد الشاعر يمدح فى الوقت نفسه كبرياء الله ويصف معراج الذين يطلبون التذنى إليه:

للذين سلكوا طريقك صارت الأفلاك التسعة

كالجرس فى عنق الإبل فى القافلة..

يدعو إلى السفر إلى غاية لن يبلغها الإنسان أبداً .. من أبيات كالبيت السابق ذكره نفهم لماذا دعا « محمد إقبال » غالب « أستاذة الأكبر وذكره فى كتابه « جاويد نامه » - فلك المشتري - فى صحبة العلاج الذى يجرى ذكر اسمه كثيرا فى أشعار غالب . رأى « إقبال » فيه قوة الشوق الذى جعله بديرة مركزا لنظامه الفلسفى ومداره.

كان غالب ذا فخر شديد ، ظن أن شعره كان ملهما وأن جبريل ماكان إلا « حادى قافلته » الشعرية . سلاه الفكر أن مواطنيه سوف يفهمون أشعاره ويقدرون قيمته فيما بعد ، على ماقال :

طلع كركبى الى سميت القبول فى العدم

سوف لايعرف شعبرى فى العالم سوى من بعدى.

إن فهم شعر غالب صعب للغاية ، وأحيانا مايبقى القارئ فى دهشة وحيرة إن لم يوفق فى حل استعارة أو جملة معقودة ، ومع ذلك تجذب هذه الصنعة الكثيرة الفنون ، خاصة إذا كان إخصائيا فى تاريخ الأدب الشرقى ويبرى كيف يشبك الشاعر الالفاظ ويفسر الرموز القديمة على نحو جديد . لوكان غالب أحد الشعراء الذين يمتازون بالفن المحض والصنعة البلاغية فحسب لما أحبه أهل الهند -



باكستان حبا صادقا ، ولكنه كان انسانا ، ضعيفا ، متكبرا ، مستغرقا في أعماق نفسه - فلا عجب أن كانت أحد تعابيره المحبوبة « اكشط » ، اكشط الجرح كي لا يلتئم » وكانت حساسيته البالغة بأنى أمواج الزمان تمكنه من الإفادة عنها بالشعر ، وكان مثل آلة عازفة عندما تمسه الريح أو كلمس الأنامل الخفيفة . ليس الشعر الفارسي أو الأردى محصول إلهام الشاعر ، بل هو محصول عمل ذهني طويل ، ولكنه إن يفقد الإلهام فلا يبقى إلا قشرا أو هيكلًا مصطنعا لانوام له . (أما غالب فقال واصفا شعره : أقول لك نهاية الفصاحة:

هى أن تجذب دم الكبد من عروق الكلام.

على الشاعر أن يكتب أشعاره بدمه وأن يبصر الدم الذى يجرى في عروق الكلمات ، مدركا إمكانات العبارة والإفادة وعليه كذلك أن يبصر بعين قلبه مالم تخلق بعد من الظواهر كي يشكلها كما يشكل المثال الرخام الغفل.

كان غالب يعيش في عهد انحدار سياسى واجتماعى ، فقد أصيبت حضارة مسلمى الهند بكبوة بعد ازدهار ، جعلتهم يطلعون من جيهم الى ماكانوا فيه من سؤدد ، بينما هم نادراً ما يرون خفوة الحياة الجديدة وبنفسها . وماكان غالب شاعراً مجدداً أو مصلحا اجتماعيا ، لكنه امتنع عن الخضوع والتسليم الانفعالى ، وفهم معنى الأوجاع وتحقق أهمية الالم كسوط يسوق الإنسان إلى ما يملوه ، وفهم كذلك أهمية الشوق كالجرس الذى يهذى قافلة الحياة إلى فضاء ميادين الله . قيل إنه لم يكن حائزاً على الرؤية البناءة ، أى أنه لم يبن بناء جديداً للدين أو اللغة ، أو أسس مدرسة أدبية تخدم مقاصد المسلمين أو قل ماشتت - ولكنه كان بصيرا وقد أحس هذه الإمكانيات ، فكانه يصف نفسه في سياق الأجيال القادمة إذ يقول :

بصيرا كان من يبصر رقص أوثان أثر في الحجر

قبل أن يمهّد للعشق..



سافنسى حتى يبلغك عشقتى

مختارات من غزليات : مرزا أسد الله غالب

ترجمة وتقديم: هانى السيد

يحتل " مرزا أسد الله خان غالب " (ت ١٨٦٩م) مكانة رفيعة فى الأدب الأردى على الإطلاق . وما زالت سطوته الأدبية تسيطر على أذهان العديد من الكتاب المعاصرين . نشأ فى بيئة أدبية ، فرغم وفاة والده وهو فى الخامسة من عمره ، إلا أنه قد تعلمذ فى بداية حياته على يد الشاعر الكبير " نظير أكبر أبادى " ، كما كان يجالس كبار كتاب عصره أمثال شاه اسماعيل وسيد أحمد خان والشاعر شقيقته .. ولواجه بالشطرنج نأتى عن أسلوب الدراسة التقليدى آنذاك وقام بتنقيف نفسه بنفسه . بدأ - كمادة أغلب شعراء الأردية - بنظم الشعر بالفارسية ، ولكنه اتجه بعد فترة لنظمه بالأردية التى كانت سبباً فى تخليد ذكراه .

تجدر الإشارة إلى التباين الواضح بين مفهوم الغزل فى الشعر الأردى ونظيره العربى . فالغزل فى الشعر العربى لا يتعدى معناه اللغوى . أما فى الشعر الأردى فهو قالب شعرى خاص استلهمه شعراء الأردية من الشعر الفارسى ، وهو عبارة عن مجموعة أبيات متحدة الوزن والريف ، يتساوى معهم فى ذلك الشطر الأول من البيت الأول . ويتراوح عدد أبياته من خمسة إلى ثلاثة عشر بيتاً ، يسمى البيت الأول " مطلعاً " ، والثانى " حسن مطلع " والآخر " مقطعاً " وفيه يذكر الشاعر " تخلصه " أى " لقيه الأسمى " . هذا ويخلو " الغزل " من الوحدة العضوية فكل بيت موضوعه الخاص - أى كان - ككته قصيدة بذاته ، فتتدر الغزليات ذات الموضوع الواحد .

لذا أرجو أن تقدم هذه الإضاءة السريعة ثمة إضافة للقارئ فى تلقيه لترجمة مثل هذا النوع الأدبى الخاضع لساوابع فنية صارمة فى لغته الأصلية ، تجعله أكثر عرشة لاقتقاد جمالياته الخاصة جداً بعد ترجمته إلى لغة أخرى .

ما من أمنية تتحقق

إن كان الموت أجل مسمى

كثيراً ما أضحكك حال قلبي

أعلم مدى ثواب الطاعة والزهد

أصمت لشيء بداخلي

إن لم يكن صوتي يتأهلي إلى سمعه

إن لم تتراءى لك حرقه قلبي

إنني أقبع في بقعة

أنوب شوقاً للموت

بلى وجه تجمع إلى الكعبة يا غالب

أنى لى يمسح

إنى أقر بأن مال الأمور إلى الشرع والقانون

يسير كائنه سهم منطلق من قوس مشوق

يصمت اللسان بحضوره خوفاً

ترى بم أهلى حال جنونى

لا تنصت إلى من يتلو عليك السوء

أزجر من يسعى إلى خطيئة

من ذا لم يبل بشظف العيش

ماذا فعل الضمر مع الاسكندر

وما من سبيل إلى تحقيقها

فهل للنوم أيضاً - أجل لا يأتى إلا فيه

أما الآن فما من شيء يضحكك

لكننى لم أمض إليهما بعد

وإلا فما يمنعنى من الكلام

فلم لا أصرخ حتى يذكرنى

فهل لا تنفذ إليك رائحتها يا طيبى

تنقطع فيها أخبارى عنى

لكنه لا يأتينى

ألا تخجل من نفسك

يـداوى الأمل

ولكن كيف يدان قاتلى

فمن ذا يمكنه أن ينفذ إلى قلبه

أليس من الأفضل إذن أن أصمت

(أنا الآخر)

أدورى إلا بفهم أحد شيئاً من قولى

وأصبر على من يطعنك بقول سوء

وأعف عمن اقتترف إثماً

ومن ذا يليى حاجة إنسان ما

ومن يتخذ الآن من أحد مرشداً

مأذمت أمالك قد تلاشت يا غالب

فما فائدة شكواك الآن إذن !

وقد أداً يتوق إلى الهراخ

حين تذكرت لحظة سفرك

أتوق إلى تلك النظرات الساحرة

فقد كبت استغيت لكى تذكرت حال

(كبدى)

وتذكرت عيوناً تغمرها لموع

قامت قيامة ولم تهبط

مما أمون أمنياتى ، حين

استنشدك العفو يا حشرة قلبى

كان يمكن للحياة أن تمضى هكذا
كم سيكون خلافاً مع الرضوان شديداً
أه أين الجراءة على الشكوى
وينرنو إلى دريك خيالي
ثمة صحراء جنباء على مدى بهري
كلما رفعت حجراً

تتشدد أهاتي عمراً تماماً كي يبلغ أثرها مداه
في كل موجة شبكة نسجت من طوق التماسيح

أنسوء بالعشق والصبر والأمنيات

أيقنت أنك لن تتجاهلني لكنني
يتلقى الندى دروس الفناء من أشعة الشمس

إن هذه الحياة ماضي إلا نظرة واحدة ، أبها الفافل

لكن لم أتذكرك حين تمر أمامي
حين أتذكر بيتك ، فلتا في جنة الخلد
سئمت من قلبي لكن أعرف حال الكبد
عله تذكر قلبي الخنائع
حين لحقتها تذكرت بيتي
أقذف به المجنون بالصبا يا أسد
تتذكرت رأسي

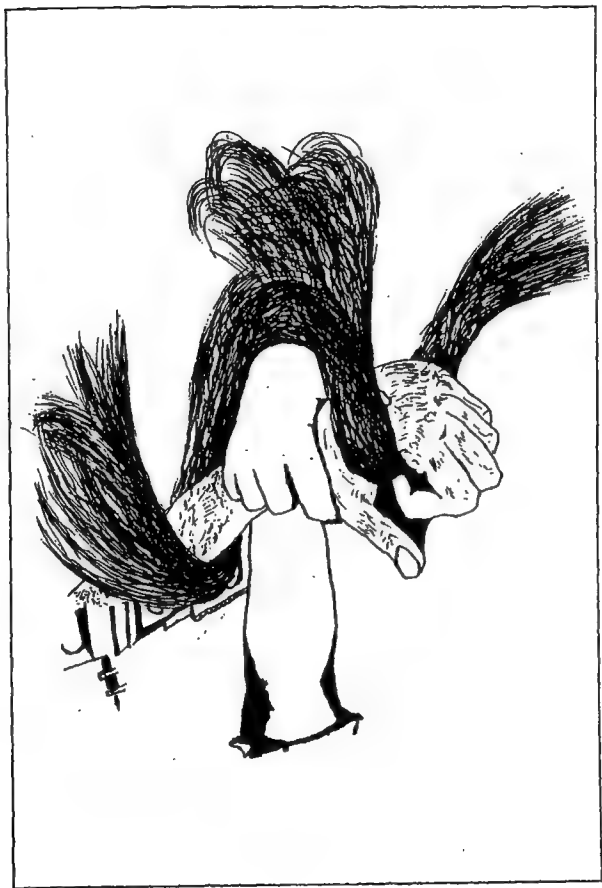
من ذا يحيا حتى يبلغ قمة خصلتك
ماذا يمر على القطرة من أحداث
حتى يصير للؤلؤة

لا أدري كيف أسيطر على قلبي
حتى يصير نماء

سأقنني حتى يبلغك عشقي
وأود أننا أن تمتحن شعاعاً من
نظرة صلف حتى أصبح مثله

وكل هذا الصخب جفوة من شرر متطاير

ليس للحياة دواء عدا الموت يا أسد
فالشعلة تحترق على أية حتى يحل الصبح



الديوان الصغير



نسبح نحو مدخل البحر

شعر : كاسيلا يول ايده

ترجمة وتقديم: وليد الكبيسي

إعتاد مترجمو الأدب دائماً على اختيار الأسماء الكبيرة والمتميزة . وهذا مادفعني سابقاً إلى ترجمة علمين من أعلام الشعر النرويجي هما : هوفارد ريم ، وأرلنك كلتسن . والأعلام دائماً ينتمون إلى جيل سابق . فالبروز الثقافي للأسماء في بلدان أوروبا لا يعتمد على دعم مؤسسات وأحزاب ، فشعراء الأحزاب والمؤسسات لا وجود لهم في النرويج . وهذا ما يجعل طريق الصعود إلى القمة شاقاً ومجهداً ويتطلب من الأديب والشاعر والروائي أن يؤكد استحقاقه من خلال نتاجه الإبداعي .

ولأن الطريق طويلة تستغرق جيلاً كاملاً أو جيلين لكي يؤكد الأديب والشاعر اسمه للصحافة والقراء والمؤسسات الأدبية والثقافية كيما يصبح « كبيراً » . فإن اختيار المترجمين دائماً لا يقدم واقع الشعر والأدب عند الترجمة ، بل لفترة الجيل أو الجيلين السابقين . فإذا ما أردت ترجمة البياتي أو سعدى يوسف إلى النرويجية فانتى سوف أقدم شعراً لجيل سابق . أما إذا أردت أن أقدم الشعر المعاصر في عالمنا العربي ، فلا بد من اختيار شعراء تبلغ أعمارهم بين العشرين والثلاثين .

وهذه الفكرة هي التي دفعتني إلى ترجمة مجموعة " كاميليا يول أيد " « نسبح نحو مدخل البحر » . فالشاعرة من مواليد عام ١٩٦٤ ومجموعتها صدرت عام ١٩٩٧ ، وهي المجموعة اليتيمة التي أصدرتها . لكن الصحافة احتفت بالمجموعة . ففي النرويج التي يبلغ تعداد سكانها حوالي أربعة ملايين ، لا يخلو شارع أو منطقة من مجموعة شعراء ومؤلفين . حتى أن أحد الكتاب الساخرين كتب مرة « إن في النرويج أربعة ملايين مؤلف » . ذلك سببه أن النرويج بلد متحضر خلق مجتمعاً للرفاه ووفر الوقت للمواطن كي يقرأ . الشهادات الجامعية صارت ضرورية لمن يرغب في الحصول على عمل . وعدد حاملي الشهادات العليا نسبة لعدد السكان يزيد على أغلب الدول . فالحصول على الماجستير والدكتوراه بين معلمى المدارس الثانوية صار عابياً . ولأن شتاء النرويج تكله الثلوج ويفطيه الظلام الطويل ، يقضى معظم المواطنين وقتهم في القراءة . وهذا ما ينتج عنداً كبيراً من المؤلفين . ولذلك فالكتاب الذى يصدر كتاباً تكتب عنه صحيفة أو صحيفتين ، يعتبر من المحظوظين ، نسبة للعديد من المؤلفين الذين يصدرين أربعة أو خمسة كتب من غير أن يشير أحد إلى كتبهم في صحيفة أو مطبوعة أو جهاز إعلامى كالراديو أو التلفزيون . ولذلك فعندما صدرت مجموعة كاميليا يول أيد « نسبح نحو مدخل البحر » كتبت عنها ١٤ صحيفة ، مع أنها أول مجموعة تصدرها الشاعرة . ولذلك فكرت بترجمتها لأنها تعطى القارئ العربى انطباعاً عن الشعر النرويجي المعاصر الذى يكتب هذه الأيام مما يعتبر جيداً حسب النوق النرويجي .

عندما صدرت المجموعة كتب عنها النقاد في صحف عديدة . كل ما كتب عنها كان إيجابياً . وربما كان سبب اهتمامهم هو أن الشاعرة تكتب قصائدها بلا نموذج سابق فالشعراء يناقشون بأخريين ممن سبقوهم في ضمائر الكتابة ، وربما يقلدون شعراء آخرين ، ثم يعثرون بعد ذلك على أسلوبهم الخاص . مع ذلك فتمتص كتاباتهم تدرج تحت مدرسة هذا الشاعر أو ذلك . أما مجموعة كاميليا يول أيد فأنها تقدم شعراً بلا ذاكرة نموذج ، إنما تتخذ من الطبيعة نموذجها فتكثف الماضى والحاضر والمستقبل في اللحظة - لحظة القصيدة « وقد تبدو المجموعة للوهلة الأولى صعبة الفهم ، لكن هذا الانطباع لا يلبث أن يتلاشى بعد القراءة العاجلة الأولى » كما كتب أحد النقاد . « والإنسان الذى يشبه بذرة صغيرة في هذا الكون الواسع ، هو الذى يغذى صورها الشعرية بالقوت . إذ أن كل قصيدة صغيرة إنما هي لؤلؤة

ثبت على الادعاء بأنه كان بريئاً .
 وحاول المحامى أن يعيد القضية للمحكمة ثانية ، فلم يفلح فقد رفض المدعى العام تسليم الأدلة ثم ضياعها ، وهكذا قضى المسكين مدة للحكم المؤبد وهو ٢٠ عاماً وخرج من السجن إنساناً محطمأ .
 كاميليا يول زیده سمعت بالقضية منذ أن كانت تدرس الماچستير . فاختارت كتابة دراسة عنه ضمن سياق دراستها فى الجامعة . فزارته فى المقهى الذى يلتقى فيه يومياً وكتبت الدراسة وقدمتها لمشرفتها فى الجامعة . لكنها لم تشعر بأن التعاطف مع المضطهد يكفى للتعبير عن رفض الظلم . وهذا ما جعلتها تقرر درس القضية بشكل تفصيلى وتأليف كتاب عن الحكم والمحكوم . بعد صدور الكتاب قررت المحكمة العليا فى النرويج دراسة القضية من جديد من أجل تقييم مسألة إقامة دعوى ضد الحكومة لما يسمى بالانتحار القانونى ، وهو الخطأ فى حكم ظالم سلب حرية مواطن بالباطل واكتشاف البراءة بعد فترة طويلة من تنفيذ الحكم . ومن المعروف أن فولتير قام بنفس الامر عندما ناصر مواطناً محكوماً ظلماً وكان حكم المحكمة خاطئاً .

القسم الاول

اذا كاميليا

خطواتى

لها صدى على الأسفلت

إذا ماتحركات

إذا

ماتحركات

**

أفق

رمل دافئ زمادى أبيض على طول الجسد

يد الشمس تربط خيوطاً من بشرتى إلى الأفق

نفض أصوات الامواج

يرمى نور البحر الأخضر على العينين

إننا نسبح نحو مدخل البحر

**

بجانب السرير . الضوء الأبيض . ملامحك عليها حفر . تحدثنى أنك كنت مصوراً قبل الحرب .

الجديد فى الأمر هو أن ثمة من يوشك أن يرحل من النافذة ويختفى . شعور بامرئين مختلفين . وفى

الواقع فقط فراغ .

تتصور أنك ستشفى .

أشعر أن قدمى ليستا على الأرض . تجهم يثبتنى فى الغرفة .

تجهم . وجه . أعرف أنك تبحث بدقة فى وجهى بعينين من كواكب بعيدة .

**

نسيان

أدير وجهي بعيداً عن متاف المحار

وأنا في البيضة

أسمع صدى المرجان الأحمر

أشعر

برمية رصاصية في داخلي

**

لذكوري

يتلامع شعرك

تؤشر على رب اللبانة في جيبك

البحر ، رقائق فضية محاكة مع بعضها

اللسان يلتقط البوارق المتحركة

**

عميقا عميقا كما في قناة ، في القعر أنظر إلى مهد أحمر اللون صغير في الماء الأسود الذي تكونه
عيناه . ولدٌ ولد مبكرا - نحيل ، هزيل - وهمد بسرعة نفس المساء .

الرجل الكبير يتنفس بصعوبة . قلب صغير يدق داخل سفينة كبيرة . باب مفتوحة على مصراعها
(حسب العقائد المسيحية في المجتمع النرويجي إذا كانوا ينتظرون موته ، كي يدخل الجنة ويثال الفلاس .)

**

خلف الوجه تنق الأجراس

ظلال طيورك

تصيبني في أسفل حنجرتي

الأكسجين يتكثف

كثلة لا أستطيع أن أبلغها

ثم تختفي يهدوء

في الطبيعة الجافة

على اللسان يلتصق طعم

معدن التشريح

تحت الغشاء

سبحني بدم غير مخفف

تحت الظلام الهابط من السماء

العين تغطس في البحر
بهدهوء نحو القعر البارد
حيث القمر يسحق العظام
ليحولها الى غبار نجوم

أبى
قطرة دم على ورقة بيضاء
لاجئ من مدار الأعصاب المحيط بالأرض
في سبيله الى نقطة احتراق الفضاء

قراغ
عالم بلا أصوات يلتهم الألوان
فقط رائحتك
العرق الزنخ
بين البياض الذى يعمى العيون
والسواد فى الخارج
وجوه صخرية تتكسر فى المعدة

صيف . أنت تنظر الى البحر ، البحر الهادئ فى عينيك . الوردة فى ثقب زر قميصك . أنت ، رشيق ،
تبدو نشيطا ، ليس عجوزاً .
صورة صغيرة بحجم طابعين بريدين . ذكرى عايشتها فى ماضيك البعيد .
الشمس على رؤوس الأصابع . كى أحرس ذلك أريد أن أخفى نفسى تحت الصخور . تحت
الصخور . بعيداً عند المنعطف .

شظايا من غرفة
الأمس البشرة البيضاء الذهبية الباردة
فى انوار التسل بهدهوء
من النوافذ العالية
الأمس عشبك الشمس

رماد
باب تفلق بهدهوء
وجهى يذوب يردأ على بشرة جادى

لقد تحولت إلى ثلج
ثلج يتهاوى على الظلال
لا أستطيع بعد أن أمسك بيدي
ثمة من حفر ثقباً في الفضاء

بياض
أشعر بخدي على الثلج البارد
بحر قطبي أخضر ، التهام مظلك
أضطجع بهدوء تام
أدع العيون تجول
من بياض إلى بياض

أحلم أنني أضطجع في قبرك ، حولى غطاء ، لكى أبات ، إننا في شتاء ، ثلج ، برد ، ثمت بعض
الأشخاص هناك بالقرب من القبر - أنسام ، ما الذي يفعلون هناك -
إنه شتاء ، الأرض جامدة ، والثلج عليها .

ذاكرة
وضعت ورقة من أوراق الزهرة الندية الباردة في فمي
وضعتها أنا في جوف فمي
وجعلت ألسنتي تحميتها
في أيام الرعد أضغ لسانى الدافئ والعريض كالصوت
الأمس برأس لسانى الجوف الأعلى للفم
بحثاً عن وجه

هاربة
كلماتنا تمر عبر بعضنا البعض وتلفى
جناحي يمر عبر صدرك
نظرتك تلامس فمي
وكالصور المظلمة بلا أثر
تمر راحات أيدينا متجاوزة بعضنا البعض
دارك الكبيرة الصفراء ، أحلم أنه دائري كبرج - ينخله الهواء من كل جانب ، نوافذه كبيرة ودائرية .
السماء فوق طابقه الأعلى المفتوح زرقاء مضيئة .
في القبو أجد صوراً منسية وكتباً صفحاتها ممزقة .

مكان فى حلم
أيادى الليل السوداء
تمسد قطرات البلور
فى شعرى الندى
أنا ليل متلامع
من آلاف العيون المستيقظة
التي تذوب خلال البشرة
الدم يوقظ الديناميكية المتعسة للذرات
أفجر أغشية صور الظلال
أعمى الليل
بقبضتى الحمراء

إلى أين ستذهب
هل ستصبح نجمة محترقة
موجة لهب
تبذر على الأرض المالحة
ليلاً
تعرض الضوء
حتى تصل إلى اللمع الأزرق
الذي يحرق الهيكل العظمى
محولاً إياه إلى رماد
خلال سموات لا تطوى

نداء . أنت تتأينى . من بين الأعشاب ، من الماء الناعم والبارد فى الساقية . من الصخور السوداء
على الشاطئ . من النور الرمادى بين قطع الخشب يسقف الكوخ . من ثقب فى قعر الزريق . من العمق
الأخضر للماء . من بطون الأسماك .
أنت تتأينى . وأنا على أن ألتفت . نحو الأرض .

بهذه خلال الغابة
الأعشاب تحترق
بهذه خلال الغابة
الرماد مثل خيوط العنكبوت حول العضلات

مخفى خلف الدم
قبرك بين الأسنان
يحاول أن يبتلعك
ليلة بعد أخرى

مطر ليلة شتائية
مغطاة بالأوراق الصفراء
أنهض
من الأرض الندية
أحاول أن أفك نفسي
من أذرع الجنود السوداء
أمر عبر الشفاء الطائفة
للهواء النقي

داخلة في مطر ليلة شتائية شفافة
ثابتة كائن الحروق مثل حديد ملتهب على اللسان . بارقة.
حقوق يخيم عليها الضباب ، ندى متجمد . حاسر الرأس . معطف أزرق خفيف . سراويل رمادية
اللون مهترجة قليلاً ، البسمة . العينين . أنت تنتظر إلى وببسمتك القديمة ، البعيدة جداً دائماً دائماً .
لا أستطيع أن أمد يدي ، لأنك ستكون هواء شفافاً خفيفاً بين أصابعي .
في الحقول في وسط الشمس الشتائية الحمراء . دائماً بعيد . دائماً حاضر . وسط هذه الصورة .

بين النجوم
أطلقك بين النجوم
الحقيقة تفرغ من الخرائط المعتيقة
أشرب هواء من حنفية الليل الباردة
أغسل بنعومة في الظلام
مع زيد النجوم على الشفاء
أراك تقفز في الليل
تخطف التيازك الملتهبة ببيدك

القسم الثاني

ليلة قطبية
يرتجف الظلام على شفتي

وتعرجات القمر على رؤوس الأصابع
يوقظني فجأة على ليلة قطبية
أتهاوى
يقظة خلال السماوات

أتحرك (١)

مطر ربيعي يتلامح كاللؤلؤ على امتعاني
أشعر بقطرات الندى على بشرتي
رؤوس أصابع القمر البارد على أجفاني
يد الشمس على بطني
رياح دافئة تسف في شراييني
حيث ينقل الدم ألومي من نقطة إلى أخرى
الجسد يجد حيزه
بين الظل والنور

أتحرك (٢)

الهواء بين راحتي
كون صغير
مجس طويل
في الحافة
هناك حيث أنتفس
حركة وراحة

ميكراً

أجلس على قدمي في الظلال
ومل ندى بين أصابع قدمي
تحت اللسان قطعة من الشمس
مثل الخرزة

مطر

عندما يهطل المطر
أخفي نفسي تحت في الحديقة
خلف الخيول

حيث رائحة العرق الندي

يلعم الليل

يتراجع الفانوس في رياح الظل

يرسم في الليل خطوط صفراء

الرمل تحت قدمي ناعم وندي

الصخور تتنفس

تنتظر مطر الصباح

الضياء

كلب ينبع منكرا في الصباح

أشعة النور تبحث عن جدران الدار

تلمس ببطء وهي داخلة

ترسم الطابوق والأسفلت توهجا

يدخل ببطء على البشرة

أغنية قديمة هائلة

يد السماء

أدع الرمل يتزحلق كالصفيح بين أصابعي

أشعر بالعالم المفتوح

يتخلل كل جزء صغير في

أشعر بحد الله براحتي

(الصفيح : ياقوت أزرق)

الشفق

كضياء الربيع العذر

يتخلل الأفق بشرتي

يفطس ببطء في كتل الرمال

تعود الكلمات ثانية مثل قطرات الماء

خارجة من نوم لازال دافئا

الرمل الأزرق

مد البحر يتزحلق على الرمل الأزرق

يقسل الدم المتجمد على الجرح الصغير
بأثاره مثل محارة الحزون الوردية
نحن نجتمع محارات ، - كواكب صغيرة في اليد
أشعر بالقمر يمسد
النور في بشرتي

السباحة

مثل السباحة
أعبر نفسي
حيث البحر أكثر إسوداداً
شاحب كالمحارة اضطلع
في صدع بين طوئين
المحارة تنمو على أصابع قلبي
الطحلب يهز أفكارى
البحر ينتلع الألم
من عيني يجري زيد بحر أخضر
عندما أغطس
أجد بارقة شمس في داخلي
في كتل البحر
واسبح هناك

وسم تخطيطي (١)

صخور كروية حية
أثناء لها محارات صغيرة وردية
ناعمة كالجيل
بفتحته المظلمة

الحيثان البيضاء

حيثان بيضاء خلال مياه ليلية
زيد فضي
مياه تتنفس
ترفع نفسها وتهبط
ظهر الليل في اليد

رسم تخطيطي (٢)

اليد

محارة نصف مفتوحة

الأتداء

قناديل بحر ثقيلة

تفطس إلى أسفل

نحو قعر البحر البارد

صفخور الأمواج

صفخور الأمواج تتكحرج على قعر البحر

ناعمة ثقيلة

نحو حفر مائية

حالة ببداية الظلام

أغنية بحر (١)

كالنور الجارى

خلال فتحات البحر

تسبح مثل رقائق ذهب

بهدهد مثل لمعات الشمس

التي لاسبيل

إلى لاسها

أغنية بحر (٢)

نسبح نحو الشوق الداخلى للبحر

حيث أنزع الأمواج الطويلة

حركاتها الأعماق

وتمد إلى البر والبحر

نتابع التيار إلى الأعلى

عبر نداء الأسماك

نتطخ برؤوسنا بلا صوت

فى الهواء

مثل فقمة تلعب

القسم الثالث

عينك

عينك بركتان خضراوان
أسيح فيهما مجفأ بيدي بهدوء
أنتفس بعمق في كل حركة
شمس خادعة
تتوهج في عمق البؤبؤ الأسود
تجذبني إلى داخلها

أملس أخضر

نتزلق مثل نوم
خلال أعشاب البحر الخضراء المساء
على سطح أسود طويل
نحو العمق
الذي ينمو ببطء نحو الوجه

حذقنا بعيداً

في أطراف جزيرة سوداء
ملينة بقاذورات النوارس وعظام الأسماك
تلتفت نحوي
والنور ينعكس من حجر الأبال الأخضر عن عينيك
الرياح تهب من الأعماق المالحة
تمسد بشرتي مثل ريشة
فنشعر أن الجبل يتنفس تحقنا
دافئ حيوي مثل حوت
(الأبال : حجر كريم تتغير ألوانه بشكل جميل حسب النور .)

موجة

رجل وامرأة فحسب
رجل فقط ، وامرأة فقط
جزيرة فحسب
أمواج فقط

زرقاء وخضراء

زيد فقط

سميك وأبيض

الصوت فقط

الأمواج فقط

موجة ، رجل وامرأة

الصيف الحار

بين أوراق الصنوبر ونبات الخننج الياض

تتدحرج ظهور عليها خرائط على الأرض

نكهة حلوة من التبغ والورد ترتج في الهزيع

أيادي رطبة دافئة تنقبض

نحن نعرف الأمواج ترتج بهدوء

أرى البحر كله في عينيك

الصدع

تأثني مثل الماء ذي الفقاعات

متحرك ، لا يعرف كنهه

شفاء مالهة عليها قمم الزيد

تنفتح على ظلام خلفي

نبح

أنثر رؤوس أصابعي

على باقى جسدى

مثل قطرات في ليل بلا مطر

أمسد بلساني على طول غشاء من نوم حذر

نمتد مع الظلام

مع خيوط الليل في العيون

أحس بالزيد

في نواة اليد الناعمة

رقص

لهيب الدماء يحرك الجسد



خصور تشكل الهواء في حلقات تطلق
نمد أجسادنا مثل أقواس
نحو سماوات صفراء كالعريق
ونتنفس كريات الذهب

الدخول الى الزرقا المزوجة

ندخل الزرقا المزوجة
نشطى اليوم الزجاجى
بشرة السماء تتمزق
والحليب يجرى منها دافئاً
على وجوهنا
فى داخل الزرقا المزوجة هناك حيث تلج الليل الشتائى يضى العمق النيلى
ونحن نتلامع مثل أقواس قزح فى داخل الليل



الكاميرا والحكي

أحمد الشريف

أن ترى الآن

التكاملية في الفن ، فكرة راودت الكثيرين لكنها لم تطبق أو لم تدخل في نسيج أعمال الكتاب والفنانين إلا منذ عهد قريب . رواية " أن ترى الآن " للكاتب منتصر القفاش ، تتماس بل تشتبك بوعي مع هذه الفكرة - التكاملية - " أن ترى الآن " ، عنوان الرواية ، يفتح على الفنون البصرية بصفة عامة وفن السينما بصفة خاصة . ولكن أية فنون بصرية تلك التي استفادت منها الرواية .

أولاً : الفنون التشكيلية ، والفن التجريدي على وجه الخصوص ، فالراوى يحاول تحديد الزاوية التي يستطيع منها أن يقبض عليه " ، وكأن اللعبة أن يرى كل شئ من الشكل المختلف ويظل ماعثر عليه " مركز رؤيته " هنا تحديد وتدقيق واختيار الزوايا والخطوط والبقع وطبيعة الشكل الذي سوف يصير مركز الرؤيا ، لا أحداث كثيرة ولاشخص كثر ولاحتى أماكن متعددة .

١- الحدث : التقاط زوج لزوجته عدة صور بالكاميرا وهي فى أوضاع مختلفة .

٢- الأشخاص : الزوج ، إبراهيم ، الزوجة ، سميرة ، الأصدقاء ، أحمد ، سمراء ، ناهد ، مجدى ، عبد العظيم .

٣- المسكن : الشقة ومكان العمل بالفندق وشقة سمراء .

محور الحكاية في الرواية ، محاولة معرفة من أخذ أو عثر على صور الزوجة وقام بتشويهها وإرسالها إلى الزوجة والتي أصبحت " تشكو من عدم قدرتها على التجول فى الشقة بحريتها فى

وجوده ، وعلى النوم لأنها تعرف أن عينيه ستحدقان فيها انتظاراً للحظة يقتنص فيها صورة لها ، وشئ لا يطاق النوم تحت مراقبة عيني أحد وكائنهما يتأملان فأراً في مصيدة " ص ١٢ ، تلك هي الأسوار التي تتحرك فيها الرواية . لقد استفاد الكاتب من تقنية السينما أو الكاميرا التي التقط بها عدة لقطات ، كانت محور الرواية ، ثم الاستفادة من فكرة التجريد في الفنون التشكيلية ، وتجلي ذلك ، في التوازن بين اللقطات والايقاع والقطع والكثافة والايجاز في التعبير .

فكرة التقاط عدة صور بالكاميرا كانت فكرة الزوجة " صورنى " هذه اللقطات المتتالية فجرت في الزوجة وجسدها طاقات وخصائص لم تكن ظاهرة ، صاحب المحل وهو يعطيه الصور كان معجباً بجمالها وغبابتها وسمراء اندفشت " معقولة دى سميرة " ، الكاميرا / السينما / الزاوية الجديدة لروية أنفسنا والحياة من حولنا دفعت الراوى وزوجته ومن حوله إلى اكتشاف أشياء جديدة ، كانت صورتها بروب الحمام المقفوح ، الوحيدة التي يبدو فيها جسد آخر نابعاً من جسدها " ، ص ٩٨ ، لقد صار كل شئ جديداً ، الزوجة ، علاقة الراوى بسمراء ، علاقته بعمله في الفندق ، علاقته بأخيه مجدى ، علاقته بصديقه أحمد ، لقد كانت حياة الراوى قبل الكاميرا عبارة عن بداية لرحلة صوب النسيان أو فقدان التدرجى للذاكرة ، لقد ازداد نسيانه أسماء أصدقاء وأقارب وجيران إلى حد أنه صار يحذر من ذكر اسم محدث أثناء الحديث طال أو قصر ، ويستبدل به " يا أخى ، ياكاتبى ، يا استاذ " ، صفحة بيضاء ستكون نفسه لو استمر نسيانه واشتد ، وعليه البدء في كتابتها من جديد بطريقة جديدة ورغم إعجابه بالفكرة إلا أنه تأكد من عدم قدرته على " مواجهة صفحة بيضاء هي حياته " ص ٨ ، فكرة الصفحة البيضاء أو الحياة البيضاء ، راودت الراوى حتى بعد حادث الكاميرا ، لقد تمنى أن تكون الذاكرة مثل الكاميرا ، بمجرد إخراج الفيلم منها تصوير بلا ذاكرة ، لاتعرف ماضياً يشغلها ولا مستقبلاً تسعى إليه ، مع ذلك غيرت الكاميرا حياته وحياة من حوله وفي عبارة لافتة في صفحة ٦٩ ، يقول الراوى وهو يطلق الألبوم ، إنه تأكد من وجود شخصيات هم بالنسبة له فيلم لم يتم تجميعه بعد ، يعنى هذا ، أن هؤلاء الأشخاص ، يمكن للراوى أن يكتشفهم ويعيد رؤيتهم في ضوء حالة الكشف والزاوية الجديدة التي صار يرى فيها العالم .

لعل الحديث عن البناء العام للرواية ، بات ملحقاً ، لقد كتبت هذه الرواية في وقت طويل أو كان يكفي تماماً ، كمن يتأكد الكاتب من قوة ومثانة بنائه الفنى . كل مشهد ونقطة وجملة اختيرت بعناية شديدة وبعد مجهود كبير ولاسيما الحوار ، اختيار كلمات الحوار الذى كان بالعامية تم بحرفية عالية سواء كان الحوار مستقلاً أو في نسج السرد ، كان يلقي الراوى بكلمة أو جملة بالعامية ، هذه الكلمة والجملة تكون مفتاحاً مهماً أو ثقل من الثقلات المكانية والنفسية لشخص الرواية .

المشهد والحوار فى صفحات ٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، المكان مكتب بهاء ، فى وجود ثلاث شخصيات ، الحديث عن العمل وحكاية الصور المشوهة .

لقد احتد الحوار فى هذا المشهد لكن الأهم تلك اللقطة الاستبطانية ، عندما لاحظ " إبراهيم " ، فنجانين القهوة فى مكتب " بهاء " ، لقد لاحظ أن سطح الفنجانين أسود بينما نصح الأبيض داخلها ،

امتدت يده إلى فنجان يختبر تغيير موقعى اللونين بتقريب الأبيض إلى عينيه لدرجة لا يرى معها الأسود . لوهلة شك فى ارتياحه لوجود اللونين ، ومال إلى أنه فكر فيهما لأنهما متاحان أمامه - فقط - لا لحيه لهما . هذا المشهد الحواري أو الحوار المشهد ، ثم تلك اللقطة التى كشفت " إبراهيم " ، بعمق من الداخل وأظهرت المسافة الكبيرة التى صارت تفصله عن محاوريه وعن العمل والمكان ، لقد أصبح الرجل فى عالم آخر .

مع كل صفحة من الرواية ، تزداد النقلات عمقاً وتصير بانورامية ، والألوان أو اللون الواحد مادماً نتكلم عن التجريد ، اللون الواحد تنبعث منه درجات لونية تتراوح بين العتمة والشفافية كما أن عديداً من الظلال انحسرت عن الشخصيات ، على سبيل المثال ، شخصية " سمراء " صديقة " إبراهيم " ، لقد شك فى أنها من قام بتشويه الصور وإرسالها إلى " سميرة " ، " سمراء " ، صاحبة العلاقات المتعددة ، دائمة السخرية من رجالها يفرح وسعادة ونشوة بل تضحك على كل ما فعلوه خاصة أثناء نومهم معها فجأة تختفى من حياتهم .. علاقتهما معاً ، غير مقيدة ، تلك العلاقة استمرت حتى أثناء زواجها السريع الذى استمر سنة واحدة فقط ، ثم طلبت الطلاق " ماعرفش أكون زوجة " ، التغير الذى حدث لشخصية " سميرة " عندما كان إبراهيم يلتقط لها الصور ، وحالة المرح والانطلاق التى كانت فيها ، يذكر بحالة " سمراء " ، كأنهما شخصية واحدة أو تنويع جديدة على نفس الشخصية .

فى ختام قرائتى لهذه الرواية " أن ترى الآن " ، أقول إن أبرز ما فيها اتساع المحصلة الدلالية للعالم الصغير الذى تحركت فيه وأيضاً الكشف أو إعادة رؤية وفهم للعالم ، ذلك العالم الذى لن يعطينا أسراراً ومفاتيحه إلا بقفزة مؤلة فى المجهول .

« قانون الوراثة » ، مرايا الذات

رواية « قانون الوراثة » العمل الإبداعي الثانى للكاتب ، ياسر عبد اللطيف بعد مجموعته الشعرية « ناس وأحجار » هى بقصر حجمها وحمولتها الخفيفة من الأحداث والشخصيات والأماكن ، إضافة للنقلات الزمانية المتلاحقة وعدم إهتمامها بل وسفريتها من التأمل العميق والرواى العارف بيوطن الأمور ، يمكن القول ، إن الرواى كان سلبياً ، تجاه أحداث كبرى ، مثل ، حرب الخليج الثانية لكنه غير متخاذل ، هى تعبير عن رؤية جيل جديد تجاه الحياة وأحداثها .

أحب استخدام مصطلح بينو قنيماً ، أعنى ، الصديق الفنى ، يتجلى هذا الصديق الفنى فى الرواية ، من خلال كاميرا الرواى ، التى قيمت لنا مجموعة من المشاهد ، وقطاعاً من جيل الشباب ، الذين انحصرت اهتماماتهم فى كيفية العثور على المخدرات بأنواعها ، التوسيفان ، الحشيش ، البانجو ، الكوميثال والأنتيفان ، الباركيول ، الذى يسبب هلاوس شديدة الإيهام ، " أسنا ستة من متعاطى المخدرات ننام النهار بطوله ونقضى الليل بين مجلس الرملة بجوار منزل محمود وصيدلية الرحمة ندور مكرراً فى دائرة اليأس .. وأى يأس ؟ " ص ٦٥ ، لقد تحول العالم عن هؤلاء الشباب إلى زواحف

وحشرات وحيوانات ميتة يسببها (الباركينول) وإلى جماجم (الكوميتال) ، العالم عندهم ، يطفو على بحيرة من العقاقير المخدرة ، مع ذلك وفي ظل هذه السلبية والاقصاار على مشاهدة الأحداث ، فإن الراوى يقدم نفسه فى البداية بشكل يوحى ، فى السطور الأولى بعكس ما يحدث فهو ، طالب فى كلية الآداب ، يدرس الفلسفة ويكتب القصة وبالطبع يأتى ذكر ، أفلاطون وهيراقليطس وأرسطو وأسماء لها رنين ثقافى ، عبد الرحمن بدوى ، فؤاد زكريا ، زكى نجيب محمود ، وترديد العبارات الأكثر طيننا فى تاريخ البشرية . يقول الراوى إنهم كانوا يعيشون دور المتفلسفة نون وعى . هل هذا الارتباك والتشوش سمة من سمات جيل الثمانينيات والتسعينيات ؟ هذا الجيل الذى حصد نتائج نهايات فترة السبعينيات بكل ما حدث فيها من زلازل وإراكين فى الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية وانكسار للأحلام ونوبان للمشاريع الكبيرة ؟ ، سواء أكان هذا السبب أم غيره ، فإن الرواية رصدت لنا تلك المرحلة بقدر كبير من الصدق والبساطة معاً ، تتميز اللغة فى الرواية بأنها أقرب إلى أداة للتوصيل وفى نفس الوقت تحس أن الكاتب بذل جهداً كبيراً فى صياغتها تمثل ذلك فى التكثيف فى تركيب الجملة وانتقاء مفردات عامية وتفسيرها مع الفصحى ، « تعال نصرصر » والحشيش الذى ينقسم إلى نوعين ، « خالص مع الشكر » والثانى ماركة « رضاك يارب » والمشهد الطريف الذى يصف فيه الراوى ، العسكرى الذى « ضبط الأفندى راكباً فوق الهانم » ، هذا التنوع فى استخدام مستويات متعددة من اللغة أنعش كثيراً السرد فى الرواية ، فكان تكتيكها أقرب إلى مجموعة من الدوائر المتقاطعة أحياناً والمتوازية أحياناً أخرى ، هذا التكتيك الذى كان سببه وكما يقول الكاتب نفسه (حوار أخبار الأب ، ٢ مارس ٢٠٠٢) . إن الرواية عبارة عن أجزاء متفرقة من عالم واحد هو عالم الراوى فى الأساس ، مناطق جغرافية وتاريخية مختلفة يجمعها عالم واحد كبير . وتظل هناك بعض الملأح.

أ- فكرة مضاكسة فعل الكتابة والقارئ معاً ، كأن يقول الراوى ، إنه منذ « استيقظت هذا الصباح وأنا أشعر كأتى أتحر ك فى رواية » ص ٢١ أو تذكير القارئ فى نهاية الرواية بمشهد كان فى بدايتها هذا الملأح تكرر عند أكثر من كاتب من كتاب هذا الجيل.

ب- الحكى ، رغم المحاولة بتجاوز فكرة الحكى بالمعنى القديم ، إلا أن متعة الحكى يصعب تجاوزها نهائياً ، لذا فقد حكى الراوى ، قصصاً عن جده وفتخى للذين حصلوا على الشهادة الابتدائية من مدرسة « الدر » ببلاد النوبة عشية إنذلا ع الحرب الكبيرة الأولى ورحيلها إلى القاهرة ومغامرات فتخى الذى عشقته فتاة إيطالية عندما كان عاملاً بأحد فنانق سليمان باشا ، وانخراطهما فى قصة غرام ملتهب أثارت حنق بنى جلدة الفتاة فحاولوا قتله ثم هروبه على ظهر سفينة إلى جزيرة رودس اليونانية وعودته نهائياً إلى بلاد النوبة ، هروباً من القاهرة وذكرياتا الأليمة ، أحببت سرد شدرات من حكايات الراوى التى نثرها بين ثنايا روايته بشكل بدأ مختلفاً تكتيكياً وعمقاً عن الإرث الروائى القديم.

ج- امتداداً لفكرة التواصل والقواسم المشتركة بين هذا الجيل ، فإن الرواية تتكى على جزء كبير من السيرة الذاتية أو الخبرات الحياتية التى مر بها الكاتب ، رغم ضيق مساحة هذه الخبرات ، لكن الكاتب استحسن الإتكاء على أمور قريبة من معرفته الشخصية سواء التى رآها أو سمع عنها . هذا

الرصد والوصف والحكى عن هذه الشخصيات والأحداث ساهم في بلورة رؤية الكاتب للعالم « قانون الوراثة » بها شخصيات تقاطعت فواصل ومحاور حياتها مع حياة الراوى : نادر ، محمود ، شريف ، مختار ، هانى ، عصام ناجى ، فرنسواز ميكيه ، طارق الأسيوطى ، عز الفيويمى ، الطالب اليسارى ، العجوز المهورس بفن المسرح والذي قام بتمثيل شكل الجرسة الشعبية تهكماً على الأنظمة العربية ، وسار بين الكليات حاملاً دفاً ينقر عليه ومن حوله جوقه من زملائه يريدون جميعاً خطبة شديدة السخرية حتى تكاثف العدد وتضاعدت حدة الغضب وانفجرت مظاهرات جامعة القاهرة ضد حرب الخليج الثانية.

وتظل شخصية شاكر وفتحي من الشخصيات التي أخذت مساحة كبيرة من الحكى رغم الاختلاف الظاهري بينهما ، كلاهما يمثل فكرتى المغامر والمجنون أو الدرويش الثاني ، فقد انتهى بشاكر الحال مختبئاً بالصجرات الداخلية فى بيت « الطود » مع صندوق كتبه وأصوات نهضة وبكاء خافتين حتى خرج منتفضاً صارخاً ومهزولاً من باب البيت.

لو كانت هذه الرواية مكتوبة حسب الأصول القديمة للفن الروائى ، لوجدنا مثلاً ، الراوى يبدأ بوصف المكان الذى جاء منه الجد النبوة « مروراً بالقاهرة والأماكن التى يحن الراوى إليها : وسط المدينة ، ميدان التحرير ، عابدين ، بولاق ، مقهى الحرية بباب اللوق .

وكنا سنقرأ مشهد المرأة فى صفحة ٩٩ من خلال عدة صفحات أو فصل كامل ، هذا المشهد الهام المندس بين سطور الرواية ، تنتظر إلى نفسك فى المرأة عبر امرأة أخرى ، تراها كموضوع خارجك ، « لكن إياك والإندياح وراء التكرار اللانهائى للصورة فى الانعكاسات المتعاقبة ، ذلك قد يمنحك وهماً بالخلود » كذلك مشهد خلع الأسنان ، لقد اشتكى الراوى من تلفها الواحد تلو الآخر رغم عنايته البشيدة بها ، وتجيب الطيبية بأن عوامل الوراثة هى السبب . هذا المشهد يرتبط بالمشهد الآخر للرواية ، عندما أنقطع الراوى ملاحظاً « أحمد شاكر » الذى تعرف الراوى عليه من خلال « الوجه الأسود الهضيم ذاته » ، نفس الشئ حدث لأحمد شاكر الذى فر هارباً وكان يتلفت خلفه كملارد حقيقى ، فقد عرف هو الآخر الملامح الغامضة التى يحاول الهروب منها ومن تاريخها ، « بينما هو يفر أيضاً من ملامح قديمة عرفها ، ملامح أبى وأعمامى التى تسكن وجهى » ص ٨٧



التصوير بالسلاح

جان لوك بينوزيجليو

ترجمة: عايذة لطفى

ولد جان لوك بينوزيجليو عام ١٩٤١ فى مونتاي بسويسرا ويعيش منذ عام ١٩٦٨ فى باريس . يعتبر بينوزيجليو أحد أهم الكتاب السويسريين الذين يكتبون بالفرنسية ، وهو وضع لا يحسد عليه فى الحقيقة ، ففى عصر الميديا الطاغية ، يجد كتاب سويسرا وناشروها الناطقون بالفرنسية أنفسهم فى مواجهة المركزية الثقافية لباريس ، وبالتالي فإن معظم كتاب سويسرا الذين يكتبون بالفرنسية ينشرون أعمالهم فى فرنسا ويعتمدون على دور النشر الفرنسية فى ذلك ، بل وينظر إليهم أحيانا بوصفهم جزءا من الأدب الفرنسى بشكل عام.

ويحاول كتاب سويسرا الناطقة بالفرنسية اليوم ، ورغم ادراجهم تحت الأدب الفرنسى بشكل عام ، تحديد هويتهم السويسرية الخاصة جدا من خلال كتاباتهم ، تلك الهوية الملتبسة فهى ليست فرنسية أو ألمانية أو ريتورمانية ، رغم أن السكان فى سويسرا يتكلمون هذه اللغات الأربع.

يعتبر بينوزيجليو واحداً من هؤلاء الكتاب الذين يحاولون الإمساك بهذه الهوية السويسرية وتصويرها . فهو يعرف جيدا أنه عندما يولد المرء سويسريا فهذا يعنى أنه يعيش بجانب التاريخ وليس داخل حركته ، يعنى ألا يكون جزءا فاعلا ومؤثرا فيه. فتطور لديه العادة أن ينظر ويراقب ويظل فى معظم الأحوال معصوما من الدخول فى صراعات التاريخ.

وتتناول رواية «التصوير بالسلاح» حالة المواطن السويسرى الذى يعتقد أنه يعيش على هامش الأحداث ، ثم تحدث المفارقة ويجد نفسه فى خضم صراع التاريخ ، فالرواية تصور العنف فى العالم الذى يطول كل البشر حتى المواطنين السويسريين رغم معيشتهم فى ظل الحيادية الهامشية.

تبدأ الرواية بتمهيد مؤرخ في عام ١٩٩١ ، أى قبل اندلاع حرب الخليج، كما أنها تؤكد الكاتب على امتداد العنف عبر التاريخ وعدم توقفه ، ثم تبدأ الرواية الفعلية بالجزء المؤرخ بعام ١٩٤٤ ، ففي هذا التاريخ يقوم السلاح الجوي الألماني بنسف قرية سويسرية فى الإقليم الناطق بالفرنسية اعتقاداً منهم أنهم يقصفون قرية فرنسية . ويفاجأ أهل القرية بأنهم قد دخلوا فجأة وبدون سابق إنذار فى وسط الحرب التى كانوا يعرفون أنها موجودة فى كل مكان فى العالم تقريباً ولكنها لا تمسهم بشكل مباشر- تصوير مثالى للوضع السويسرى وفى تلك القرية تقف الأم التى تجر عربة ابنها بالحرب ، ويستطيع الإثنان البقاء على قيد الحياة. ونعرف فى سياق الأحداث أن تلك العربة التى تجرها الأم كان يرقد فيها بطل الرواية ، الذى يظل بدون اسم طيلة الرواية ، ويشار إليه فقط بالضمير الثالث.

إنها رواية ليست فقط عن العنف أو عن الحرب ، إنها رواية سياسية تاريخية تعرض لسيرة حياة إنسان ، بطل الرواية الذى نجد فى سيرة حياته ملامح مشابهة لملامح الكاتب الذى يخفى وراءه ، جان لوك بينوزيجليو.

* وتنتشر أنب ونقد هذه الترجمة بالتعاون مع بروهلسيتا المؤسسة الثقافية السويسرية.

أبنى جريج

يقال فيما يبدو أنه كان جديراً أن نراه ، حين لمست أول قنبلة الأرض وانفجرت مبعدة فى الأجواء عرسة مفزوعة رأسها (إلى أسفل) وأرجلها الأربع متخشبة فى وسط الكوم المعتاد من التراب والشب والأحجار يقال إنه كان مذهولاً (وعينه محولة) مثله كمثل الطير الذى أنهى لتوه تحليقه وسقط على المرج قطعة صغيرة تفور مدماة ، حيث هروى فى اتجاه عتبة المحل وظل فى البداية فاعراً فاه، تطرف عيناه ويمسح يديه عفواً فى واجهة قميصه كما اعتاد أن يفعل كلما هم بخدمة أحد الزبائن.

بجانب بطارية دفاع مضادة للطائرات ، ثلاثة جنود نائمين . أنهمكهم المشى الطويل فى الليلة الماضية ليثبتوا العدو أن أعينهم لا تغفل، يحملون فى جانبهم الأيمن حرية تضايقهم فى نومهم ولكنها تبدو ذات فائدة كبيرة لفتح غطاء علب البولوييف.

تقع الحدود على مقربة لدرجة أن الطير نفسه اختار بالتاكيد أن يذهب إلى هناك على أرجله بلا عناء فرد جناحيه من أجل هذه المسافة القصيرة ، هذا الموضع الذى ينتهى عنده بلد ما ويبدأ منه بلد آخر يتمثل فى حاجز من الخشب الأحمر والأبيض اللون ، أطاح به بدون مشقة بعض الشباب فى إحدى أمسيات السبت ، أمسية سكر خفيف فى عربة لم تكن بالأثقل هى الأخرى . وحيث إن الزمان كان زمن . حرب بل وحرب مالية فإن السلطات استغلت الوضع لتجنيده هؤلاء الشباب حتى تمنعهم من السكر إلا فى صفوف مستقيمة فى التكتات المعدة لذلك. بعد أن تم إعادة طلاء الحاجز بألوان زاهية وحريرية كان من اللازم فى الواقع ، تقليد الخلط بين العصر السلمى حيث كان رغم خشونته الزائدة ، لا يصلح إلا ليثير دقات قلوب السيدات المسنات القادمات من آنسى وايبيان وتولون يخفين فى أعماق حقائهن زجاجات متعددة من عطر شانيل) رأوا أنه من الأفضل اسناد الحاجز يمينا ويسارا ببعض العوائق المضادة للدبابات واسطوانات أسلاك شائكة

تم فردها عفويا بمساعدة عدد كبير من الشتائم ، تشك الأصابع هذا الخراء ، هذه القذارة ومثلما يتم تعصيب عيني فراغ الطيور ، كان هناك مدفع رشاش تمت تغطيته مصوبا باستهتار فى اتجاه فرتسا وعموما ، على طول الطريق المترب والعشب الأخضر فى انتظار مجئ أنا ، اختى أنا على رأس الجحافل المشهورة بالبربرية .على مقربة من بحيرة متجمدة تمثل نوعاً من الأرض الحياضية كانت تستخدم أحيانا كمستقر لبعض الأشجان العاطفية .

لقد نهبت تضع حدا لحياتها على البر الآخر «قول كثير ما تردد آنذاك بنبرة مزبوجة من الاستكثار والحقيقة أن الحرب قد وضعت حداً لمثل هذه الممارسات ،حيث إن إنهاء شخص ما لحياته بداعلا وقحا للغاية فى وقت يفقد فيه الكثيرون حياتهم رغما عنهم . أو لأنه على طريق البحيرة المنوط بحراسة ، كان يخشى دائما أن يكون ضحية للقذائف الهوجاء التى تطلق عشوائيا هنا أو هناك خلال ستة أو أربعة عشر تبادلا للطلقات .وكان يحدث بالفعل خاصة بالليل وخلال العواصف الثلجية أن يفتح أحد الجنود من نوى الزناد العصبى ، النار لمجرد أقل حفيف للأغصان أو مرور خاطف لثعلب ، بل إذا كان الشخص المشار إليه يشد بقوة على الزناد بشكل خاص) أحيانا على أحد زملاء فصيلة الذى أعتقد أنه لمجرد أن يقضى حاجته عند الشجرة لا يحتاج أن يتذكر كلمة السر . قليلا قليلا ومن صدئ لصدئ بعيدا عن الصديق والعدو (وهذا ما كان يطغى للشئ طعمه) تمكنوا من تحديد الشخص الذى كان يطلق النار بهذا الشكل . أول انفجار آثار من حوله سلسلة من الفرقعات كان يمكن مقارنتها بتلك التى فى أوقات السلم تصدر عن ألعاب نارية متواضعة وريثة شبيهة والتى يقومون بها فى فناء عمارات سكن متوسطة الدخل عوضا للأمالى عن عدم خروجهم فى الأجازات وبعدها تطلع الشمس وعند الأفطار مع المارجرين والسكرين وشبه القهوة الحقيقية تنطلق الضحكات ساخرة من هذه المخاوف الليلية.

لقد قاموا بهذا فى أسبانيا ، لقد قاموا بهذا فى بولندا فى الدنمارك والنرويج .لقد قاموا بهذا فى بلجيكا وهولندا ولقد قاموا بهذا فى فرنسا ، لقد قاموا بهذا فى إنجلترا ، لقد قاموا بهذا فى يوغوسلافيا واليونان ، لقد قاموا بهذا فى الاتحاد السوفيتى ، بإمكاننا القول إنهم كانوا يعرفون تماما كيف يفعلون ذلك فى ظل كل الظروف وبطلقة واحدة نون إضاعة أى وقت : الانقضاض فجأة على أى تجمع وسحقه تحت القنابل ثم إبادة كل من كان كانت لديه الشجاعة والجرأة لحركة ، مثل الإجهان بطلقة فى العنق على رجل عاود الهرب من زيكون بما يشبه سحق مياغت لحشرة بالدى .. دى .. دى.

ما زال ساكنا عند الشرفة الخشبية التى تحتل واجهة المحل والتى تستخدم فى الجو الجميل فى الصيف كصاله شائى) بعض الموائد وبعض الكراسى والبعض من عجائز السيدات والرجال والكونياك بالبيض ومشروب البليكون جرانالين) فى روم كما يطلقون عليها بتلك اللغة ، آملين بشكل مبهم أن هذا سيسهل انتصار الطفء ، لم يخطر له بعد أن يفلق فمه . أخرج بيد واحدة من الجيب الأعلى لقميصه ، نظارة ممسكا بأحد نراعيها ثم قذفها ليفرد نراعها الأخرى ، ثم ضبطها باحتياج على أنفه ضاغطا عليها براحة يده ليثبت وضعها . أما يده الأخرى المرتعشة عليلا فى نهاية نراع معدودة إلى السماء بأصابع متباعدة وكف مفرد ، أتت بحركة دفاع عفوية

وسخيفة في اتجاه القناصين وفي وصف أطلقه أحدهم ضاحكا بكون انتهاز «كشرطى على ناصية الطريق أراد بالتاكيد أن يأمرهم بالتوقف ، لكن تخيل أنه من هناك من الأعلى كان من الممكن أيضا أن يعتقدوا أنه على سبيل المثال التحية يؤدي لهم السلام النازي» . ثم رفع طرف قميصه وخلص نظارته ومسح عدساتها ولعها من جديد ، منتفضا كلما دوى انفجار عن قرب ، متراجعا بعض الخطوات ملوحا بذراعيه ويديه أمامه ثم يسرع ليختفي داخل محله في حين يطير مدويا سقف إحدى المزارع المجاورة والأبقار في الحظائر تطلق أصواتها كما لو كانت على باب السلخانة.

«ألن يتركونا أبدا في سلام بتدريباتهم السخيفة هذه؟» قال متمتما في نصف يقظة أحد المجندين وكان مستلقيا بجانب بطارية الدفاع المضادة للطائرات ، مستندا على كوعه مقبلا في وجه واحدا من زملائه يتفحص السماء بين الأشجار ويقول (في نبرة من يخشى أن يتفوه بمهارات تصوير محط سخرية بعد مرور عشرين سنة في ماذبة إحدى الرابطات) أنه ربما ليس تدريبا . أسكته الانفجار وأحدث على بعد عشرات الأمتار منهم فجوة في الغابة تفرقوا فيها وتحولت إلى صلعة موضعية مبكرة . أمطرمهم كم من الطين والعشب وأكوام الصنوبر وعش الغراب المتفتت السام أو غير السام وحجر وقطع من القشور والسناجب وحطام أخشاب من الأغصان الفرعية إلى الفرع الأم . وفي اللحظة التالية تدرج الرجل الذي كان نائما على جنبه وارتعشت كل أعضائه ووجد نفسه منبطحا على بطنه ورأسه بين ذراعيه.

في الوقت الذي اتخذ فيه أحد قناصة القصف في سرب الطائرات ، وضعه من جديد بعد أن أطلق قذيفة القنبلة ومسح وهو يصرخ أسقف منازل القرية . كان الآخر من أمامه يهم بالطلعة وآخر على وشك انهائها ورابع هناك أفقيا يتخذ في ثوان معبودة وضعا شبه متحضر لطائرة خط على ارتفاع استعدادا لرحلة سفر ، انقلب آخر على الجناح وبدأ في الفوص في حين أطلق آخر في عز انقضاضه هدير الموتور والسرينه وأطلق قنابله واستعاد ارتفاعه ومر مدويا على بعد عشرات الأمتار فوق برج أجراس الكنيسة . كل هذا كان يتم بنظام محكم وفي اتجاه عقارب الساعة ، مما كان يمكن اعتباره نوعا من الشرف، وربما الساخر ، بحسبان أي بلد طارت من فوقه الطائرات بحيث عرف فيما بعد أنهم كانوا يحسبون أنفسهم في الواقع في مكان آخر تماما.

أحيانا أيضا ربما يكونوا ملوا من الدوران في حلقة مثل العجلة الكبيرة التي يتسلى ركابها الثمانون بقنفذ المتفرجين أسفل بزجاجات البيرة) لكن ربما على الأرجح الجمع بين هذه الطريقة وسابقتها . بدت مع الاستخدام ، من جرنیکا حتى سالونيك ، الأكثر فعالية في قصف الهدف المحدد حتى لا يظل حجر على حجر ، لا رجل ولا امرأة ولا طفل على قصيرته . أحيانا كانوا يظهرين من ستة جوانب مرة واحدة ويتواجدون مرة واحدة مع بعضهم على ارتفاع منخفض جدا تقريبا رأسيًا مع وسط القرية . ثم ينطلقون مع بعضهم في اتجاه السماء كما لو كانوا داخل أسطوانة غير مرئية حين تصل إلى الارتفاع المطلوب تنفتح الهالة ذات الصليب المعقوف برشاقة (منورة في اللقائات الهوائية تستحوذ على صيحات إعجاب المشاهدين: في الحالة الراهنة فهي بالأحرى على وشك أن تبتر لهم ذراعا أو ساقا) ثم تتحرر من تويجاتها الستة المميّنة التي كانت تسقط بحدّة

لتسمع حياة كل شخص في المنطقة. تاركين التطبيق في تشكيلات) كانوا أحيانا يذهبون كل على حدة (لم يكونوا هنا بالأقل خطرا لمن يصافقهم في الطريق) ليتسكعوا ، موجّهين مقدمة الطائرة في اتجاه الأرض على غير هدى والاصبع على زر الرشاش كان من الممكن أنذاك تخيلهم ، إذا كان من الممكن الوصول إلى رفاحية التفكير في تلك اللحظات ، كسماك قرش خاصة أن شكلهم ولونهم الرمادي الفضي وأيضا هذه الطريقة في الظهور من أى مكان بسرعة البرق بعد قيامهم فى شردمة (بمعنى احترام نوع ما من التسلسل ، خطة مدبرة إلى حد ما ، وتكتيك التحويط ونظام ما فى المجزرة) بتنظيف الداخل والجوانب المتاخمة له لسفينة غرقت للتو، كانوا الآن على راحتهم لا يشغلهم شئ آخر وبعيدا عن أى اتيكيت ، ليجهزوا على المتبقى على حدى فيتفرقوا مبتهجين بالغنية فى سعى للبحث عن ناجين يعومون بين الأمواج يضربون بإذرعهم وسيقانهم فى تشنجات جنونية كالتى تصاحب أحيانا الاحتضار.

على الطريق المتعرج الذى ينزل من الصدود فى اتجاه القرية ، توقفت حركة المرأة الشابة ومالت برأسها للخلف وهى تتشبث بقضيب عرية أطفال ، فى حين من مر فوقها القناص محدثا دويا كالرعد وإبرهه من شدة الضجة تركت القضيب لكى تسد أنفها بكتلتا يديها: إلا أن غريزة الأمومة هى الأقوى دائما ورؤية طفل ضائعة تهبط الطريق بسرعة شئ لا يحتمل . حلت رائحة الوقود محل رائحة الصنوبر وفى خلال بضع ثوان تظل هواء الجبل النظيف الذى نصح الأطباء الأم من أجل الطفل (والذى كان مناسباً لها أيضا حيث كانت على وشك الطلاق وتحتاج للإبتعاد) . الطائرة هناك تتعطف على جناحها ثم تتجه رأسيا وكثتها تتسلق جانب الجبل فى اتجاه الثلوج الأبدية . تتابعها المرأة بعينها ثم تتجه بنظرها إلى القرية حيث يصعد رأسيا وكثتها تتسلق جانب الجبل فى اتجاه الثلوج الأبدية . تتابعها المرأة بعينها ثم تتجه بنظرها إلى القرية حيث يصعد منها عمود من الدخان الأسود الكثيف . وحينئذ فقط أستدركت صرخات طفلها الذى لا يتوقف إلا للحظة التى يأخذ فيها نفسا ليواصل صراخه . ممسكة بالعerie بيد ، تنحنى على الشئ كثير الرقس وتحديث بلطف ويبيدها الأخرى تحاول أن تعدل من ملابسه وتعيد وضع الغطاء عليه وفى الأسفل كان العديد من الأشخاص بعضهم يمد يده ليساعد الآخر والبعض الآخر بالروب يصعدون التل على جانب الطريق. يتوقف الجمع لثوان لاهثا ثم يتخطى الطريق راكضا مستأنفا الجرى فى اتجاه الغابة التى تبعد بضعة مئات من الأمتار «لا تمكثى هنا» صرخ بها أحدهم . دوى انفجار هائل بالقرب من المحل ثم تلاه آخر حول الكنيسة . رغم بعد المسافة وصل الضجيج المكتوم حيث اختلطت الصرخات بالصياح حتى المرأة الشابة . لا يزال الطفل يصرخ حتى إنزق دون أن تخطو خطوة أخذت تهب العرية للامام والخلف . خرج هذا الجمع من بين الأشجار راكضا فى الاتجاه الآخر والتقى مع الجمع الذى كان يركض باتجاه الغابة دون أن ينظروا لبعضهم يتعشرون فى نفس الجحور ، يسرعون فى اتجاه الطريق بالقرب من المرأة الشابة، ثم يخطون الطريق راكضين يهبطن بصعوبة التل(البعض على أرجله والبعض على مؤخرته) ويختفون عند زاوية أحد الشاليهات. أحد الرجال وهو مبار بالمرأة الشابة دون أن يكف عن الركض أخذ يشيح بذراعيه ربا لصعوبة التقاطه لأنفاسه، أتيا لها بسيرك من الإشارات التلويحية وجدت صعوبة فى

تفسيرها . انتفضت حين نوى فجأة وراء ظهرها صوت يشبه ذلك الذى يحدث فارس مدرع وهو يهبط على درجات منصة الاستعراض تتجاوزها بخطى راكضة فرقة من ستة جنود يرأسهم عريف أول ، مولين ظهورهم للحدود ، مرتدين حلة كاملة من القدم حتى الرأس تفرقع الأسلحة على ظهورهم ويتطاير الشرر الخفيف من تحت أحتيتهم ذات الجسامير على الأسمنت . «إلا تمكثي هنا مع هذا الرضيع ، بالله عليك» صرخ ضابط صف فى المرأة الشابة بأسلوب مهذب . حين هوى بالاعتفاف التالى ظلت لا تتحرك وملفتة برأسها فى جميع الاتجاهات استمرت تحرك عربة الطفل للأمام والخلف فى نفس اللحظة ، بعد مرور دقائق معدودة منذ بداية الهجوم حيث لم يكن أكيدا أنها أدركت حجم الأحداث من حولها ، أخذت من مكانها تقدر بعينيها المسافة التى تفصلها عن البنيويون الذى تقيم به فى محاولة أن تخمن أى واحد يكون هو بين من الأسقف هناك فى الأسفل عند مدخل القرية حيث منذ نصف ساعة قبل نزعتها اليومية المعتادة ، امتدحو الوجنات الموردة لطفلها وأضافوا أنه فى انتظاره وجه لذيذة من الفطائر بالجبن على العشاء وأنه يبدو أن الحلفاء يتقدمون بنجاح فى النورماندى . اشتد الصغير الذى سمعته منذ لحظات قوة . رفعت عينيها طائفة تنفض عليها ، أحست بأنها إذا اصطدمت بالأرض فإن مقدمتها ستصيب بالضبط عربة الطفل بالتأكيد .

ركضت هذه المرة فى هلع على الطريق المستقيم أمامها محاولة بكل جهدها تقاوى الأحجار وعشش الدجاج وهى تزيجها بعنف بترامعها : أما الطفل الذى لم يعتد هذا النوع من المعاملة وظل يصرخ حتى كاد أن يصاب بالسكتة وهو يرقس برجليه ويلوح بقبضته نحو السماء «هس» صدرت أكثر من مرة من المرأة الشابة بنبرة أرادت أن تكون هادئة ومطمئنة ولكنها ضاعت وسط الضجيج حولهم ، ربما كانت بالأحرى تحدث نفسها حتى تتفادى الصراخ حين وصلت إلى المنعطف التالى وهى ما زالت راكضة بأسرع ما يمكن بحيث تحتفظ بتوازن العربة دون أن تسقط ، سقطت على مجموعة من أشبال الكشافة احمرت سيقانهم ونكسوا أعلامهم ، متكئين يتحدثون ، اثنين من صفار الكشافة يجرون عربة خشبية معبأة بالخيم والأوتاد وأنوات أخرى خاصة بالرحلات «ممنوع» المرور من هنا صاح سائق الشاحنة الذى يقود الفرقة ، كان يرتدى نفس السراويل الكاكية ممثل فرقة ومؤخرته الكبيرة توحى أنه اختار سروالا أصفر على الأقل ثلاث مرات عن مقاسه . فى اللحظة نفسها على بعد خمسين مترا أسفل ، لمس ظل القناص (الذى كان يستهدف للتو المرأة الشابة) واجهة فندق جراند أوتيل ديزال بالوالى هو بضربة واحدة تصلمت الشرفات الخشبية كلها من دور إلى دور فوق بعضها محطة سحابة صاخبة من التراب والجبس والركام . ترك الكشافان معا فعل الصدمة وبون تشاور ، يد العربة فهبطت عدة أمتار على الطريق ثم اعترضت عجلاتها الطريق وانقلبت على جانبها ، واحد من الأشبال جلس على الأرض وأخذ يبكي فصرخ به القائد أن هذا السلوك لا يليق بزيه مما ضاعف من دموعه . أمطر الركام الفرقة ، قفز قسما على الأخرى وحين صدم كشاف يده فانتفضت للتو مزقة مرت المرأة الشابة بيدها على شعرها لتنفذ الركام من على رأسها ثم ماتت على عربة الطفل فإذا بها تلحظ حجرة ما صغيرة وقعت على وجه الطفل فأحدثت بأحد وحينئذ إصابة خفيفة تنزف قليلا ، فصرخت «لقد جرح أبنى جرح» .



اشكالات المصطلح الغربي فى نقدنا الجديد

د. سمير حجازى

ينتشر يوما بعد يوم استخدام المصطلح الغربى الحديث فى نصوص نقدنا الجديد دون أن يكون مصحوبا فى أغلب الأحيان بتحديد مدلوله فى هذه النصوص ، فتبدو للقارئ ناقصة أو غير مكتملة وغامضة ، ويبدو المصطلح غريبا وبلا معنى فى بنائه ذهنى أو الثقافى نظرا لأنه قد نقل إلى لغتنا العربية وفق معايير شكلية أكثر منها دلالية وينفس هذه المعايير يستخدم فى أغلب نصوص البحوث أو الدراسات الأدبية أو النقدية.

ولعل سيطرة هذه المعايير فى النقل أو فى الاستخدام ترجع إلى المناخ الثقافى الذى يحيط بالناقد أو الباحث ، وفى هذا المناخ يشيع فكر لا يميل إلى التعامل الموضوعى مع المفردات والمفاهيم المنقولة عن الثقافة الغربية الحديثة . ويمكن اعتبار الاندفاع فى الاتجاه الشكلى دون ما وعى بالاهتمام بالمضمون العام للمصطلح مثالا بارزا على ذلك.

إن المهم فى المصطلح هو استخدامه لا تحديد مضمونه ، هذا ما تقرره أغلب نصوص النقد العربى الجديد بصورة مباشرة فأصحابها على أختلاف نزعاتهم ومدارسهم يسقطون من حسابهم عادة قواعد التعامل الدلالى العلمى مع مختلف أنماطه وهذا واضح عند رواد هذا النقد وغير رواده ، فهم يعتبرون أن هذا التعامل مهمة الباحثين فى ميدان العلوم الإنسانية أو

التجريبية . أما مهمة الناقد أو الباحث في نظريتهم فتتمثل في دمج المفردات والمفاهيم النقدية الحديثة في بناء نصوصهم لكي تحملها ألوانا شكليا معينة هو في نظريهم لبن الداتة .

لكن هذه النظرة لا ترضى الباحثين نوى النزعة العلمية لأن هؤلاء الباحثين يرون ضرورة تحديد مدلول كل مفهوم أو مصطلح وارد في نص البحث أو الدراسة خاصة إذا كان منقولاً عن إحدى نظريات الثقافة الحديثة وعلى هذا الأساس تقهم أن مهمة الناقد أو الباحث في ظل هذه النزعة ليس فقط في استخدام المصطلح في نصوصه ولكن أيضا في أن يقدم مدلوله في بنية اللغة والثقافة العربية.

إن الشيء الذي لا شك فيه أن النزعة غير العلمية لدى الناقد أو الباحث تسهم بطريقة مباشرة في صيغ التعامل مع المصطلح بلون هذه النزعة ومن هنا يمكن القول بأن اشكالية التعامل مع المصطلح من ناحية نقله إلى العربية أو من ناحية تحديد مدلوله في النص ، تعد جزءا من طبيعة ثقافة الناقد أو الباحث ، ووجهها من أوجه السلوك اللغوي غير المنعزل عن إطاره الحضارى ، فثقافة الناقد أو الباحث لم تتح له فرصة تكوين إطار علمي أو موضوعي يتعامل به مع مختلف أنماط المفردات أو الظواهر اللغوية والأدبية فغياب هذا الإطار جعله غير قادر على معالجة المصطلح أو المفاهيم الحديثة بطريقة موضوعية.

فالمسألة ليست في القدرة على حشد كم هائل من المصطلحات أو المفاهيم في نصوص البحث أو الدراسة ، وإنما في القدرة على معرفة مدلولاتها معرفة عقلية تتيج له أن يناقشها ويتأملها ويحدد مضمونها في بنية اللغة والثقافة العربية خالشي الجوهري الذي يركز فيه معنى هذه القدرة هو التفاعل الكيفي مع مفردات اللغة والثقافة الحديثة في شكل إضفاء على ما ينقله من مفردات أو مفاهيم طابع المشخصات المحلية أو طابع الثقافة العربية ، مع الحفاظ على جوهر مشخصاتها الغربية إن التفاعل الكيفي مع المفردات أو المصطلحات الحديثة يحتم على الناقد أو الباحث أن يتعامل معها بمعايير العقل والوضوح التي تنأى به عن أجواء الاضطراب أو الفموض في النقل أو في تحديد المضمون وأبسط مظاهر هذا التفاعل تتمثل في قدرة الناقد أو الباحث على تطويع المفردات وتحديد مدلولاتها في ظل قواعد محددة تنهض على أساس الربط بين السياق الثقافي الذي استخدمت فيه وبين السياق الذي تم النقل إليه.

هذا الفهم لمظاهر التفاعل الكيفي وبوره في التعامل مع المصطلح لم يكن قائما في الواقع النقدي ، ولم يدر بخلد الكثيرين من النقاد أو الباحثين فهم يعالجون نصوصهم ويستخدمون فيها الكثير من المصطلحات أو المفردات الحديثة بون تحقيق شكل من أشكال هذا التفاعل ، بحيث فقد المصطلح جوهره المعرفي ، وأصبح يعكس حالة الناقد أو الباحث الثقافية والحضارية أكثر مما يعكس المصطلح نفسه وما يحمله من دلالات نقدية . وسواء كان يعكس حالته الثقافية أو جانباً

من جوانب سلوكه الحضارى، فبالشئ الذى لا يشك فيه أن هذا الانعكاس لا يتعارض مع الربط بين التعامل غير الموضوعى مع المفردات الحديثة وبين طبيعة ثقافة الناقد أو الباحث من حيث إنها تمثل المضمون الذى يملئ عليه نمطا معيناً من السلوك اللغوى يتعامل بوساطته مع مختلف أنماط الظواهر اللغوية والأدبية.

ويمكن أن نلمس بعض مظاهر هذا السلوك اللغوى فى المناخ الثقافى الذى يحيط به، حيث نشاهد فى بعض النصوص النقدية مصطلحات غريبة مكتوبة بحروف عربية، أو نشاهد تداخلاً بين بعض المفردات الأجنبية ومفردات أخرى عربية فى سياق بعض الأحاديث الأدبية، لمحاولة الربط بين الفكر التقليدى والفكر الحديث، أو نشاهد تخطياً فى التعامل مع مفردات النقد الغربى الحديث أو العجز عن التعامل والتكيف معها لغوياً وثقافياً.

والواقع أن عدم التفاعل الثقافى مع مفردات النقد الغربى بمعنى ما من المعانى يعد شكلاً من أشكال عدم التبادل الفكرى بين طبيعة ما يتلقاه الناقد أو الباحث من الثقافة الحديثة وبين طبيعة إطاره الثقافى، فبطبيعة هذا الأخير لم تسعفه فى دمج هذه المفردات فى بنية لغته العربية بوساطة مجموعة من القواعد الموضوعية وتقصد هنا بعدم التفاعل الثقافى مع المفردات الحديثة عزلة الناقد أو الباحث عن جوهرها الدلائلى، واستخدامها فى تصوصه استخداماً شكلياً يشبه من يصف مفردات بجوار بعضها البعض. وتكون ذات دلالة من حيث النظم لا من حيث المعنى أو الدلالة.

وقد يتضخم هذا الاتجاه فيصبح كمن يتكلم لكن لا يقول شيئاً، وقد يعتدل فينتهى إلى وضع نمط من المعانى، أو المضامين الغامضة أو المضطربة، ومن الطبيعى أن تسود أغلب نصوص النقد الراهنة مظاهر النزعة الشكلية فى التعامل مع المصطلح، ما دامت هذه النصوص لا يتجه أصحابها نحو البحث عن مدلول المصطلح فى إطار ثقافته الأصلية وإطار الثقافة المحلية وفى استطاعتنا أن نعتبر نقل الناقد أو الباحث للفظ لا المعنى مظهرًا من بين هذه المظاهر.

إن نصوص النقد الجديد ذات سمة بارزة تميزها عن جميع نصوص النقد فى الستينيات والسبعينيات، إلا وهى حشد مصطلحات فى ثناياها غير مألوفة للقارئ ومقطوعة الصلة بإطاره اللغوى والثقافى.

وهذه الظاهرة قد تجلت بوضوح فى بداية عقد الثمانينيات حين شاع الاتجاه البنئوى الشكلى والتواييدى (الدينامى) فى نصوص النقد. وأعقب ظهور الاتجاه التفكيكى الانطباعى فى عقد التسعينيات حيث سيطر - كما زال - على أغلب هذه النصوص نون أن يعلم القارئ المتخصص وغير المتخصص المضمون اللغوى أو المعرفى للمصطلحات التى استخدمت فيها.

نظراً لأن الهدف من وراء استخدام المصطلح الحديث هو إضفاء طابع التجديد أو الحداثة على البحث أو الدراسة نون مراعاة قواعد التعامل معه من الزاوية اللغوية والمعرفية، العلمية فى التعامل

مع المصطلح والمحصلة لذلك أن هذا التجديد لم يبن النقد أفضل مما كان عليه من قبل ، لأن مفاهيم ومصطلحات النقد الانطباعي التفكيكي ثائرة على العقل والعلم ، ولا تركز إلا على صناعة الناقد وتعتبرها الأساس في عمله وجوهر وجوده .

والمشاهد أن هذه المفاهيم وتلك المصطلحات نهضت على انقاص النزعة العلمية التي أرسدت قواعدها البنيوية الشكلية والتوليدية (الدينامية) وتسعى إلى إبراز دور القارئ الغرد في إعادة تشكيل النص وفق تجربته وخبراته الخاصة اللغوية والثقافية والنفسية ، بقصد الوصول في نهاية الأمر إلى لغة النص الأولى ، أي لغة الإنشاء ، وهي لغة ذات طابع شكلي وصفي انطباعي ، تذكرنا بعصر الرومانسية بمعنى ما من المعاني .

إن هذه اللغة التي يصل إليها الناقد بوساطة مفردات ومصطلحات خاصة ، لم تساعد القارئ على فهم العمل الأدبي أو تفسيره ، بل أبعدته عن جوهره وعن أبعاده المختلفة فالنقاد أو الباحثون الذين تنبؤا مفاهيم ومصطلحات هذه اللغة ، وحاكوا النقاد الغربيين الذين ثاروا على ربط الأدب بالمجتمع والتاريخ وعلى دوره في بناء الوعي الإنساني ، أعطوا الأولوية لتحليل الشكلي ذي النزعة التجزئية وللانطباعات الوصفية ذات النزعة الإنشائية التي تقتت وحدة عناصر العمل الأدبي ، وتجعل لغة النقد لغة قريبة من لغة الخبرات الوجدانية ، ترفض التعامل مع التفسير أو القراءة الموضوعية .

لا نريد هنا الحكم لهذه المفاهيم أو عليها ، وإنما نريد الإشارة إلى سماتها العامة ، باعتبارها سمات تسيطر على نصوص نقدنا الجديد دون اتفاق بين النقاد على معاني مصطلحاتها ، أو تحديد مدلولاتها في بنية الثقافة العربية . ولئن كانت هذه المصطلحات في تناول الفرس الأدبي أو النقدي أمراً ضرورياً ، فإن الاتفاق حول نقل معناها أو تحديد مدلولاتها أمر ضروري أيضاً كي يتم القضاء على الفوضى الشائعة في هذا المضمار فإشكالية المصطلح من البروز في واقعنا النقدي ولا تحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب فهي حقيقة قائمة وما علينا إلا أن نحاول استخلاص منطق وجودها من نصوص النقاد والباحثين . ويمكن اعتبار تعدد معنى المصطلح الواحد في هذه النصوص مثالا على ذلك وفي عجز الناقد عن تحديد مضمون المصطلح مثالا آخر .

إن مضمون المصطلح أصبح في نظر الناقد أو الباحث لا يحتاج إلى اهتمام أو عناية خاصة لاحتكام جوانب درسه أو بحثه من الناحية النظرية ، ويجتنب القارئ في الوقت نفسه أن يطرح على نفسه تساؤلات محيرة . ماذا يقصد الناقد أو الباحث بعبارة «تفكيك النص» أو «شاعريته» أو «قراعه» أو «نقد التفكيك» أو نقد بنائي» أو غيرها من العبارات والمفردات الشائعة في حياتنا الثقافية دون أن يعلم القارئ مدلولاً محدداً لها في نص الناقد أو في بنائه الذهني أو الثقافي .

نظرا لأن الناقد اكتفى بنقلها من مصادرها الغربية وترك للقارئ مهمة البحث عن مدلولها في بنية الثقافة العربية.

وحين نقلها من هذه المصادر نقلها بطريقة شبه طبيعية ، جعلته يفضل الفطرة على العقل والانتطاع على العلم . وكان أبرز آثار ذلك انقطاع صلة المصطلح بالنظرية التي أفرزته ، وبالسباق الذي استخدم فيه ، وبالمضمون الذي يحمله . ولعل هذا التردى هو السبب الذي جعل أحد النقاد يذهب إلى القول بوجود أزمة في المصطلح النقدي ، وأن هذه الأزمة في رأيه لا ترجع إلى نقل لفظ أو مصطلح من سياق لغوي إلى آخر وإنما ترجع إلى أزمة في العجز عن تحديد المضمون .

والواقع أن العجز عن تحديد المضمون مسألة موجودة وقائمة فعلا في مضممار التعامل مع المصطلح ، وهو نفسه أحد مظاهر اشكالياته ، لكن هذا العجز ليس حسب تصورنا هو سبب الأزمة التي يجتازها الناقد في تعامله مع المصطلح ، فالسبب الحقيقي يرجع إلى غياب طريقة التفكير أو المنهج العلمى في التعامل مع المفردات النقدية الجديدة ، أو مفردات الثقافة الحديثة ، أو مع الكثير من ظواهرنا الثقافية.

ومهما تعددت الأسباب ، أو تعددت الآراء التي قيلت عن أزمة المصطلح ، فإن الذي لا شك فيه إن إشكالية اهتزاز صياغته ، وتضارب الآراء في نقل معناه ، وغياب مضمونه من بنية الثقافة العربية ، وقائع ثقافية تعكس بشكل ما طبيعة التعامل مع المصطلح ، كما تعكس في الوقت نفسه طبيعة ثقافة الناقد أو الباحث ، باعتبار أن طريقة معالجة المصطلح عملية لغوية- فكرية مصدرها مجموعة عناصر ثقافية وحضارية.

إن طريقة المعالجة التي اتبعها الناقد أو الباحث مع المصطلح تبذل للقارئ بسيطة وسانحة ، فالمسألة الأساسية كانت تتمثل عنده في كيفية نقل لفظ أو مصطلح من ثقافة مركبة إلى ثقافة بسيطة ، بينما الأمر يختلف عن ذلك تماما ، ويتمثل في الجواب عن السؤال : كيف نربط بين مدلول المصطلح وفق معايير الثقافة الحديثة ، ووفق معايير الثقافة النامية ، وإجابة هذا السؤال تحتم على الناقد أو الباحث الاهتمام بالبحث في جانبين مختلفين ومحاولة الربط فيما بينها بمعنى ما من المعانى.

أى الربط بين دلالة المصطلح في بنية الثقافة الحديثة ، وفي بنية الثقافة النامية ، باعتبار أن اللغة غير اللغة ، ودلالة التعابير تختلف من بيئة لأخرى نظراً لوجود فروق بين الثقافتين .

فضلا عن ذلك إن المصطلح الحديث ليس له جنس في تراث النقد العربى . فهو على صلة مباشرة بالنظرية البنوية أو التفكيكية- وكلتا النظريتين- كما هو معلوم- من ابتكار الفكر النقدي الغربي الحديث ، ويتطلب التعامل مع مفرداتهما أن يتحرك الناقد أو الباحث في حدود مجموعة من القواعد المعرفية القائمة على أساس المقارنة بين الثقافة الغربية والثقافة العربية من حيث اللغة ،



ودلالة التعبير ، وطبيعة المعايير.

وعلى هذا الأساس نفهم أن مهمة الناقد أو الباحث في ميدان التعامل مع المصطلح، ليست في نقله فقط من لغة الأوربية إلى لغتنا العربية- كما المحنا من قبل - وإنما أيضا في ضبط صياغته ، وتحديد دلالاته في بنية لغته الأصلية وفي بنية اللغة العربية . فقد نقل على سبيل المثال مصطلح *Structuralisme genetique* إلى العربية بمعنى البنية التوليدية ، وهذا المعنى ليس له دلالة واضحة في بنية اللغة والثقافة العربية . أضف إلى ذلك إن الصياغة التي نقل بها صياغة غامضة أو عديمة الدلالة ومحرفة عن مدلولها الجوهري .

ومعنى ذلك إن نقل المصطلح إلى العربية لا يعنى إن مهمة الناقد أو الباحث قد انتهت ، لأن مجرد النقل لا يفيد القارئ أو يفيد نص البحث أو الدراسة في شيء يذكر . فهناك عشرات بل مئات من المصطلحات الحديثة نقلت إلى العربية لكنها لم تضاف جديداً للنقد أو للثقافة العربية.

وقع خطأ غير مقصود في عنوان مقال د. سمير حجازي في العدد الماضي من أدب ونقد وصحة العنوان "إشكالات نصوص النقد العربي الجديد".



يوسف

سمير الأسير

بحب النفوس

من مؤمنين وماجوس

العشق رايه فوق جميع الرؤس

والبنيت مظلومه

هل كان فراقك سهلا على قلب مرات العزيز

والسجن بيت الحكمة يا يوسف

جبار جمالك ومستغفى

بينخلق الشهوة ويخنقها ف نفس واحد

بتغنى ليه من يوسف

وتهيل اخواته

هوه أنت أرحم عليه

م اللي ابتلاه بالسر

عائز تعد الكواكب

عد فى الأحلام

دلذل حبلك

وارفع يوسف يا سيار

رزقك درهم معكوك دم

نايم فى جيوب التجار

إوهى تبص ف عين الحلم

لو منتاش قد الأسرار

يوسف مش غنيوه وقيلم

يوسف مش فرق الأسعار

يوسف «جهل» ويوسف «علم»

ورد الجنة وشوك النار

النحل كان طائر وشم الرحيق

والبنيت شمت ريحة عرق بدوى

شقت قميص ملبوس

جواه جمال محبوس

طبع الإله النفوس



كانت قضيه من قضايا العصر
 صبحت عجينة الفن
 ريحه فى الصور براوير
 تحرق أبو الاعجاز بجاز
 تحرق أبونا فى مصر
 ويلاذ الحجاز
 إحنا شعوب مهزومه
 ممنوع عليها قرأية النص
 غير فى الصلا والإذاعة .

عايز تعنى غنى عن وسط
 سايب بين القاهرة والشام
 وعن حكام وتجار غفن
 ورقاصين خدام مقام الجهل
 يوسف مالو هتش مقام حجر وقزاز
 ولا مقام مزيكا
 وأنا اللي ابتليت بطلم يوسف
 وسوست نفسى لما افكرتك
 حنيت لصوتك عذرتك
 وبورت الشريط القديم



ثلاث قصص قصيرة

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

ميلاد يوم آخر

مزق ورقة النتيجة بما فيها من تاريخ اليوم الميلادى والهجرى . و قد أن يفرق الكنب كله .
مثل كل يوم وجد نفسه على الشاطئ . وحيدا مثل كل ساعة يمضى . مثل كل دقيقة ..
دائما .. يجد النهر على أهبة الرحيل .. أغراء صدره المتسع للانحناء عليه . للدخول بين أعطافه
حتى تمكن من رفع مياهه إلى فمه . دلقها فى جوفه . ملأ رثتيه بأرواح من خرجوا من مسام
الأحجار .

مرة أخرى ملأ رثتيه بهواء البحر .. بعد هنيهة لفظ أنفاسه فى لهيب شوت أسماك المحيطات
هناك جلس على الشاطئ الآخر . التهم كل ما كان بين يديه .
بينما النهر يجرى تحت عينيه محملا بأكام البقايا ، وخطام السفن القديمة ، وأثواب كثيرة من
رغاء الزيد .

النبش على أوجاع الطين

حسننا .. ينسى ..
من طبيعة الإنسان النسيان ، لأجل ذلك . قرر قبل أن يتبدد ما فى رأسه . أن يقوم بتسجيله .
فى التو . رسم ما عن له شجرة حمارا سفينة تجرى على حائط الدار الطينية .

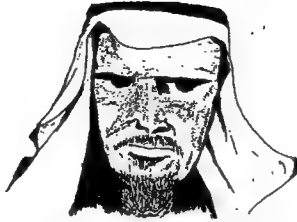
كان الهدف من وراء النيش أن يشرح سبب اندفاعه طوال الليل حتى أغرقت الشمس
الطرقا ، أصبح اتكائها على كتفيه حملا لم يستطع التخلص منه .
تحت لهيب دورانها ، خرج ظل منه وفى دورة سريعة تعددت ظلاله كل الحياة التى كان يعج
بها السطح سقطت فى النهر ، دون أن تبذل أو يلحقها الفرق ، وأن كانت الأشياء التى ماتت فى
حياته لا تزال تتنفس بعمق فيه .

استرعى انتباهه - هو فى قلب النهر - الجفاف الذى أصيب به حلقة من فرط العطش . موجة
واحدة ارتفعت إلى قامته ، التقم بين شفتيه إحدى الطمات لبث يمتص ويمتص منها حتى قام من
النوم على لفح أنفاس الشمس ، وكان طعم اللبن لا يزال يفوح فى فمه متخفرا .

حديث الظلال

حيثما ولى وجهه . بدت المروج مرصعة بباقيات من البنفسج . كل مظاهر الطبيعة ارتمت فى
حضنه غادة . تتلوى على سيقان ريانة . فتحن أبواب روحه على الالتهام .
حاورة الظلال الخارجة من أجساد الظباء والطيور وهامات أشجار التوت والجميز ، وكان
للهماء لسان يحكى معه ، وللورود أحاديث طلية : اختلطت بنصوات زقزقة الطيور فوق زاخر
الأمواج .

وإذ دخل بين فروع شجرة الجميز . وجد جسده ينحل ويشف ، وقد سقطت من حول جذعه
وريقات صفراء ، ولبث ينحل وينحل حتى تحول إلى شكل من البنور . دون أن يدري أنه مر على
هذا المكان قبل ، ولا متى خرج من بثرته وامتد بالظلال .



«الحادثة»

محمد عبد العظيم

بلغنى إليها القارئ السعيد أن الترام كان فيه عدد قليل من الركاب .. ثلاثة عمال فى شركة واحدة وسيدة أرستقراطية عجوز معها كلبها المدلل وفنّانة جميلة وفنّ.

تحرك الترام بسرعة مخلفاً وراءه المحطة الأولى وأم يهتم أحد منهم لأن أحدهم لم يكن لينزل فيها حتى لو وقف الترام وفتح الباب ، بينما ضرب الواقفون على المحطة كلاً بكف وعندما تكرر ذلك فى المحطة الثانية توجهس أحد العمال الثلاثة لأن محطة كانت التالية ونما داخله شعور غير مفاجئ بأن هذا السائق لا يتوقف فى المحطات المحددة.. صارح زميليه.. قرأ مساننته ضد السائق إذا لم يتوقف فى المحطة القادمة، ثم اقترح أحدهما أن ينبها السائق قبل المحطة وبالفعل حدث ذلك لكن السائق لم يهتم وبطريقة مستفزة وأصل صيحه متجاوزاً المحطة الثالثة.

تروى المكايات أن الفتى أحب الفتاة بعد تجاوز المحطة الثالثة وهناك قول بأن الفتى كان يتابع الفتاة أصلاً منذ ثلاثة أيام وفى رواية حديثة ذكر أن الفتى لم يحب الفتاة أساساً حيث اختفى ما يسمى الحب فى ظروف غامضة.

ورد فى التحقيقات التى دارت بعد الحادثة أن العمال الثلاثة ملجأوا السائق لإجباره على التوقف ولكنه رغم ذلك تماك أعصابه وضرب الثلاثة بيد واحدة . فيما بعد أسقطت المحكمة شهادات معظم الشهود لطل مختلف ولم تعترف بالمشاهد الأخير لأن أباه كان أجنياً من دولة غير شقيقة ، ومن نافذة القول أنه قد اتهم بالتجسس فيما بعد لحساب نفس الدولة.

كل الجرائد العالمية ما عدا إحدى الجرائد الروسية تقول إن العربة تعدت المحطة الرابعة وأدليل أن جهاز العد الدولى قد قام بعد ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين للفتاة من الفلنكات عبرتها العربة قبل حدوث ما حدث، وتختلف الجريدة الروسية فى

تعميدها عبداً أقل من الملكات مما جعلهم يخطئون في حساب المحطات وبالتالي قالوا إن العربة حدث لها ما حدث قبل الوصول للمحطة الرابعة، وسبب الاختلاف هو بيان أذاعة هيئة النقل، والواصلات حول وجود اثنين وسبعين طنكة مسوسة وأن العربة خرجت عن الخط في الثالثة والسبعين.

المهم أن الجميع يتفقون أن عربة الترام خرجت عن القضبان وانطلقت في شوارع المدينة الخالية حتى اصطدمت بذلك المبني الأيل السقوط فلم يسقط منه شيء، وتخرجت رؤوس العمال على الأسفلت بينما بقيت أجسادهم داخل العربة، وصرخت السيدة وهي تخفي عيون كليها ، بينما راح الفتى يبحث عن الفتاة فوجدتها ملقاة بعيداً على مرمى البصر ،عندما حضرت الإسعاف كانت المحووز قد ماتت بالسكتة وكليها أصبح كلب شوارع واغتلت رؤوس العمال فخلقت الإسعاف جسد الفتاة بينما بقي الفتى واقفاً في ذفول.

تقول القصة المتواترة إن السائق لفتني وادعى اليمض أن السائق لم يكن هو نفسه في الحقيقة بل كان جنياً تتغل في صورة السائق واستشهدوا بأن هذه الأشياء معتادة في ألف ليلة وليلة، وقال بعض المعارضين وأصحاب نظرية المؤامرة إنه قد قلل قبل حدوث الحادث وركب في سيارة رمادية عليها أرقام دبلوماسية وخرج من البلاد رغم أنوف العباد فأجرى عملية جراحية وتغيرت خلقت بالكلية.

من المعروف أن زوج السيدة الأرستقراطية اشترى البناء الذي اصطدمت به عربة الترام ثم هبمه وأعاد بنائه ناطحة سحاب عملاقة الأحمر منة الأميرسميتيه بخمسة سنتيمترات ونصف وقد أصبحت مركزاً تجارياً وتعليمياً ورياضياً وثقافياً وأشياء أخرى ،وقد سميت على اسم كلب السيدة اللذال وأطان الزوج المكوم عن مكافأة مليونية لمن يعثر على الكلب الجيب.

وبعد فحص عدة ملايين من الكلاب تم العثور عليه بمكافأة من أحضره بالسجن نظراً لاختلافه كلب من كلاب المائلات المحترمة، وقد وجد السيد الكلب في حالة نفسية سيئة بسبب ما تعرض له من توتر عصبي فقرر السيد صاحب الكلب أن يخصص الأدوار الخمسة العليا من ناطحة السحاب للمستشفى الخاص بالعلاج التلسمي لكلاب المائلات (F.D.P.H) واستحضر الحاصلين على الدكتوراة في هذا المجال من بلاد العالم الأول مع السماح للماصلين على درجة الماجستير بمنح دراسية محدودة.

فلما كانت الليلة الأولى بعد الألف الثانية بلغنا أيها القارئ السعيد أن الفتى كان قد قضى أيامه بين عمله وزيارة المستشفى العام الذي ترقد فيه الفتاة في غيبوبة فلما فاضت روحها من فرط النظافة البالية والعناية الكاملة وتوافر امکانات العلاجية أقيمت الأفراح لشقاء الكلب المصون من«الشين وغيرتيا» وتم زف الخبر اليمون الزوج في سيئله، وكان قد ادعى أنه ذاهب لحضور المنتدى الاقتصادي السنوي لكنه في الواقع كان مضجعا بين الشقراوات.

صعد الفتى ناطحة السحاب حتى للمستشفى ثم ارتقى السلم إلى السطح لأن للصعد الذي يوصل للمسافة الباقية كان خاصا بالحالات العاجلة لل(F.D.P.H) ،فوق السطح أخرج عربة «الاسبراي» وكتب على أرضية مطار «الهيبيروكويتر» التابع لل(F.D.P.H) : أيها القابع في سيئله،.المجد لك ثم وقف على حافة السور وبدأ في رحلته الطائرة.



الشارع الثقافى

إعداد: عبد الحليم

دور مصر الثقافى عبر العصور

كانت مصر طوال العصور الفرعونية والقيبطية والإسلامية قبلة لشعوب العالم ، من أجل التزود بالمعارف والطول بكافة مجالاتها وربما يرجع ذلك - فى الأساس - إلى تنوع الروافد الحضارية وتأثيرها ، مما أكسب المكان شخصيته الخاصة ، وعمقه التاريخى.

وفى ظل أسوأ الظروف الثقافية التى مرت على العالم العربى خاصة بعد الفتح العثمانى للمشرق عام ١٥١٧ ظلت مصر منارة للباحثين عن المعرفة من أقطار العالم كافة ، فقد قام الأزهر بدور تنويرى تطور كثيراً مع بداية إنشاء « مصر. الحديثة » على يد محمد على باشا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد ماثل هذا الدور ما قامت به مكتبة الإسكندرية القديمة فى إضاءة المشهد الثقافى العالمى.

ومن أجل استعادة الذاكرة الحضارية الثقافية لمصر أقامت « لجنة التاريخ » بالمجلس الأعلى للثقافة حلقة نقاشية حول « الدور الثقافى لمصر عبر العصور » شارك فيها الدكتور : يونان لبيب رزق ، وزبيدة عطا ، ومصطفى العبادى ، ومصطفى كمال عبد الحليم ، واسحق عبيد ، ومحمد إبراهيم بكر ، وسيدة كاشف ، وأيمن فؤاد سيد ، ومحمد عفيفى عبد الخالق ، والسيد على فليفل ، وعبد الوهاب بكر.

ومن دور الجامعة المصرية وتأثيرها فى الواقع العربى جاء بحث د. يونان لبيب رزق الذى أكد أن الجامعة المصرية قد أنشئت فى عام ١٩٠٨ فى ظروف لاتسمح بامتداد تأثيرها للخارج نظراً لانشائها فى ظل ظروف الاحتلال البريطانى، الذى كان جريماً على قطع أسباب الاتصال بين مصر والنول

المجاورة لها أو بالأحرى منعها من أن يظل لها نفس الدور التقليدي المحورى الذى كانت تلعبه .
بالإضافة إلى أن الفكرة التى سيطرت على مؤسسى الجامعة عند نشأتها أن تكون مكاناً لطلب
العلم العلم ، الأمر الذى لم تكن معه الشهادات فى حساباتها ، وهى التى يسعى إليها - فى العادة -
المتطلعون لطلب العلم القادمون من الخارج ، ومنها أن الجامعة الأصلية - رغم البداية الحماسية قد
تعرضت خلال السنوات الأولى لإنشائها لعوائق فنية ومالية جعلت منحني الإقبال عليها يميل إلى أسفل
وهذا ما أكتته الإحصاءات التى أوردها « دونالد مالركولم ريد » فى كتابه « جامعة القاهرة وصناعة مصر
الحديثة ».

لكن هذا الدور المتقلص اتسع - كثيراً - خاصة فى الثلاثينيات من القرن العشرين من خلال
إرساليات الجامعة إلى الدول العربية ، ومنها « زيارة بعثة الجامعة المصرية إلى العراق فى عام ١٩٣١
تحت إشراف المفكر أحمد أمين ، وقد ضمت عددا كبيرا من المثقفين منهم عبد الوهاب عزام ، وشفيق
غريال ، ومصطفى عامر . وكان لهذه الزيارة أثر كبير فى احتكاك طلاب الجامعة المصرية بطلاب العراق
من ناحية ، ومن ناحية أخرى تأسيس « جمعية الثقافة العربية » التى كانت مهمتها الرئيسية توثيق
العلاقات الفكرية بين البلاد العربية ، وقد تبع هذه الخطوة أن سعت دول جديدة للانضمام للمعاهدة
المصرية العراقية ، وبعد تأسيس جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٥ ، انتشر المعلمون من خريجي
جامعة فؤاد الأول فى شتى أنحاء العالم العربى ، فكان منهم ١٤٥ معلماً بالعراق ، و ١٠٠ فى سوريا ،
و ٣٨ فى السعودية ، والأردن ٦ معلمين وكذلك فلسطين ، ولبنان ٢٠ واليمن ١٤ ، والبحرين ١٣ ، وقد
كانت وزارة المعارف المصرية تتكفل بجزء كبير من مرتبات هؤلاء المعلمين فضلاً عن تزويد المدارس
العربية بالكتب المدرسية وعن العمق الاستراتيجى للحدود المصرية فقد أنشئ فرع لجامعة القاهرة فى
الخرطوم عام ١٩١١ من خلال إنشاء « الكلية القبطية للبنين » ، تبعتها إنشاء عدد من المدارس المصرية
كان أكبرها « مدرسة الخرطوم الثانوية » التى افتتحت عام ١٩٤٦ . وقد تم استكمال مشروع الجامعة
المصرية فى الخرطوم عام ١٩٥٥ ، وقد أثبتت هذه التجارب أن الوحدة الثقافية هى أهم عناصر الوحدة
العربية.

وإذا كانت الجامعة قد لعبت دوراً مهماً فى التأثير الثقافى فإن هناك مؤثرات دينية مصرية أثرت فى
الوجدان العالمى ، خاصة ما عرف بـ « الرهبنة » وهى نظام مصرى خالص كنتاج طبيعى فى تكوين
الشخصية المصرية التى تميل بطبيعتها إلى التدين نتيجة للارتباط بالخالق سبحانه وامتداد المكان مما
أكسبه نوعاً من الشفافية ، وقد جاء البحث الذى قدمته الدكتور « زبيدة عطا » عن « تأثير الرهبانية
المصرية فى عالم البحر المتوسط » مؤكداً هذا الجانب المهم ، فقد تركت الرهبنة المصرية بصورتها
الانفرادية تأثيرها على المدن التى تطل على عالم البحر المتوسط مثل سوريا التى غالت فى الرهبنة إلى
تعذيب الجسد لتطهير الروح من أمثال « سيمون العمودى » الذى قيل إنه ظل ثلاثين عاماً على عمود أو
جذع شجرة قرب معرة النعمان.

كذلك وصل هذا التأثير إلى إيطاليا على يد أوغسطسطين ، وقد اقترن هذا التأثير بصراع فكرى قاده

رهبان مصر ابتداء من « إثناسيوس إلى كيرلس وديفوريوس ، لكن الحال لم يبق على ما هو عليه ، فقد تراجع هذا التأثير وبدأت مرحلة الانغلاق على الذات وقد أصبح التأثير داخلياً قبطياً .
ولعل أثر الرهبة على نول حوض البحر المتوسط يعد امتداداً طبيعياً لتأثير « كهنة مصر » في العصر الفرعوني على فلاسفة الإغريق وهذا مانلمسه من اهتمام فلاسفتهم وبخاصة « أفلاطون » الذي زار مصر واحتك بكهنتها ، وقد صدق كاهن مصري قديم قال « إن الإغريق أطفال إذا قيسوا بمفكرى مصر من كهنة وغيرهم » وهذا ما أشار إليه د. مصطفى كمال عبد العظيم « الاتصال الثقافى بين كهنة مصر وفلاسفة الإغريق » والذي أكد فيه أن هذه الصلات قد زادت فى الفترة من حكم الأسرة السادسة والعشرين « ٦٦٣ - ٥٢٥ ق-م » وفى أثناء الحكم الفارسى ٥٢٥ - ٣٣١ ق. م .

وعن دور مكتبة الإسكندرية فى القرون الأربعة الأولى للميلاد من خلال العطاء الذى قدمه كركبه من الفلسفة ، يأتى فى مقدمتهم « كلنت السكندرى » « ١٦٠ - ٢١٥ م » ومن بعده تلميذه « أورجين » « ١٨٥ - ٢٥٤ م » الذى كان من أبرز المعلمين السكندريين ، وه أفلوطين والفيلسوفة « هباتيا » « ٢٧٠ - ٤١٥ م » صاحبة المقولة الشهيرة « أما أنا فلقد تزوجت من الحقيقة وكفى » . وهذا ما أشار إليه د. اسحق عبيد فى بحثه « مدرسة الإسكندرية والعطاء الفلسفى » ود. مصطفى العبادى فى بحثه « مكتبة الإسكندرية فى سياقها التاريخى » .

أما التأثير الأدبى للعصر الفرعوني على نول العالم ، فتعتبر النصوص القديمة أهم الآثار الأدبية العالمية مثل نصوص الأهرام ، وهى عبارة عن أناشيد ومراثى ، أما الأدب الأسطورى فقد أهدى للوجدان العالمى والإنسانى كثيراً من الإبداعات منها أسطورة « إيزيس وأنوريس » بالإضافة إلى عدد من القصص مثل « خوفو والسحرة » و « البحار الفریق » و « قصة سنوحى » بما فيها من مغامرات .
وعن هذا التأثير جاء بحث د. محمد إبراهيم بكر . « الأداء فى مصر القديمة » .

دور حيوى

وإذا كانت الحضارة الفرعونية امتدت أبعادها الثقافية إلى عالم أرحب ، فإن التأثير المضامى للفتح العربى لمصر خاصة فى المرحلة الفاطمية أدى إلى إندماج كثير من التيارات الفكرية داخل إطار مايمكن أن يسمى بـ « التعريب » فقد ظهر كثير من العلماء المصريين مثل « عبد الله بن الحكم » وابنه عبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ مصرى لمصر العربية ، وه ذو النون المصرى « المتوفى سنة ٢٤٥ هـ .
وبالمثل كان التطور الثقافى فى عصر الولاة ومن بعدهم الدولة الطولونية والإخشيدية ، وقد وصف ابن خلدون مظاهر التقدم هذه بقوله « لا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع » . فإثناء تلك الفترة قام الجامع الأزهر بدور كبير ، وإن توقف دوره - لأكثر من مائة عام - على يد صلاح الدين الأيووبى ، نظراً لأن الأزهر كان فى تلك الفترة منبراً للدعوة للمذهب الإسماعيلى . ومع بداية حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ عاد إلى الأزهر دوره الحيوى والنحت به العديد من المدارس مثل المدرسة « الطيبرسية ، والمدرسة الأقباقوية وغيرها . وهذا ما أشار إليه د. أيمن فؤاد سيد فى بحثه عن « دور الأزهر بين العصر الفاطمى والمملوكى » .

أما د. السيد فليفل فتحدث عن « دور مصر الثقافي في أفريقيا في العصر الحديث » خاصة بعد ثورة يوليو وماشهدته من تنشيط لأدوار المؤسسة الفنية - خاصة مع تطوير الأزهر الشريف في عام ١٩٦١ وتأسيس وزارة الثقافة وبناء البطريركية المصرية بالعباسية ، بالإضافة إلى إنشاء « الصندوق المصرى للتعاون مع أفريقيا » التابع لوزارة الخارجية ، الذى يرسل العديد من الخبراء التعليمية لعشرات الدول الأفريقية منذ عام ١٩٨٢ ، وحتى الآن .

تابين حسين كمال الإنسان والفنان

برحيل « حسين كمال » انطوت صفحة مهمة من صفحات التاريخ السينمائى المصرى والعربى ، وقد عمل حسين كمال فى البداية مساعداً للمخرج الكبير يوسف شاهين ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الإخراج فقدم للسينما عدداً كبيراً من الأفلام المهمة منها « نحن لانزرع الشوك » و « شئ من الخوف » و « أبى فوق الشجرة » و « مولد يادنيا » و « العنزاء والشعر الأبيض » وغيرها . كما قدم للمسرح واحدة من أهم المسرحيات الكوميدية وهى « ريا وسكينة » التى قامت ببطولتها شادية وسهير البابلى وعبد المنعم مديولى وأحمد بدير .

كما قام بالمعالجة التلفزيونية لقصة « نحن لانزرع الشوك » التى عرضت منذ عامين على شاشة التلفزيون المصرى .

وقد قامت إدارة مهرجان القاهرة السينمائى الدولى برئاسة شريف الشوباشى بإقامة حفل تأبين وذلك بالمسرح الصغير بدار الأوبرا بالجزيرة للراحل حسين كمال شارك فيه عدد كبير من الفنانين منهم محمود ياسين ونور الشريف ، ونabila عبيد ، وعبد المنعم مديولى ، وعمار الشريعى وجمال الشراوى .

فأكد محمود ياسين أن حسين كمال قدمه لأول مرة فى فيلم « شئ من الخوف » مع محمود مرسى وشادية فى دور صغير ، كان بمثابة الشرارة الأولى لأعماله بعد ذلك ، فقدمه - بعدها - مباشرة - فى فيلم « نحن لانزرع الشوك » قصة يوسف السباعى كبطل أمام شادية وصلاح قابيل .

أما على المستوى الانسانى فأشار محمود ياسين إلى أن حسين كمال كان بمثابة الأخ الأكبر فى المشورة والوقوف بجانب أصدقائه ، بالإضافة إلى ماتمتع به من خفة دم جعلته يعيش فى حالة من «الرواقان الإنسانى» .

أما الفنانة نبيلة عبيد فقد أشارت إلى أن فيلم « العنزاء والشعر الأبيض » كان نقطة محورية فى طريق تجديدها والفضل فى ذلك يرجع إلى حسين كمال الذى كان فى قيادته لجموعة العمل حكيماً إلى أبعد حد ، وهذه الصفة غلبت عليه حتى فى خصومته مع الآخرين .

وعن دوره فى فيلم « مولد يادنيا » أكد الفنان عبد المنعم مديولى أنه حين طلب منه القيام بهذا الدور ، ظن أنه دور كوميدى يحت لكن المفاجأة أنه طلب منه أن يغنى ، فظن أن الأغنية ستكون للطفل - وهو اللون الذى اشتهر به مديولى - لكن الأغنية كانت عكس ذلك ، فقد كانت عميقة الغزنى ويحكى مديولى عن قصة هذه الأغنية فيقول : لقد أحضر حسين كمال سبعة مؤلفين وفى النهاية اختار هذه الكلمات :-

” زمان وكان ياما كان

كان الزمان إنسان

دلوقت ليه يازمان

مايقتش زى زمان

طيب يا صبر طيب

أما الفنان جلال الشراوى فقال : أستطيع أن استخدم تعبيراً آخر غير « التابن » فنحن بصدد احتفالية من الفن نستدعى فيها روح فناننا الكبير لعننا نستمد منه حياة تأخذنا من التبدل والسوقية كي نستطيع أن نقدم فناً حقيقياً وذلك بتلمس نكراه.

وفى النهاية قال الموسيقار عمار الشريعى : لم يتبق إلا دى ودموى وبالرغم من كل هذا ، مازلنا يا « حسين » نحبك كل الحب .

مسابقة راتب صديق لشباب التشكيليين

أخيراً وبعد عشر سنوات من رحيله ، أقيمت لأول مرة مسابقة « راتب صديق » « ١٩١٧ - ١٩٩٢ » لشباب التشكيليين بأيتليه القاهرة.

يذكر أن الفنان الراحل قد اقترح إقامة هذه المسابقة فى حياته وأودع لها وديعة فى أحد البنوك على أن يخصص ريعها للفائز واحد فى كل مرة ، وقد قرر مجلس إدارة الأيتليه برئاسة الفنان وجيه وهب - إضافة عدد آخر من الجوائز - يوماً مماس ببيع الوديعة المخصصة للفائز الأول.

وقد تزامن موعد إقامة المسابقة مع ذكرى تأسيس الأيتليه ١٩٥٢ وقد استهدفت تشجيع الفنانين الشباب الذين لا يتجاوز عمرهم ٣٥ عاماً.

أول على حد تعبير الفنان وجيه وهب أنها تبين عن وعى وإدراك الفنان الراحل « راتب صديق » لأهمية دور الجمعيات الأهلية فى الارتقاء بالحياة الفنية والثقافية للمجتمع والتي يعد أيتليه القاهرة واحداً من أهمها ومن أكثرها تأثيراً فى الحياة الثقافية المصرية على مدار نصف قرن ، تولى - خلالها - الفنان « راتب صديق » رئاسته لمدة تزيد على ٢٥ عاماً.

وقد شارك فى المسابقة ٧٧ فناناً تشكيمياً شاباً

أحمد السيد ، وأحمد بدرى ، وأحمد بسيونى ، وأحمد سراج ، وأحمد عبد التواب ، وأحمد عبد الله على ، وأحمد عبد الحميد ، وأحمد عبد المقصود ، وأحمد محمد صبرى ، وأحمد مصطفى أمين ، وأحمد محمود لبيب ، وأحمد مقبل عبد الحميد ، وأحمد تاجى ، وأحمد يوسف ، وأسمااء الدسوقي ، وأسمااء وجدى ، والسعيد سعد العبد ، وإيمان عبد الرحمن السيد ، وإيمان محمد البنا ، وإيهاب بكر ، وإيهاب جابر ، ويانسيه محمد الأدهم ، ويسمة عبد العزيز ، ويسنت حسين أحمد ، وتامر سيد أحمد ، وتامر محمد صلاح ، وحمدي أحمد عقدة ، وداليا صبرى ، ودنيا محمد جمال ، وروانيا رضا سلامة ، وريهام السعدنى ، وريهام محمود بخيت ، وزينب مصطفى ، وسامح جمعه أبو الخير ، وسامح عبد التواب ،

٤- «مكاشفات السيف والوردة» وهو كتاب ضم سيرته الإبداعية والثقافية.

٥- ترك المخطوطات التالية:

أ- رواية «المغزول»

ب- «القصيرة فى الملكة» وتضمن بعض دراساته وتأملاته عنها .

ج- ترنيمة (نصوص شعرية).

٦- ترك عدداً كبيراً من اللوحات الزيتية والرسومات المخطوطة بالحبر ويطمح أصدقائه إلى جمعها وطباعتها فى كتاب.

* شارك فى تحرير الملحق الأدبى لجريدة اليوم «المريد» من عام ٧٥- ٨١م ، وأسهم بالكتابة الأدبية والاجتماعية فى مختلف الصحف السعودية و ينوى أصدقائه اختيار بعض تلك المقالات وإصدارها فى كتاب.

* تزوج فى عام ٨٠م من السيدة «ناهد» وهى مواطنة أردنية من أصل فلسطينى ،وقد أهداها مجموعته القصصية الثانية «أسفار السروى» «وحيث لم يتجبا نظراً لظروفه الصحية فقد أختار بطريقة نبيلة لا يباريه فيها أحد- أن يفصلا شرعياً، ليتيح لها فرصة الزواج والإنجاب ، وقد انفصلا فى عام ٩٠م.

* أصيب بمرض السكرى وأدت مضاعفات المرض والعلاج مع مرور الزمن إلى التأثير على البصر ، واختلال توازن حركة المشى ، والفشل الكلوى واضطراره لفسيل الدم (الديليزة) وكذلك تعرضه لضغط الدم.

* أجريت له عملية لزراعة الكلى فى مستشفى الملك فهد بجدة فى النصف الأول من عام ١٩٩٣م وقد تكلت بالنجاح ، وساعده ذلك على التائق والإبداع فى السنوات الست الأخيرة من عمره ، ولكن «الغرغرينا» بدأت تغزو أطرافه فتم بتر إصبع من يده اليسرى ، ثم بترت القدم اليمنى ثم بترت الساق اليسرى كاملة.

* توفي رحمه الله فى مستشفى الملك فهد بجدة فى يوم الأحد الساعة السادسة إلا ربع مساء بتاريخ ٧/٥/٢٠٠٠م وكان إلى جواره أخيه المخلص أحمد مشرى وصديقه الوفى سعد الدوسرى وقد وورى جثمانه الثرى فى مقبرة الفيصلية بجدة، ويقع قبره فى الجهة الشرقية من المقبرة على مسافة أربعة أمتار من الجدار الشرقى وثمانية أمتار من الجدار الشمالى.

الميكانيكا .. والبازيل

على عوض الله كزار

ما يدور في العالم -الآن- هو صراع أطفال نمت أجسامهم فاعتقناهم كباراً .. أو هو صراع بين كبار ما زالت الحياة بين أيديهم لعبة مسلية .. أو أن اللعب المسلية هي في الحقيقة ترجمة لقوانين الصراع والتطور البشريين .. أو أن الكبار حنوا إلى طفولتهم ، فتذكروا دماهم (بضم الدال) وتصادف أنهم وأوا في مرايا المحيطات والبحار أناساً أصغر قاماً ، ومن قش وورق لاصع صنعوا ، فانقضوا عليهم ، فإذا بشئ من المقاومة يقاظهم ، فزاد الظن بأن المقاومين دمي حداثية تنزف دماً ، وتتألم وتموت (فاحلوت) اللعبة وكان ما كان من ترك العالم للفيديو جيم والآتارى والبلاي ستيشن ، وتماهوا مع شاشات الموت والبحار الحقيقيين . وقد تكون هذه الأشياء الأربعة هي أضلاع الصراع الذي قعره من تراب أرضى هو الملعب بوشطاه من سماء تلتح مرة عن نعيم ، ومرات عن جحيم..

داخل ذلك المكعب ليس من حق الغريغين المتصارعين الاتفاق على لعبة واحدة ، ففي هذا غبن لواحد منهما (والأصول تنص على أن يختار الأقل قاماً لمعبته ، ويختار الآخر لعبة تنتمي إليها بصلة نسب . وكان ما كان : اختار الأقصر لعبة من لعب (البازيل) ، فاختار الآخر لعبة (الميكانيكا) . (البازيل) ينهض على التدايعات الميكانيكية ، ذات التفكير الخطى بوعي في صورة من صورها عبارة عن مستطيل كرتوني مضغوط ، عليه منظر ما ، مثلاً : شاطئ ، يبعد من الشمامسي وأناس يسترخون وأطفال يلعبون ، وآخرين يستحمون وهذا المستطيل مقطع بطريقة معينة تمكن من تشويق القطع بحيث يتحاسب بعضها ببعض .. ميكانيكيتهما البسيطة تتبع من فكرة أن هذه الأجزاء وهي مبعثرة على غير نظام يمكن معرفة مشهدها العام بكافة تفاصيله ، فمثلاً : يد صغيرة تمسك بشئ أحمر على هيئة قوس طرفاه هما نهاية قطعتيها الصغيرة ، فإذا مشينا باليسر بوالقطينا جردلاً أصغر ، يصعد من جانبيه مستطيلان حمراوان ينتهيان عند حافة القطعة ، وكان -بالنظر- عرض كل من هذين المستطيلين يساوي عرض كل مستطيل ينتهي به طرفي القوس عند نهاية قطعتيها الخاصة ، أدركنا أن هاتين القطعتين ذات صلة مباشرة ببعضهما البعض ، فنعمل على تعشيقهما ليصيرا قطعة واحدة.. ثم نبحث عن بقية ذراع الطفل الموصولة بكتفه ، فنرى في خالقيتها- مثلاً- جزءاً من مضرب كرة يدفعنا إلى البحث عن المكمل له من بين القطع المتناثرة وهكذا .. هي إذن لعبة فيها الجزء قد يدل على الكل بولك جزء يدل على أجزائه الأخرى التي تحيطه مكملة تفصيلية ما ، من المنظر العام.. إنها لعبة تقوم على مبدأ (التفشيح) كل جزء بشئ بجزء أخرى.

(والميكانيكا) يرغبها أطفال البيت الأبيض ، رغم ما تعتمل فيها من قوانين جدلية (الوحدة والتنوع ، ونفي النفي) اكتشفها عروهم (ماركس) . والميكانيكا عبارة عن قطع معدنية مختلفة الأشكال يمكن توصيلها ببعضها البعض من أكثر من موضع متقارب في كل قطعة (على العكس من البازيل : كل قطعة لها مكان واحد) ، وهذه التوصيلات تنتهي إلى منجز واحد من منجزات لانهاية (قطار-سيارة- دبابة، إلخ) ويخرج من كل منها أشكال أخرى عديدة فالسيارة مثلاً ، بحذف قليل ، وإضافة قليل غيره تصبح لدينا سيارة إسعاف أو نجدة أو نقل ، وهكذا..

في كل مرة (بعد فك قطع المنجز الذي تم تكوينه) ينصف الطفل عدد معين من القطع ويضيف أخرى لم تدخل في تشكيل المنجز السابق بعبر سياق جديد ينتج جيداً.. والصعوبة في هذه اللعبة تكمن في أنه ليست هناك من قطعة تشي بزميلتها ، وبالتالي يضطر الطفل إلى أعمال أقصى طاقاته الذهنية والتخيلية وفق جدلية غريبة يقيمه بينهما بولهما خطأ خطوة صحيحة قلت الصعوبة شيئاً فشيئاً حتى تأتي مرحلة التدايعات الميكانيكية عند اقتراب المنجز من تحديد ماهيته . هكذا يتم فك الأنظمة ، النول الحكيمات ، لإعادة تركيبها على نحو نراه مغايراً وجديداً ، لكن ما يتم هو مجرد حذف لبعض من أضلاعه ، وإضافة بعضها آخر كان مركوباً ..

